صندوق الأربعين

قفزة حرة في السرد

ميس خالد العثمان

تشكيل للنشر والتوزيع

الأعمال الكامله

t.me/kotbhm

صُندوق الأربعين

قفزةٌ حُرّة في السردْ

مَحكيّ ذاتي

ميس خالد العثمان

2018

تشكيل للنشر والتوزيع

Email publish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555-70-9

رقـم الإيـــداع: 29479/ 2017

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

الإخراج الداخلي : ضياء فريد

المديـــر العـــام : سيد شعبان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحـبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

نَفْثة حُرّة

((... مواجَهَةُ الحقيقة تعني اعتِمار كيسٍ فوقَ رأسِكَ إلى أن تقضي اختناقاً، الأمر يتَطلّبُ إيمانا.

عليكَ أن تتحلى بالشجاعةِ كي تَتتَبَعَ أثرَ الإله نحو المجهول؛ حيث تَغمُرُكَ وتُؤلمُكَ أشياء جديدٌ كثيرة ...))

حافظ الشيرازي

من كتاب (عشق الروح)

أوّلُ الأوراق

طفولتي كانت طفولة انتباهة عالية. كلّ حواسي في تأهُّب مستمرٍ/ موجعٍ لاغْتِراف "الحقيقة" وما تعنيه، بدأ ذلك منذ وقت مبكّر أظنه قدْ أدْهَش أمي.

هذه الانتباهة رَمَتني في طريق السّرد بلا رأفة!

ميس

الإهداء

إلى روح "حانمي بادرية"

عشت بعيدة عني، ثم رحلت بعيدة أيضاً، وبين البعدين كنتُ أحفظ عنك الكثير وأحمل كلَّ عنادك ونصف مثابرتك وربع صبرك.

وعدتُك يوماً بأني سأكتبك نصّاً زاخراً بالعزاء.. إنما هذا الفتْق الرَّحيم: هو لك.

ميس/ ابنة ابنتك

مباركة رَبّ السماء والأرض وما نجهل؛ وُلدتُ من جديد.

أظنني جئتُ لهذه الحياة [هذه المرّة][1] ككائنٍ تحريضيّ. فوجودي [كما يراه الآخرون] هو محضُ احتجاج.

بينما في الحقيقة، أرى بأني أمارس احتجاجاً متواصلاً على كلّ أشكال الخضوع اللاعقلاني، اللامنطقي واللاإنساني الذي يُمارَس في كلّ لحظة في هذا الكون وبلا توقّف!

ربما لأنني حين اخترتُ الخروج للقاء هذا العالم في يوم خريفيّ من عام ١٩٧٧، ظننتُ بأني أتيت لعالم خيِّر ونبيل، مستعجلة ومتلهفة وصلت، وربما لهذا السبب أيضاً قرّرتُ الخروجَ أسرع بأسبوعين من الموعد الطبي المتوقّع لي، في يوم باركهُ إله الفَصاحَة؛ "عُطارد" في الرومانية [الأربعاء]، من شهر "البَدْءْ" بالسريانية [تشرين]، وهُوَ كذلك شهر "إِدبارْ" الحرارة في الجاهلية، من سنة "الأفعى" الصينية [١٩٧٧].

ولدتُ واسمي كان حاضراً ليلحق بي كلّ العمر، والـ "مَيْسْ" شجرٌ جبليّ صلبٌ، منه تتخذ الأخشاب للمهن الصعبة، شديدة البأس والاحتمال، شجرٌ ينمو بعناد على جبال لبنان، والتقيتُه وجهاً لجذع في "فلورنسا" الإيطالية، شجرٌ وحيدٌ يرعى ذاته، ولا يتعبُهُ تحوّل الأنواء للشدّة، شجرٌ غير مُتطلّب على أيةِ حال!

---

(١) [...] هذه الأقواس بمنزلة عبارات تنويرية/استدراكية/شارِحة، لتعزيز المعاني وتدعيم الفكرة/الرأي، ستَرِد بهذا المعنى في كلّ الكتاب.

لبستُ قميصي الجديد كأنا في [هذه الحياة] وشَقَقتُ طريقي في بدايات تكليف يانع الحضور، فذاكرة الألم/ الآلام السابقة طريّة قليلاً، لكن الفضول الملاصق كالظلّ للإنسان يُعاود التمظهر بقوةٍ تبرَع في دفعنا نحو إعادة التلمّس للمفقود من لوح عتيق/ عميق بالتجارب والمعرفة، وكأنها أوّل مرّة، ببلاهة تامة.

حين بدأتُ بالتعاطي مع هذا الكون العجائبيّ، وهي بطبيعة الحال سنوات من التلقي الأوّلي الذي مُورِسَ عليّ وعليكم على حدّ سواء، وجدتُ بأنه عالم يفتقدُ للأُلفة، بل ليس لطيفاً على الإطلاق. لذا، فإنه يحتاج إلى كائنات نابهة في ممارستها للحياة، بشرٌ يمتلكون أكثر من خمسِ حواس وفراسة تُعينهم على التقاط كلّ الإشارات الكونية البرّاقة التي تُحَفّزُ على ارتكاب السؤال المراوغ بكلّ ثقة وصلابة.

كنتُ على مدى العَشريّات الثلاث المنتهية، أبحثُ عني.

وحين تلامستُ و "الأربعين" [العشرية الرابعة] قررت الالتفات للخلف قليلاً والتأمل طويلاً فيما كان وما سيكون.

إذ يجيء هذا "السّرد الطويل الكاشف" لـ يقدّم عطاياه لي أولاً ولكم ثانياً، أو لكلينا على حدّ سواء.

فأمثلُ فيه أمام محكمة ذاتية يقودها بسلاسة "حبر الاعتراف" والحَكي المتلاحق، لأعاود تذكير نفسي أولاً بما حَصل وما كان [أنبشُ بصندوقٍ مُقفل]، أُصغي مجدّداً لارتداد الحدث وعدد مرّاتِ الارتطام العنيف الذي جابَهَتْهُ روحي، لصوت الحصى في بئر السنوات الطويلة الماضية والمتبقية التي لا أعرف مقدارها، أواصلُ فَركَ أحجار الأسئلة المدبّبة لأُشعلَ الشّرار، وأتحرى استكمال الإجابات الناقصة بقصوري الشخصي، والاستفهامات الخابية بانشغالي الموجّه

لما حولها، وطيف الخلاصاتِ غير المنتهية كذبابة مرافقة منذ التكوّن الأول، تطنّ قرب قلبي/ عقلي ولا تهدأ، متمثِّلة بـ لماذا؟ وكيف؟ وهل؟ [ولا أعجز ولا أملّ ولن يثنيني أي شيء].

سأطرحُ تجربتي "المتفرّدة" [نعم متفرّدة، فكلنا يعيش تجاربه الخاصّة وهي ليست ميْزة بالتأكيد ولا كِبَرْ] إذ أننا في عالم يضجّ ويسوءُ ويتلوّث ويَتسخّم ويَزدحم بالتقييم والمحاكمات والفرز والتصنيف من دون أن يَجرؤ كثيرون على إخراج/إتاحة ولو أجزاء صغيرة من عوالمهم للوجود كما هي، واضحة/صريحة/ بلا تلميع، أو تنميق. لن أُوارب فيما سأكتب، كما يخادعكم عدد من المشاهير؛ البرّاقة أسماؤهم والمتكرّر حضورهم، فأنا [حقيقة] لستُ مشهورة ولا أُحبّذ أن أكون، فإن تكنَ مشهوراً لا يعني بأيّةِ حال أنكَ "كائن جيد"، فالسارق مشهور والقاتل مشهور والكاذب يمشي بين الناس وعلى رأسه سهم كبير.. وهكذا.

1

((الإنسان: نتاج ذاكرته وماضيه))

جِدو كريشنامورتي

أنا في الأربعين الآن، أقفُ على رأس التلّة وأنظر جيداً من هناك!

سأقولُ وسأحكي، هنا قفزة حرّة في السّرد [محكيّ ذاتي]، إذ فكّرتُ طويلاً متسائلة: عادةً نمضي سنواتٍ طويلةٍ في الكتابة عن آخرين، غُرباءَ لا نعرفُهم، بل نَخْلقهم في عقولنا ونعبّئ أرواحهم بالمشاعر ونضعُ في أفواهِهم الكلام، نرسم خطوط سيرهم كمجرمين، أو عشاق، أو محاربين. وبكلمتين/ عبارتين، إما أن نُمارس قتلهم في آخر الحكايات، أو نمارس "أُلوهيّتنا" تجاههم فـ نُكافئهم [كما نظن بأنه على الإله أن يَفعل] بعد إغراقهم طويلاً وعلى مدى صفحات تتجاوز المئات في الظلم والخوف والارتباك، والمكافأة هنا كنتيجةٍ نهائية [رديفة لفكرة إيمانية] ينتظرها الإنسان كلَ عُمره، بلا تعريف متّفق عليه لمعنى "الثواب". سؤالي الذي استغرق مني وقتاً لطيفاً في تأمّلِه: لِمَ نبرع في الكتابة عن حَيَواتِ غيرنا، واقعية كانت أم خيالية، للتحدث عبرها إليكم، أو للوصول لـ لا وَعْيكم، بينما في حيواتنا الخاصة/ الشخصية ما لا يُصدّقه عقل أحيانا [من مرويّات] وما قد يبهج قارئ باحث عن خيطِ حقيقةٍ في هذا الكون المُمتلئ بالحكايات؟

لماذا نُؤلِّف قصصاً هي محضُ خيالٍ منزوعةٍ روحَهُ لنُمَرِّر أفكارنا؟ نعيد الفعل الدائرِ بحبالِ/ حبائلِ الكذبات الكثيرة المتوارثة وما نقل لنا من أساطير بعيدة، نعيد فتْقَ إرثنا المعجون بألفِ حكاية مما يُرْوَ على أطرافِ النّعاس وما يُلفَّق على وجهِ التاريخ كـبَقين؟ بينما عايشنا الحقائق الـ تَخُصّنا ولو على أطرافها؟ نحن نمضي سنوات ونحن نُؤلِّف.. ولا نجرؤ على أن نسردَ شذرات من تجاربنا المغشاةِ بألفِ حجاب. أو أن نُمارس الاعتراف الإنسانيّ بفيضِ التجارب التي كوَّنتْنا ولم تزل؟

التدوين والسّرد هنا، مُربك وحزين [على الأقل كما شعرته أنا. بينما تَصْعَد مشاعري وتَهْبطُ بالآه] ويُرخي خيوط مرارات أصلحتها بنفسي كي تذهب بعيداً ولا تظهر في أحلامي ولا في حواراتي الذاتية.

هاهنا، إعادة للتأمل في صورٍ غامَتْ بالتقادُم والزمن.

وبرغم ما قد يظنّهُ بعضُهم "سَهْلاً"، فهو ليس مُجَرد نقل لحكايات من حياتي "التافهة" إليكم [كما قد يتنازعكم الآن]، ضعوا كراهيتكم [أو حبكم] لي جانباً واقرؤوني بحيادٍ إنسانيّ، اتركوا آراءكم المنتقدة نحوي، لأني كائن محتجَ دائماً، ومارسوا القراءة وأنتم متخفّفين من صوركم الذهنية المُسبَقَةِ لي، أعرفُ بأنكم تحرصون وبشغفٍ عالٍ على اقتناء ما أكتبُ [رغم كلّ مآخذكم ضدّي].

مهما ظننتم بي، فإني أجازف باتجاه ما يولّد القلق العالي [«ندي ينتجُ نبضاً محسوساً في قلبي ورقبتي] ذلك الذي يتملّكني عند الدخول في الكتابة. القلق الذي يدفعُ الكلامَ للانهمار بلا مَحْو متُرَدِّد، ويَعْقِدُ حاجبيّ بشدةٍ ويتركُ تجاعيده بلا رحمة على جبيني، القلق الـ يشحن القلب/ القلم بالمزيدِ من القَوْل، إنها

الرهبة التي تدفعنا إلى حافة اللامبالاة فيما سيكون لاحقاً، فـــ يَنْشطر لاثنَين، ليكون قلقاً يَلِدُ ارتباكاً معيّناً في مناطق محددة، والارتباك يتصاعد بعد أن نُعيد التفكير بمنطوق الحقيقة التي سَتَتَلَقّفُها أنماط متعدّدة من القرّاء حولنا ممن لم يتَهيّؤا بَعْد لـ حُسنْ التلقّي والفهم والوعي، توافُقاً أم رفضاً، وهُمْ كُثر بالمناسبة.

قُرّاء على شاكلة "الرقيب"، الموظف، الذي قَبِل بدوره الرخيص/ وظيفته الـ تُطعمه ما يتجاوز "الخبز" على أن ينسف بشطبٍ قاسٍ من قلمه الملوّن العريض كلَّ جمالٍ للفكرة والتعبير والجِناسِ والطِباقِ والمَجاز والخَلْق والجنون والدهشة في هذا الكون؛ عبر كلمات تحيّرهُ فــ يُنْهيها بالحجب. أو قرّاء على نمط أولئك ممن "يخدشهم" قولك فـ يُسارعون [بعد سوء الفهم والهضم وكثير من سوء النوايا] لرفع "قضاياهم" ضدّكَ تختصمُ بيننا/بينهم/بينكم المحاكم للفصل بين "خدشِ حياءٍ" مُورسَ بكلمة وتأويل مُجْحف وبين موقفنا من السّرد والقول والكتابة، ولا تدري حقاً إنْ كنّا قد "خدشنا حياء" أحدهم، أم تسبب ما كتبناهُ بـــ لَيّ عُنق الطاعة بقلمنا / الشوكة الموجعة في خصر أحدهم؟!

رغم كلّ ذلك، أتدَرّع بيقينِ الوعي وشعلة الانفعال المنفلت [ليس منكم في الواقع]، بل من جيلٍ جديدٍ سيولد بعد ألفِ عام، فنحن السّرديُّين نقول كلاماًمثيراً، قد تعرفون مغزاه حين "نغادركم"، فكما تتنطّعون [الآن] في غوستاف فلوبير، ودوستويفيسكي، فيكتور هوغو وبلزاك، تولستوي وفولتير، فرجينيا وولف وجبرا إبراهيم جبرا، بيكيت وماركيز، دانتي ونجيب محفوظ، بهاء طاهر وأورويل، صلاح عبدالصبور وكفافيس وغيرهم من العظماء، وأيضا من "اللامعين" ممن تهرّأت أسماؤهم لأنّ الجوائز قد اختارتهم، تلك العطايا التي تُشعل دورياً أيامكم واختياراتكم في القراءة في فترات خواءِ الوعي وخَدَرِ

الشعوب والوفرة المادية ورغبة دُويلات بالإشعاع الإعلامي العالمي، كلّ العظماء ممن تملئون صفحاتكم التواصليّة الاجتماعية بمختارات لما كَتبوه يوماً [وأغلبها مدسوس خطأً تحت أسمائهم]، كلّ هؤلاء ظلمتهم مجتمعاتهم يوماً ما، فقد كانوا مكروهين وهم بين "ناسهم" أهلهم المفترضين، وبَرَع من حولهم بتمزيقهم بألف تصنيفٍ وتُهمة. لذا، ستعرفون يوماً بأن "النصّ الحقيقيّ" باقٍ وبأننا الآن لا نكتبُ لكم فعلاً [وإنْ كنتم تقرؤون]، لكن الوعيَ بعيد، تماماً كالفارق الزمني بينكم الآن وبين نصوصِ شكسبير، مثلاً، التي تتلقّفها أياديكم وعقولكم وأعمالكم الإبداعية بحجّة إعادة بعثها بتشكيلات مفتعلة/فاقدة للمعاني الراسخة؛ تتلفها بلا رحمة!

عموماً، بينما تنشغلون أنتم بمنات التفاصيل اليومية الساذجة التي خَصّصها "الله" لعبادهِ العاديين والتي لا نمارسها في العادة، فنحن [رفيقي وأنا] ككُتّاب؛ نكرّسُ كلّ عواطفنا وجلودنا الرّقيقة، تلك التي لا تفهمُونها [وتزعجكم حساسيتها العالية]، وكلّ أفكارنا التي تَصدِمُكم في الغالب [وتشتموننا بسببها بينما تبحثون عنها خفْية]؛ نحن في الواقع نمضي أغلب أوقاتنا في عملٍ متّصلٍ، يحفظ أرواحنا [باختيارنا] كي نُعيد إنتاج بعض النورِ لهذه الدنيا التي تُلهيكُمْ باللأجدوى والاستهلاك [باختيارِكم]، لنعيد رسم وتفصيل وتمرير ألطف الطرق لإعادة ممارسة الحياة، لنا، لكم ولأبنائكم، وليصفو الكون ولو قليلاً. فهذه الدنيا لن ترتاح ما لم تتلاشى الكراهية [التي يبرع الناس جيداً في توزيعها على الجميع] ويعلو الوعي.

ففي نهار كالجمعة، مثلاً، النهار الذي تنتظرونه كلّ الأسبوع، لتخطّطوه لساعات ضائعة في التجوال داخل المراكز التجارية ومضغ الطعام الذي أفسَدَتهُ المطيّبات،

أو بالتمدّد في الشمس قرب ماء البحر وصيحات الصغار، أو تقطيع ساعاته في النوم حتى العصر هباءً [وهذا حقّكم طبعا]، استثمره أنا فيما تسمّونه أنتم "التأليف".

لقد أمضيتُ حوالي ١٨ عاماً في "التأليف/ السّرد والكتابة"، لأجلكم، أنتم قرّائي الأعزاء ممن لا أعرفكم ويؤسفني بأني لا أعرفكم [خصوصاً أولئك ممن يلوون شفاههم امتعاضاً حين يقرؤونني]، أنتم يا من أحتفظ برسائلكم المُحلّاة بالشكر والامتنان، وغيركم ممن بَكَوا طويلاً في ليالي القراءة لأنهم تحسّسوا آلامهم في السّرد، وصفّقوا لزوال التعب عن قلب الأبطال في النهايات، وأعادوا ترديد العبارات السّردية التي راقت لهم بصوتٍ عالٍ داعب ستائر غرفهم!

أنتم يا من تشتكون في العادة من "الملل" وتسألوني حين نتصادف في شوارع الكويت: "ما جديدكِ أستاذة"؟ بينما لا تعطوني الفرصة أبداً لاستيعاب معنى الملل؟! أنتم يا من تظنون خطأً بأن "الكاتب" يعيش في فقّاعة لها رائحة الزهر كلَّ الوقت، هائماً في ملكوت متخيّل هو أعلى كثيراً مما يمكنكم ملامسته!

نحنُ بُسطاء حَدّ الشّفقة علينا، كائنات مسكينة، نَذَرَتْ أصابِعَها/كفوفها و أكتافها للآلام المُبرّحة، التي لا تَفلحُ حتى أشدّ علاجات الأطباء معها، ورؤوسنا معبّأة بالبشر / بالشخصيات الحكائية التي نعرفها ولا تعرفنا، محتشدة بالخير والشرّ، نغفو على فكرة مدهشة كما "النّبوءة" بأملِ تَدوينها صباحاً، لكنها تنجو بنفسِها كلَّ الليل ولا نقبضُ حتى على أطراف معانيها. يُقلقنا ما نكتب، وما لا يُمكننا كتابتُه، وتضعفنا [أحياناً] نظرات أهلنا المفجوعة بـ غَرابة أطوارنا، نَغيبُ في سُباتِ التدوين ونختفي، ولا يهمنا إنْ مَزّقنا ما كَتبنا، فالكاتب مُتعبٌ بعمله الخاص لا يحصل على إجازة حقيقية؛ حياته مزدحمة، مُعلّقة في عملٍ

دائم/دائر، يَكتُبُ أو يُفكّر طويلاً فيما سيكتب. بهجسٍ دائماً خشية نضوب الأفكار وجفافها!

معَ ذلك المرَارُ كله؛ فنحن معنيون بأولئك الذين تسحبهم الأسئلة إلى أقصى حريقها، الذين لا تتوقف حدودهم على أطراف بوابات الممكن والدارج والعادي والموروث، هم المتسائلون؛ اللّجْوجة استفهاماتهم، الذين هجَروا "خيمة الرضا البدائية" وتجمّعوا في "خيمة الشكّ الدائمة" ونزعُوا أوتاد اليقين "المؤقت"، أُولئك الذين لم يُعجبهم الاكتفاء بالمعرفة الأولى والتلقي البكْر. بل نحن ننحت كلاماً/ أفكاراً لمن يستمرئ التجوال عارياً في طُرقاتِ الشكّ ولا يهمّه إن بَدا للناس كشخصٍ مُريب.

نحن نحيا في عاصفة الارتياب الحميدة المتكرّرة. مرّة بعد مرّة للوصول لصفاء الرؤية بعد الغبش.

يسألنا أحدهم: «ولماذا تسألون كثيراً؟ فهناك أشياء إن تَبدُ لكُم..»

لا يَسؤنا إلاّ قبولنا بأن نكون كائنات "فائضة" عن رغبةِ الكون المتيقّظ أبداً بالتغيير والفعل الجديد والتحوّل، فحينما نشكُ/ نرتاب، فإننا نقرأ، ثم نكتب، فنحن بشكلٍ غيرِ مباشرٍ نَدُسُّ أنوفنا فيما فكّر فيه الكتّاب من قبلنا؛ كُتّابنا الذين فتحوا خزائنَ صحْو الدنيا لنا ولم يتركونا في الخواء نندبُ حظنا في الضّياع. حينما نتحقّق، فإننا نقرأ، ثم نكتب، فنحن نسلكُ طُرُقَ الظلام المتعرّجة بالقشعريرة الناجمة عن خشية عدم الفلاح في الوصولِ لضوءِ يفتقُ/يفتحُ بقية الدرب.

نحن "كقرّاء" أساساً نتمازج/ ندخلُ/ نشتبك بالآخرين من "الكُتّاب" النُّجباء، بينما نقبضُ على اللّذة التي تغمر الروح بإدراكٍ حميدٍ، اللّذة المترتّبة على الصعود لـــ رَبْوةِ الكشفِ الـــ سَبَقونا إليها مُحمّلين بأشواكِ الطريق

وسَلاسل الرّقباء ونَهْي الأقرباء وعصيّ "الأغدقاء" ونميمةِ البُلَداء، فحيواتنا التي تظنونها مفتوحة على الكون، هي في الواقع قد تكون أضيق من ممرّ مظلم.

لكننا نتنفّسُ عبر التدوين والكتابة والسّرد [نعيش فعلاً]، عبرَ الصّعود على سُلّم الوعود بإعادة التشريح على طاولات الكتابة والحَذْف، لا مُبالين بمن يُحاول سَدّ الممرات علينا، بل إننا دائماً أمام هذا التّجني والفُجور والتّعدي على حُرياتنا الأصيلة من لَدن الآخَر/ المُتأخِرِ الواقفِ خلفَ التّلة البَعيدة/ البَليدة بالمَوات، ويصيح في البشرِ مُحذِّراً مِنّا؛ نظلُّ ننتج الأفكار ونَتعَبّدُ في قُدسيّة الأسئلة ونفرحُ بانهمار المزيد من الشكّ، وإياكم والظَنِ بأنه يمكن للأفكار أن تُختنق! [هذا هو المستحيل].

أكتبُ وأتعكزُ على احتراف السّرد، الذي هو هبة ربّانية مقدّسة، لا تشترى مهما حاولوا ذلك، تُفرّدُك في إعادة شحن الحروف وتفصيلها ونَحْتها وتفعيل الدّهشات المرافقة لتأثيث الكلمات.. السّرد/ الحكي/ القول/ التدوين والكتابة، هذه من فضائل المُعطي الذي لك أهداها كي تكمل "رسالتك".

2

ربما تعلّمت ذلك من "جدتي بدرية" [الغافية بقلب الله] فتلك السيدة كانت حكّاءة ماهرة ومن طراز فاخر حقا!

سيدة تتألق حين تنقل كلّ تلك الحكايات/ المواقف البعيدة عنّا، وتعبّر بمهارةِ ساردةٍ حقيقية لتفاصيل الصور/الأحداث والسّيَرْ بأداءِ ممثّلة محترفة تزيد قليلاً وتتصرّف لإبراز أجمل ما يمكن أن تحمله المَشاهد تلك، فمشاهِدُها التي نقَلَتْها عبر ذاكرة ساطعة بالانتباه العالي، تَبْهَرُ اللقطات [قليلاً] باحتراف عالٍ لا يشعرك إلاّ بأنها و [أنت أيضاً] جزء أصيل من ذاك الحدث [الذي لم يسعفك الزمن لأن تراه]، الجدّة، تغيير جلستها/ وقفتها، مثل مخرج متمرّس بأفضل الزوايا التي تخدم الفكرة/المشهد ليروي أهم الأجزاء من قصته [أداءً باهراً] لتُعيد هي تنسيق أرواحنا المتلهُفة لمعرفة وغَرْف المزيد من التفصيلات والعبارات الأكثر رسوخاً فيما / فيمن عَبَرَنا، أو عبَرْناه من بشر!

كنا [ونحن أمامها وهي مرّات تعدّ على الأصابع] نؤخذ بكلٍّ هذه المسرحيات الصغيرة المتناثرة بين حكاياتها، والتي لعلّها اقتبستها مئات المرات عن آخرين، بل حَكَتْها لنا أمي كلما استرعى حدثاً جديداً ذاكرتها البعيدة بما يماثله.

نحن كلنا أدوات عقلية للنقل والإعادة، فلا شك بأن هناك من بذر أول جنونه، وتركه نهباً/مشاعا/مشروعا لكلٍّ قادم ليضع إنسانه، ويلوّنه بعباراته التي تشبهه، وتداعب خصوصيته، ونقبلها!

جدتي "بدرية"، سيدة الاحتفالات و "الأَبوذِيَاتْ" والنَكات والضَحكات العميقة، والحزنِ المُقيم، سيدةٌ تشبه الحياة كلها، بل راعية للتفاصيل التي لا تليق إلاّ بامرأة مثلها تُتْقن اليقظة وتجيدُ السَرد شفاهةً وتُحسن الانتباه لمواطنِ الجمال [بحسب مقاييسها] في الآخرين ومكامِنِ النقصِ الـ تُشير إليها دوما بإيماءةٍ ذكية لا يلتقطها إلاّ الأقربون، لنَغيب في غيبوبة انتشاء ضاحكة لا تَنْتَهِ سريعاً. [كنتُ أسبقهم للتأمل في وجهها الأبيض الطفوليّ برغم سنواتها التي كانت قد هبطت نحو السبعين، تلفتني دوماً تجاعيد مرتَّبة تسكن أعلى شفتيها وتتزايد نحو الأعلى كلما ضمّتهما، هي علامات أكيدة على استعمالها المتواصل لعضلات وجهها تعبيراً وانفعالاً].

أنتبه جيداً لحركات يديها الدافئتين اللتين ترك عليهما جهد السنوات آثاره، أُمعنُ النظر لخاتمها الفيروزيّ الأصيل الذي لا تخلعه أبداً إلاّ لاستبداله بجديد يُهدى إليها من عزيز، وتبقيه من فرط معزّته في بِنْصر كفّها الأيسر حيث يتصل بالقلب.

كان يلفتني دوماً إطار نظارتها الأسود العريض الذي يرتفع عاليا عن محيط عينيها/ حاجبيها إذا ما باغتتها ضحكة من نصف القلب، وانتفضت تهتزّ بمرح يقسم بابتسامتها خدّيها لتولد غمازتين حنونتين، وتتناسل الضحكات جداولاً من فرح!

ماتت الجدة الضاجة بالحكايات في يوم عادي، موتها كان هادئاً [كما أخبرونا] بشبه مقتطعاً سردياً قصيراً. ماتت؛ لكن كلّ حكاياتها التي توارثناها عنها حيّة وكأنها هي كلّ تاريخها [الذي يهمّنا]، بل مرويّاتها الماتِعة هي الأبقى، لأنها ما زالت تُتناقل بإتقانٍ عبرنا نحن أحفادها [المباشرينَ] الـ تجاوز عددنا الـ ٢٦.

3

نحن السّاردون نتحدّث كثيرا!

نحسنُ الكلامَ عن كلِّ تلك القصص الصغيرة / البسيطة والعابرة التي قد لا ينتبه إليها سوانا. هائمين نحن لا نأبه لعقارب الوقت إلاّ ضمن حكاية مختزلة، تجدّد مشاعرنا وتُسخّنها، بعد أن تكون التفاصيل مثل لحن غامر سَرى جيداً في أرواحنا، ثم خَبا، فماذا بعد ذلك؟

هل نفقدُ شغفنا في الحياة وما يُلوّنها كلما رَانَ على القلب حُزن؟

ولعلّ جدتي "بدرية" لم تُرتب/تؤثث لمعنى أن تكونَ "ساردة" تستوقفك محطات الكلام والأرواح والتحولات والاستدراكات والملاحظات فيما تنقله حول أبطالها [الواقعيين] الذين أحببناهم؛ هيَ لمْ تكَن مهيأة للغوص عميقاً كما نشتهي نحن [الكتّاب] ونتكوّن ونتحوّل.. إنما، مارَسَتْ السّرد كأبهى وأشجع ما يُمكنها، كما يُمتعها.. كما يُشبعها ويُرضيها.

وأظنني، الوحيدة التي قَطَفَتْ "جِينات" الحكي والكتابة والقول عنها!

وهي الحالة التي تلبسني بشكل دوريّ كلما زارتني "دورَةُ الفتْكِ" الكتابيّة، التي تُحيلنا لكائنات لا مُفَسّرة!

لأننا حين نشـــعرُ بأننا نشعر، يَتورَد/ يتورّم الجزء الناتئ من المحبـــة في "الوُسْطى" حين يَشتد نزفُ القلب جبراً /صبراً، تتخـــدَر نهايات الساعات شُكراً! حين ننفضُ بطانة أرواحنا عن أحرفٍ تتداعى في الشقاء، يخيّل إليّ بأني أطحن زنجبيلاً طازجاً مهيئاً للـــ "سُف".

يتوبُ الأنبياء عن شكِّهم السريّ ولا نَفْعل! وعلى عجلٍ، نحط وصايانا دفقـــــــةً واحدةً/غامرةً، نُشعلُ سيجارة لا يُدخنها أحد ليُرتّب رمادُها معنا مواقيت العباراتِ/العَبرَات أيها تَسْبقُ المودةَ بحرفين من نزقٍ، ونرسمُ أسهُماً بلونِ الوردِ تتوجُ مهرجان النضج الأخير.. ولا ينتهي حفل الحصاد الصغير أبدا!

نظلُّ [كلَّ العمر] مثل باحثٍ في الهواءِ عن نسمةٍ لا تشبه أختها، عما لا يَـــجئُ نفتّشُ، بين رفوفِ الشهواتِ المكدسةِ بالورق، العابقةِ بالبَذرِ/ البذلِ الرحيمِ، ونَنْبشُ عما يُحزن الفكرةَ، عما يُنزِلُها منزلَ شكٍّ، عما يُدفئ الانتظار الهادئ / الهادر بالأسئلة، عن زوايا لم تُحرّر بعد، عن أماكن لم تُكنسْ من أول الغبارِ الساكن فيها، لنرتفع خِفافاً لسماء لم يلطّخها أزرق بعد. سماءُ أوّل الفهم وسماء المرتبكين بالود؛ بيضاءَ من كلّ مَسْ.

نحن نجاهد فعلياً، حين صعد المَرارُ يوماً في حديث مشترك مع عابر، طرحتُ عليه أسئلتي:

ما نفعُ أنك قادر على الكتابة؟ كتابة أيّ شيء، بل وكلّ شيء. عدا ما يهدّد حريتك ومصالحك ووضعك الاجتماعي وبؤرة الضوء الثقافي التي تشغلها؟

لماذا تَكتبُ أصلاً؟

لماذا تُفكر إذن؟

لماذا تختلفُ أساساً؟

لِمَ تُفكّك، ثم تجمعُ حروف اللغة بقصصٍ رتيبة، أقصى ما تراه فيها من تهوّر [قد يبقيك تبرم القلم خشية بين أصابعك] هوِ القليل من "الفَذْلكة" المختبئة وراء علاقة حبّ ساخطة؟ هذه القصص منذ بدء الخليقة تدور بلا انتهاء وما عادت تدهشنا. ماذا تفعل أنت بموهبتك ما لم تفضح / تنبش/ تَغور في الإصابات عميقاً/ في النوايا حتى أقصاها/ في الحقيقة ولو على أولها، حتى ينتفض المَعْنيّ بالأمورِ كُلها وينكشف؟! بل، حتى يهتزّ قُرّاؤك ويستقيم فهمَهم لما هو قائم/ دائرون... يبلغ احترامهم لك أقصاه، ولو افتقدوا متعة سَردك.

ما فائدة ما يُجاور اسمك من وصف، كاتب/روائي/قصّاص/أديب/ مفكر.. أو مثقف، ما لم تُصرّح من دون خوف، تسرد وتُحسن تقدير موهبتك عبر استخدامها؟

أنتَ "نبيّ" مُرسل، هكذا بُعثنا لـ "نُتَمم" اكتشافات الأسلاف.

نَبيٌّ بما تُغيّره في رؤوس لا تعرفها عبر كتاباتك، وإلاّ.. فأنت محضُ "مُدّعٍ".

4

وأنا أدقّ باب الأربعين..

بماذا أُسرّ لكم؟

بأنني منذ تَفَتّحي الأول لم تَكُن أحلامي بمقاسِ أحلام الفتيات الصغيرات، أمنيات قريناتي مُتشابهة، بينما كنتُ أغيبُ في مبهجاتِ الآتي سَفَراً عقلياً واسعاً/ بعيداً عبر أحلامي النهارية/الليلة وتخيّلاتي الجميلة القزحية، التي كنتم تسمّونها [تندّراً] أحلام اليقظة، بينما أُسميها مُبهجاتي الخاصة!

لكن:ما لا تعرفونه، بأنني على ثقة من أنّ كلّ تلك الرحلات الذّهنية المُبكرة عَرَفَتْني على تَجاربُ الدّنيا الكَثيرة وعارَكْتها بعدما عارَكْتني [بيوم طرّحتُ الكثير من الاستفهامات خلالها] ورحلتُ لبقاع لم أتعرّف بها ضمن مناهج المدرسة، أو حكايات "ماما" لما قبل النوم [لَم أكن أحتاج لتلك القصص أبداً]، كنتُ أُسرفُ في النّبش لأن "العادي" ما كان يُشبع السؤال عندي، فأفرد قبل الدخول في النوم "التحليق" فيما تسمونه "خيالات الصغار المضحكة" [وتنهون أبناءكم عنها]، وأكتشف طرقاً متنوّعة من كيفية التعاطي مع الممكن وما سيأتي على هيئة "مصيبة" في يوم ما .

لذا، تَجِدوني أستلّ من خزانة تلك الأحلام "البنفسجية" صوراً ومشاهدَ ومواقفَ مفترضة، وحلولاً لها [كلما واجهتني ركلة قَدَر] عالجتُها/عاجَلتُها بما لديّ من تجارب مررتُ بها خيالاً.. ومضيت.

لم يؤذني أن "يُسرق" فستاني الذي ابتاعته لي أمي حين سافرنا في ١٩٨٩ إلى «النمسا»، الفستان الإرث المطرّز بأحرف "أكس" اللاتينية الحمراء، والمذيّل بـ دانتيلا بيضاء رقيقة، والمنتفخ كما ينبغي لفتاة "بافاريّة" أن ترتدي، ومَرْيلة بيضاء ناصعة تُربك التزاوج الصريح بين الأحمر والأزرق. فستاني الذي أخبرت به "مِسْ وفاء[1]"، بل صديقتنا/ أمّنا، التي كرّست محبتها لتَسْقينا كلّ لحظة من علوم الحياة متّكئةً على علوم الكتاب البدائية نسبةً لما كنا نفكر به معها، لم يهزّني أن امتدّت يد زميلتي "عبير" لتسرق الفستان وتصمت جيداً، وفي الواقع كانت تسرق دور البطولة منّي عبر سرقتها لفستاني [ليتها تقرأ كتابي هذا الآن]، لقد كانت تريد أن تحظى بدور "بورتشيا" بطلة مسرحية تاجر البندقية، هل انكسرتُ يومَها وأنا ابنة ١٥ ؟

أبداً.

أتذكّر بأنّ ارتباكاً انتشرَ في قاعة التجارب المسرحية، لأني لم أجدْ «زيّ» الدور/فستاني الخاص، وتعطّلت البروفات، فكان أن سألتني "مِسْ وفاء"، هل تشكّين في أحد ما؟

---

(١) المعلمة: وفاء جعفر؛ رئيس قسم اللغة الإنكليزية في ثانوية هدية للمقررات، خلال الفترة من ١٩٩٢ وحتى ١٩٩٥ تعلّمت منها الكثير ومُمتنّة لجهدها النبيل معنا.

نَظرتُ في عينيَ "عبير" وأجبتها: ((نهائياً، فليذهب الفستان لمن أرادته، ينبغي أن ننجز بروفات المسرحية ونحصل على جائزة المنطقة التعليمية)). ضمّتني "مِسْ وفاء" لصدرها الممتلئ وهي تتمتم:You are such a great girl، بينما انهارت "عبير" في بكاء غريب، والْتَفّت حولها الزميلات العارفات بالسر، بشفاهٍ مَمْطوطةٍ بحقدٍ [ساطع] كنتُ قد توصّلتُ لسببه.

تركتُ لها دور البطولة بهدوء، كما رسَمَتْ هي، وأعَدتُ حفظ دور "الوصيفة - نيريسا"، بينما زميلاتي حانقات لتنازلي عن دور البطولة بهكذا رضا لم تفهمنَه. كنتُ [لسببٍ ما] مبتسمة بانتصارٍ رهيب، لأننا كنا في كلّ لقاءٍ "دراميّ" خلال مراجعة نصّ «تاجر البندقية»، أنظرُ في عينيها عميقاً وأُسَمّعُ دَوْري المشتبك مع دَورها، لتبكي في كل مرةٍ من دون مُبرّر دراميّ عدا "شنيعِ" فعلِها.

هل كنتُ أطبّق ما قاله عيسى المسيح يوماً؟ [من دون أنْ أعِي ذلك بالتأكيد] "من أراد أن يُخاصِمُكَ ويأخذ ثوبَكَ، فاتركْ لهُ الرّداءَ أيضاً".

وبقيتُ أتبعُ هذه الحِكمة كلّ سنواتي اللاحقة، وكنتُ من يَربح دفءَ قلبه جرّاءَ ذلك.

5

الآن؛ وأنا أعبر بابَ الأربعين..

بماذا أتأمّل؟

أتبصّر بكلٍّ ما مَرَرتُ به منذ طفولتي حتى الآن، كأنثى وكفتاة وشابة وكـ سيّدة لامَسَتْ المحبةُ خَدَّ صِباها منذ البدء ومنها اختارت أصدقاءها الذين بَقَوا، أو الذين عَبرَوا وانتهوا فُراقاً، لأنّ وجودهم [حينها] كان لسببٍ وقتيّ وانتفى، أو الذين ما يزالون في محيط فرحها؛ يغذّون الحياة بمفاهيم جديدة، كنتُ فتاة نشأتْ ضمن جيل وَسَطٍ بين النّعيم والشقاء، بين الشدّة والحَزم وشيء من الحِرمان [لم تَكنْ فترة مراهقتي الأولى فترة "نَغْنَغة" كما يظنُّ البعض الكثير بأنني من أسرةٍ برجوازية ويَشْتِمني من دونَ سَنَدْ إلاّ حِقْدَهُ المُوغلِ بالآه]، جَدّي لأبي عاشَ فقيراً يَقتاتُ من عَمَلِهِ البَسيط وقَدْ رَبى أكثر من إحدى عشر شخصاً في بيته من أبنائه إضافة لـشقيقته الأرملة، وأبي تَعِبَ على نفسِهِ كثيراً، تَعَلَم في غُربةٍ مضاعفة بدأتْ منذ الثانوية في "الشويخ"(1) ثم لـ "أمريكا"، وبدأ بعدها موظفاً بسيطاً في شركة نفط الكويت وتدرّج بحُسْنِ عطائِه. لقد كان يَكدحَ منذ السادسة صباحاً ليعود في السابعة مساء، فقط ليوفّرَ لنا دُنيا صغيرة ملوّنة

(1) تم افتتاح أول مدرسة ثانوية في الكويت عام ١٩٥٣ وهي (ثانوية الشويخ (تحتوي على سكن داخلي يوفر كل مستلزمات المعيشة والدراسة للطلبة. المبنى لاحقا تحوّل إلى جامعة الكويت، وهو المكان الذي درستُ أنا به لاحقا خلال ١٩٩٥ حتى ١٩٩٩ .

بالفرح من دون الحاجة لأيّ أحد، اتّفَقَ مع أمي على حُسْن التّدبير وكان كافياً بالنسبة لهما إنجاب ثلاثة أبناء، [رغم أنهما فقدا طفلاً رابعاً حديث الولادة في سنة ١٩٨٩]. عشتُ بين هذا وذاك، حياةً طيبةً وتقليصاً محسوساً في النفقات، تحديداً في فترة النهوض الأولى/ سنوات الجامعة/ بأبسطِ ما يُمكن أن يَصِلَ إليه خَيالكم [الحالي] عشتُ بـترقّبٍ تامٍ وانتباهٍ عال، كنت أتدبّر أموري بـأقلّ من ميزانية تحتاجها فتاة بعمر الـ ١٨ تمضي باتجاه الـ ٢١، قِطعتين من بَنطلون "الجينز" العادي و ٤ قُمصان فضفاضة، نتشاركهم أحياناً كثيرة أخي الأكبر وأنا، وحذاء رياضي [واحد] وحقيبة ظهر جلدية [واحدة] تحمل كلّ متعلّقاتي الشخصية والعلمية لدراسة الإعلام المرئي بثقل التنقّلات على الأقدام بين المباني المتناثرة وازدحام كثيف وتكدّسٍ طلاب يعَطّل تخرّجي/ تخلّصي من هذا الكابوس الذي كنتُ أريده أن يَنتهي بوَرقةٍ يُطلقُ عليها شهادةً جامعيةً في الاتصال والإعلام، مختومةً وتُمكنني من العمل.

على جوعٍ شبهُ مستمرٍ، أقضي ٨ ساعات في المحاضرات ويوم جامعيّ طويل طويل، ألاعبُ الجوعَ بالقهوة المُرّة والماء الكثير وطقسٌ استعار حرارتَهُ من "جَهنم" المتخيّلة في أذهاننا. أرتّب ميزانيتي كي تَظلّ مُتاحة لشراء المراجع المتوالدة من بُطون الكتب ولا تنتهي حفلات الطباعة الرخيصة الثمن ولا الاستعارة من المكتبة الجامعية ولا التدوين اليدويّ [النّقل] الذي أفرز انتفاخاً في إصبع الوسطى لكفي اليُمنى [تفاقم مع احتراف الكتابة والسّرد] ... ولا أعترض ولا أشتكي [ولا أخبر أمي]لأن أملي متسع بالخلاص والقبض على ورقة مدموغة بالاعتماد من "جامعة الكويت، كلية الآداب، قسم الإعلام بتقدير جيد جدا"، وأردد ((طريقنا أنت تدري.. صعب ووعرٌ عسيرٌ، موتٌ

على جانبيه.. لكننا سنسيرُ))؛ أهزوجةٌ مستعارة من قائمة طلاّبية، "الوسط الديمقراطي"[1]، أول تعلّقنا "النُّقابيّ" في سنوات الجامعة، النافذة البدائية لمعاني المصطلحات الواسعة على أمنياتنا المرصوصة في قالب يكادُ يكونُ واحداً هو "التخرّج والعمل". مصطلحات مثل السياسة و الانتخابات والمفاتيح الانتخابية والبرنامج الانتخابيّ و بيانات واجتماعات "حزبية" وانهماك كبير لأجل "الفوز"، كنا جادّين إلى درجة غير عادية، انشغالنا دائم ما بين الدروس وبين الفعل النقابيّ، حقيقة إنني مُنذها [عمر الـ ١٩] لم أكن أحسنُ التعامل مع أولئك المعجونين بـ "حفلات التفاهة" ولم يأخذوا "دنيا الجامعة" على محمل التحقّق، ولم يُقلقهم ما يشغل بال لحظاتنا، بل صفعوا [أغلبهم] انتباهنا العالي بالسخف وشوّهوا آمالنا بمستقبل طعمه حلو، ولم يكتفوا؛ لأنهم كبروا معنا وقبّحوا فعلاً كلّ تلك الأيام البعيدة بسوءٍ لا يغتفر، بل لأنهم هم تحديداً من حاز على مناصب "عالية" في الدولـــــة، لأنهم يحسنون تلميع الأواني المستطرقة وسكب سوائل الزيت عدّاً ونقداً كما يحب أولياء نعمهم، وما فاز إلاّ أصحاب الدم الزئبقيّ، الـ تتشكّل ذواتهم أينما لاحت الفائدة و"من صادها عشّى عياله"[2].

عموماً..

---

(١) هي قائمة طلابية جامعية، تهدف لمبدأ المساواة و لتعزيز الانتماء الوطني و تحقيق المصلحة الطلابية و ترسيخ المبادئ الديمقراطية و العمل على إيجاد جامعة متطورة وبالتالي مجتمع متحضّر ومتنوّر، عمر القائمة الآن ٤٤ عاما.

(٢) مَثَلٌ كويتي يُطلق على الانتهازي الذي يحصل على مال أو منفعة فيستحلّه بغض النظر عن مصدره.

بقيتُ أتعلّم. فهي رحلةٌ طويلةٌ من سنوات العلمِ والتلقي، مباركٌ من يسير فيها وهو متشبّثٌ بعقلهِ ولا يَحيد.

كنتُ كما بدأت منذ الأول الابتدائي، مُعتَدّة بنفسي/ معتمدة عليها في المذاكرة والاختبارات والمراجعات. بل أنني منذ مرحلة مبكرة، وهي الرابع الابتدائي، اكتشفتُ [من دون إرشادٍ من أحد]، ميزة "تلخيصِ" الكتاب في دفترٍ خاصٍ. يُسهّل عليّ التركيز وحيدة في منهجٍ أراه ثقيلاً على سنواتي التي رسَمَتْ لها القَدَريَة [ربما] الدخول باكراً للدراسة، فمواليد "تشرين" في آخر الأجندة المدرسية والزمن يجري بنا و"ماما" [أظنها] تصوّرت أنها قد خدَمتني باستعجال تسجيليّ في المدرسة، هذه الشهور بقيت تؤذي ذكائي الـ يحتاج لمزيدٍ من الوقت لينضج بالاكتمال. لقد عانيت طويلاً في مرحلتي الابتدائية والمتوسطة حيث كنتُ أركضُ [معنوياً] بخطوتين أسرعَ من البقية للّحاق بمتفوّقات الفصل وما الْتأمَ شرخُ اللحاق بالنضج المعرفي إلاّ حين ذاب عام دراسيّ في حريق سنة التسعين وحربها [تعطلّت سنة دراسية كاملة بسبب احتلال الكويت] ويبدو لي بأنني منذ يفاعة سنواتي، يوم غيّمت أيامنا بالمجهول في الـ ١٩٩٠ وأنا أُدرّب ذاتي على الاستعداد الفعلي على الفَقْد والفَقْر والتخلي، بل القبول التام لتقشّفٍ ينتظر شيخوختنا الآتية [بلا أدنى شك]، فميزانية الدولة لن تصمد طويلاً أمام "سرقتها" خفية وعلانية، ولأنّ "السُرّاق" يتوالدون من أرحام الأزمات المتتالية، فلن تكفي خزائن ملوك القصص الأسطورية مهما كان السِحْرُ قوياً!

6

وأنا أشتبكُ والأربعين.

على ماذا أتكئ تحديداً في صياغةِ القادمِ من توقّعات؟

إنّ الحياة التي صوّرتها لنا "نصائح" من سَبقونا عليها، وَهماً متّسعاً جداً على الأمنيات.. والرغبات والمقدّر، وإن كلّ تجاربنا لا يمكن أن تُقاس بمسطرةٍ موحّدة أبدا، بل حتى الإله الذي تَتّجهُ نحوَهُ القلوب/ العقول صُورَتُهُ ليست موحّدة تماماً، لأن كلنا يحملُ "ربّهُ" في مخيّلته ويُنمّي الإيمان بهِ بطريقتِهِ التي يَعتقد بها، ويظنها صحيحة، مع ذلك ليس هناك ما هو صحيح تماماً، أو ما هو خطأ دائماً، كما أنّ الشرّ ليسَ مُطلقاً، أو الخير لا نهائياً مستداماً. إننا نعيش بين كلّ شيء، نمرح بالمنطقة الضّبابية التصنيف بـــــ كَفّتيْن تميلُ كلّ منهما للجهتين باطراد وتوتّر وبتصاعد/ يتبدّل كلما لامَس الروح فرحٌ، أو أذى.

لقد تدرّب العالم على فعل "الانصياع"، وأنا لا يعجبني الانصياع عبر التسليم.. إطلاقا، ففعلُ سجود الملائكة لـ آدم على سبيل الرواية الدينية القديمة، ربما كان قد حَدَثَ فعلاً ولو سرداً أسطورياً، ومن وقتها لم يتوقّف الإنسان عن فعل الانحناء / الطاعة/ التبجيل/ ... في مجمل مفصّلات الحياة البشرية نهائياً.وهذا التّطبيل والقبول "مغمض العينين" وبلا إعادة التفكير [ولو لمرّتين] يمكنه أن يأخذ أي شكل يريده الكائن، حتى ولو كان الانحناء

اللا واعي. لذا، نجد بأن المجتمع وبدائيةٍ محضة [وشرسة أحياناً] يحاول بكل أساليبه القامعة الممكنة محاربة "أولئك" الذين ينتبهون جيداً، وينبشون الأفكار ويعيدون صياغة الأسئلة المفضية للهدم المعنوي للمعابد، أو اعتناق شكل جديد/ ملائمٍ للحياة.. و"لماذا" هو السؤال البديهي.

في الواقع؛ فإن الإرث القديم كما أشرتُ أعلاه، سبباً أكيداً لما التصق بوعي الناس، الأمر الثاني قد يكون "ارتياحهم التام في الجَنّة"، لكن أيّ جَنّةٍ أعني؟

"جَنّة اليقين" [التي هي أبعد ما تكون عن الحقيقة طبعاً]. لذلك، يظلون في محاولات [المجتمع بكل ما فيه من سلطة ظاهرة وخفية] لإرجاع "الخارجين" [عبر الفكرة، أو السؤال وإعادة النظر] عن خَطّ السّرب المنتظم؛ وعبر أسلحة عدة، لعل أبرزها إقصاء فعل القراءة ذاته. ذلك الذي يؤدي بالمحصّلة الأخيرة اليقظة إلى فعلِ "الخروج" عنهم، القراءة التي تحتاج لسنوات من الكشف وبذر الصّحْو ورعايته بعيداً عن التخويف والترهيب لـ يشتد عُوده وينتصب ويستمرّ بالنمو والتفرّع، لأنه لا يُجابه.

نحنُ، في الواقع، أسرى ومساكين "نُغَيَّبُ ونَغيبُ" إيماناً في أفكار "جماعتنا" الأوليّة؛ الأسرة / المدرسة/ المجتمع / الدولة / الإقليم/ العالم والكون.. ما لم ننتبه إلى أن القالب الذي يُعيق حيواتنا باتَ ضرباً من الخَبَل وأن التمَتْرُسْ في "المُريح" من قناعات ورثناها كمُسَلّمات أصيلة ليس إلاّ كَسَلاً وارتياحاً عَقْلياً ومعيشاً لا يُعرقل انسياب "الحياة" العادية، لكنه، في الواقع، ضياع للبوصلة التي من أجلِها "جِئنا" وسنوات تهدر في غير المراد منّا فعله والتحرّك فيه، يريحنا أن نُغطس أنفسنا فيما يَظنّه والِدَيْنا، وما تَنقله أفْواهَهُم

وورثوه عن أجدادنا، وهكذا بلا أي تحسين [ولو لغويّ]، أو تحديث للفكرة قد تفرضه التجارب علينا، تجاربنا الشخصية وليست تجاربهم، فكيف نَقيس الماضي بالآني، بلا تَمحيص ولا انتباه للإشارات إذ تهبط علينا ونبقى نَشتشير ضِمنَ الدائرة الخارجة عنا؟

كيف بدأت بـــ تباشير الخروج؟

ربما يوم سألتُ معلّمة "الدّين" تعليقاً مُستفهماً عن "اللّوح المحفوظ"، الذي شرحت لنا حوله القصص والحكايات والنوايا الربانية من ورائه؟ قلت لها بسنواتي السبع: لكن، بماذا يستفيد الله من معرفته كيف سنكون، وإلى ماذا سننتهي؛ جنة أم نار؟

هاجَتْ معلّمة الدين، ودارت بـ عينيها في الفصل. قالت لي جواباً مرتجفاً بالعصبية: لا تُجادِليني!

سنواتي السَبعْ كانت أقل من أن أستوعِب معنى جوابها، فحَمَلتُ عبارتها الصدمة وعيناها الجاحظتين بالحَنَقْ، راكضة للبيت دَلَقْتُها استفهاماً قلقاً في حُضن أمي التي ضَحكَتْ من قلبها ودحرجَتْ سؤالها لي: لماذا؟ ماذا قلتِ لها أساساً؟

شرحتُ لها ما حَدَث، ولم يقنعني تواطؤ أمي مع ردّ المعلمة، شَرَحَتْ لي معنى "لا تجادليني"، وهَدَأتُ حين أدركت كل شيء، لكن سُؤالي النهاري ظلّ في سَقفِ عقلي يُفرز علامات استفهام مُشعّة.

حين عاد أبي من عملهِ في المساء..

طرحتُ عليهِ تساؤلي المشروع، قال مُبتسماً: صحيح بأن الله يُقدّر لنا ويُخطّط لنا، لكننا أيضا نختار بأي الطرق نسير، للخير أم للشر، فلا تقلقي، الإنسان الطيب لابد يختار الخير، وأنتِ بنتٌ طيبة!

نحن الآن في [٢٠١٨]، وقد تغيرت مفاهيم أبي أعلاه لمزيدٍ من النور [وهذا صحوٌ يبهجني بلاشك].

كما أعترفُ بأنني خضتُ قبلها نزاعاً طويلاً "صامتا" غالباً و" لفظياً" أحياناً، بيني وبينه حينما قرّرت "الخروج" والنظر من بعيد جداً فيما يُطلق عليه البشر "مُسلّمات"، حينها كان هو ما يزال "محافظاً" متّزناً/ مستقراً كما كل الآباء، لقد تَغيّر أبي الآن وأخرَجتْهُ التجارب من الدائرة المغلقة المعتادة، نحو بصيرة أعلى.

كنتُ فتاة صغيرة وهادئة، لي سجادة صلاة حمراء داكنة، مرسوم عليها بدائيةٍ مكرّرة، صورتين واحدة للحرم المكي والأخرى للمسجد النبويّ، مفصولتين بخطٍّ/ خيطٍ نسيجٍ متعرّج كثيراً، ولي كذلك وشاح صلاة من قطعتين، تنّورة مَزْمومَة على الوسط بحزامٍ يؤلمني ضيقَهُ وغطاءٌ للرأس مُفَصّلٌ كمثلثٍ يسمحُ لوجهي فقط بالظهور، بينَما ينسدلُ بقيّته وصولاً لنهايةِ جذعي، أبيض اللون، بزهور ناعمة خضراء، وله رائحة كانت تثير في القلب عصرة شجن عجيبة لم أفهم سببها.

كنتُ كلما عَزَمتُ على نفضِ الثّوب [مُجبرة نحو البدء بالطقس] والاستعداد [بالنيّة القلبية التي لم تكن صادقة في أغلب الأحيان لأنَ دافعها الخوف الكثيف] بمزيجٍ من الرهبة والخشية والترقّب وطاعة المعلمة وانصياعي لحصص "المسجد" التي كانت تصطحبنا إليه خارج فصولنا المدرسية ونحن

مُرتديات هذا الزي الديني، نمشي في صفَين متوازيين مثل بَتَلات زهر باتجاه المسجد، أو باتجاه "بيت الله" كما كانت تُشير مُعلمتنا إليه، بينما خيالي يفرز أسئلته في الحدود الناشئة حديثاً والمحتشدة بكلّ تلك المثيرات المربكة بـ جِدّتِها.

"في أي الغرف من بيته يسكن الله"؟

"هل هو من سيفتح لنا الباب، أم أن هناك من يقوم بخدمته؟"

"هل هناك جرسٌ على باب بيت الله كما في بيوتنا، أم سنكتفي بقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ليُفتح لنا الباب [مُعجزة وسِحرا]؟ أوَلَيسَ الله بقادرٍ على كلّ شيء إذا أراد لشيء أن يكون فـــ ... يَكون؟"

حينَ وصلنا إلى بابِ المسجد الصغير في المدرسة، تَعَمّدتُ ألاّ أكون في مُقدّمة الطابور كي أعرفَ كيف سُيفتح لنا باب "بيت الله"، لكن مَوضوع "خَلعُ الأحذيةِ" كان قد سَرق مني اللحظة المُنتظرة! بلْ طَرحَ أمامي على بساط الدهشة سؤالاً مَلغوماً بألف استفهام؛ لماذا علينا أن ننزع أحذيتنا؟؟

جوابها كان واحداً: لأننا سندخل بيت الله.

تدور أسئلتي على نفسها، ولا إجابة تشبع نهمي للاستيعاب.

رغم ذلك، كنت أندمج جيداً [كمثل كل الأطفال] في قصص الأنبياء ولا واقعية ما حَدَث لهم عبر الحكايات، لكني كنت أطمحُ بأن تُفاجِئنا المعلمة بحكاية جديدة بَطَلتُها فتاة هذه المرّة!"نَبيّة" على غرار الأنبياء الذكور في سردياتها، فتاة مثلنا / من جنسنا، لها قصة من قصص الأنبياء المثيرة.

لم تتحقّق أمنيتي.

سألتُ المعلمة ذات نهار شَقّتْ فيه الشمسُ خيطاً وهمياً من نورٍ في وسط الفصل، ممتلئاً بمخلوقات طائرة بالكاد مرئية تشبه العوالق، سألتُها: "أبله ... الأنبياء كُلَهُم رجال"؟

رمقتني بنظرات متتالية/ رمشات متسارعة لاستيعاب سُؤالي وجُنونه وبراءته وفداحته في آن.

حامَ السّؤال في فضاء عقلي جيداً، وأسعَدَني من جديد إعادة ترتيبه في رأسي، لكن خيطُ الشمس خَبا فجأة، استحال ظلاما، تصايحَت التلميذات في الفصل:

"أبله، صاز غِيمْ"!

حَوْقَلَتْ وبَسْمَلَتْ معلّمتنا، وصاحَتْ بنا بصوت عال:

"رَدِّدْنَ معي دُعاء الغيوم"، وبدأت تتلو الدعاء بصوتٍ يُشبه التجويد، صوت يعبّر بصُعوبة من تجاويف أنفها.

[اللّهُم يا جامعَ الغيم في السماء، اجمَعْ بيني وبين فرحي وسعادتي وتوفيقي وكلَّ أمرٍ تعلمُ أنه خيرٌ لي]

وأكمَلَتْ بعد أن مَسَحَتْ وجهها بِبَرَكَةٍ لا مَرئيّة:

"أسأل الله لكنّ التوفيق والحِفظَ والهداية يا بناتي".

لكن "غَزَوات" النّبي مُحمد بَقيتْ تستوقفُ النَّجابة في طفولتي التي تحب الحكايات، فالخسارات والانتصارات والأعذار المَحبوكة، تلكَ التي تَجدُها المعلمة بـبراعةٍ واقتناعٍ وافتتان، لتتوائم مع كل قصة دينية لها أبعاد متوازنة بالقبول والانصياع، كلُ أسئلتي كانت مُعلّقة حين تُطرَح، في البيت، في المدرسة وبين صديقاتي، كلها مقيّدة بزعزعةٍ تعطفر من العيون ومُلحَقَةٍ بـــ "استغفر الله".

قاطَعْتُ الصلاة في سن الحاديةَ عشرة.

لم ينتبه أحدٌ في البيت لذلك، كانت السجادة الحمراء الداكنة ملفوفة حول ثوب الصلاة الذي استُبْدِلَ لقطعة واحدة طويلة ومنسدلة، قماش أخضر بلا تداخلات لونية أخرى، متروكة في زاوية ما [ليست مهملة تماماً] في غرفتي الوردية/البيضاء بشباكها العريض المُطل على سعف النخيل الكثيف. ويومَ أُحْتِلَّ وطني، كنت في الـ ١٢ من عمري؛ صليتُ لمرةٍ واحدةٍ [هي الأخيرة] صلاة حقيقية، صامتة وكلها دمعٌ ساخن، حوار حانِق/صَريح جداً مع "الله"، يومها قلتُ له كل ما لديّ من دهشة وتساؤلات، صرنا أصدقاء بعدها وانفصل الإيمان تماماً عن طقس الصلاة التعبُّدي.

من وقتها قاطعتها تماماً لأنني ما كنتُ أحتاجها، في وقت كان الجميع [في الاحتلال] يُجزِلُ في الدّعاء ويُضاعف الفروض بالسُّنَنْ، مُستغفراً عن تَفْويتِ أيّاً منها، فيما بَقِيَتْ سجّادتي في دُولاب ملابسي بداخل صندوقٍ لا يُفتح.

في المرحلةِ الثانوية، كنت طالبة متفوقة في تخصصي [إنكليزي/فرنسي] والمواد المتبقية كلها أحوزُ بها على درجات سُلّم التفوق، مع ذلك كنتُ الطالبة المُسْتفزّة لمعلماتِ الدّين [رغم تفوّقي في المادة] فقط لأنني كنت في الفصل الوحيدة دائماً من دون حِجاب يُغطي شعري. لم أنساق في هَوْجة "التغطية" التي تفاقمت بعد سنوات التسعينيات، لم أنجرف نحو ارتداء حجاب؛ لأنّ قصص الحرق في جهنم لم ترهبني، ولم تكن مؤثّرة، لكنني كنتُ وقتها أحفظ آيات القرآن عن آخرها، أُحسن تشكيلها الصوتي، غير أن سجادة الصلاة ما تزال في صندوقها بلا دَوْر.

7

في العام [١٩٩٥] يوم أنهيت المرحلة الثانوية، انتقلنا لبيت جديد، أتذكر جيداً بأنني "تصدَقتُ" بسجادة الصلاة ضمن ما تبرعت به، لم أترك "الطقس الديني" رغبة بالانفلات والخروج من "التيار" [كما يفعل الغالبية]، لكني كنتُ قد بدأت بالبحث عن شيء جديد قابلٍ للفهم وفي سياق الأخلاق، شيء خارج دائرة التلقين "الأدائي" المتوارث بلا استدراك.

في سنّ ما بعد الجامعة، دارَ حوارٌ عميق بيني وبين صديق بالصوت والصورة عبر "الإنترنت"، طرح هو سؤالاً جوهرياً ومباشراً بهذه الصيغة: "من يمكنه أن يُؤمن ويُحب ويَحترم شخصاً مليئاً بالمآخذ [التي وجهها إليه الرب نصاً] والتي لا يقبلها منطق سليم، بحيث يُطلق عليه مختاراً ومصطفى؟"

يومها، شعرتُ بأن السماء قد سقطت على رأسي، غبتُ في الحمّى لأربعة أيام. بلا مرضٍ واضحٍ، عدا فكرة جُرثومية رحيمة تكاثرت في عقلي مثل مَصل الشفاء شبه التام حينَ يَقتات على جسدنا لأيام ثقيلة لنرتاح بعدها، ونُحَصَّنْ من الآفات والعِلَلْ.

منذ ذلك السؤال/ الحمّى نَفَضْتُ بطانة عقلي، وبدأتُ بشكلٍ جادٍ بتنظيم جدول النبش في الكتب، تلك التي تلاها حفل طويل من تشذيبِ فروع النَعشات وكَنسٍ مُنتظمٍ ومَرحَليّ [لم ينتهِ حتى سنوات لاحقة]، لقد بدأتُ

التّحديات بـــ كتابٍ ضخم أضاء النفق المظلم جيداً/ قَلَبَ كياني، وكان أول الشرارات/الأمصال القاسية التي ولَّدت النور بداخلي، هو الكتاب المُرتَكَز[1]، وتلاه تَنويعات من كلِّ ما حاربته العمائم ورفضته الذقون ومريديها من دراسات أباحت الأسئلة وما زالت تعنى بتَمسيد قلوب الباحثين عن الحقيقة، أو ما يجاورها.

كان صِراعاً مَريراً في بَيتنا.

لكنني [في السّر قدرَ الإمكان] كنتُ أمارسُ "مذاكرتي الخاصة" بِفَكِّ الاشتباك الروحاني العَويص الذي عَقَّدته مناهج التعليم عبر تَغذيتها للغول وتَنميتَهِ وتَشميمنا على مدى أجيال [وحتى الآن] صرنا نُصَدِّرُ غِيلانا بكامل عُنفها/ كرَاهَتِها للخارج لإشعالِ النيران في قلوبِ الناس وأجسادهم، ولم يَسْلَمْ حتى الداخل [وطننا] من قُبحِهِمْ.

انتهيتُ خلالَ سَنتين من تِبْيانِ مُرتكزات وتَفاصيل الدّين وإشغالاته ومروياته المُعْتَمَدَة [شَرعاً ومُجتمعاً]، تلك التي تُتاح من مَصادِرها، وتَطهرت بخفّة مما كان مُسَلَّماً به، وزادَتْ قَناعتي بأنني كنتُ على طريق الشكّ المبروك.

انتقلت في السنوات اللاحقة لطريقٍ مختلف تماماً، طريق ينظرُ للحياة بسموٍّ ويُخاطب الذاكرة الحسيّة البعيدة، يتخلى عن الأديان بوصفها المُقَوْلَب، لأنه [ببساطة] لا يحتاجها، فهذا المَبْحث يرى بأن الأديان [كلها] لا تليق إلاّ ببدائية الأرواح وأصحاب الفطرة الأولى [فطرة الإنسان الشريرة التي لا تعبأ إلاّ

(١) كتاب ((الشخصية المحمدية)) هو كتاب للشاعر العراقي معروف الرصافي كتبه عام ١٩٣٣ ونشره دار منشورات الجمل عام ٢٠٠٢ وأحدث ضجة واسعة في العالم الإسلامي فور نشره وتعرّض للمنع في عدد من الدول العربية.

بنفسها]، فتحتُ في حينها عبر المزيد من الكتب، كهفاً كان مغلقاً على الراحة والعدالة الإلهية الأكثر تَواؤُماً وإقناعاً [على الأقل لعدد غير قليل من البشر حول العام ولي أنا شخصياً]، فبعد قراءات متعمّقة وطويلة وبأكثر من لغة؛ انتميت لجماعة تشبهني في إبقاء "ذبابة السؤال" على قيد الطنين.

ولم تتوقف طاحونة الاستفهامات من الدوران بيننا.

كنت ما أزال في تلك المرحلة، حينما في نهار إنكليزي أنتظر حافلة النقل الحمراء، وعلى جدار خلف كرسي الانتظار ترك أحدهم رسماً مطبوعاً لـــــ ٤ رموز دينية متنوعة [ومختلفة/ متصارعة في الواقع] كنتُ أنظر نحو الرسم طويلاً، بَخلَقَتْ السيدة العجوز الـ ترتدي الأخضر الربيعيّ، ثم ضَحِكَتْ من أنفِها، تلاقَتْ أعْيُننا، فقالت لي : "قِصَصُ الخيال؛ تليقُ بالأطفال فقط".

حافظتُ على ابتسامتي الواسعة ذاك النهار، مُنتشيةً كنتُ في خُلاصَتِها الحياتيّة وعَيْنيها الواثقتين بالمعنى وما يَحمِلْ.

كنت دائما مُريدة خَفيّة/ مخفيّة لـ هكذا بشر/ فكر/ منطق، وكبرتُ [عقلياً إضافة للسنوات] لأنني صادقتُ القراءة، تَحَيَّنتُ كلّ الفرص لنَيْلِ تلك الكتب التي كُفِّرَ أصحابها مِراراً، وبحثتُ جيداً عمّا فكَروا به وأثبتوه خلال حيواتهم، وخضتُ تجاربي الشخصية مُعتمدة على "الله" الذي أعرفه أنا، وليس ذاك الذي عَرَضَتْهُ الأديان بتصوّراتها [الموضوعة] عنه، كان دوماً إلهاً مختلفاً/عظيماً، وهو وحده من ينير لي الطريق عبر الكثير من الحوادث والإشارات كاختبارات محبة يغمرني بها، ولست أهتم بسواه، فالأنبياء، مثلا؛ الرسل والصالحين، ليسوا أكثر من بشرٍ مَرّوا بالدنيا في كلّ زمن لينشروا الفعل الطيّب، لعلّ ما يقدمونه من "خير" أن ينير درب أحدهم/أحدنا ممن ظنّ خطأً بأن "الله" غاضب عليه [

يُناكفه] وقد جزع صبره من سوء أحواله، فأوشك على الضياع .

"الله" [كما أفهمه وأومن به] لا يحرمنا من شيء، بل نحنُ من نَفعل حين يغيب الوعي عن فكرنا، حين نَظنّ بأنَّ الدنيا فانية ولا يَهمّ إلاّ الطقوس الدينية كي تُؤدّى، نحن نستجلبُ المرضَ لأجسادنا ونستضيفه فيها عبر التفكير "الشرير"، هذا هو القتل البطيء لأنفسنا، نحن نخافُ البلاء في عقولنا [في الواقع ننتظره]، بينما نستدعيه نحونا بأقصى سرعاته وأبشع أوقات حُضوره.

متى دَقَّ السؤال الجريء رأسي؟

في درس الابتدائية، حينما كانت "أبلة نجاة" معلّمة مادة"الدين"، تَدخلُ الفصل بعلبة طباشير ملوّنة كاملة التدرجات [كانت نادرة هذه العلبة] وتُعطي أمرَها لأول تلميذة تجلس على مقربة من باب الفصل، بإشارة من يدها، أنْ اقرئي!

نفتح جميعا "دفتر التجويد الأخضر" المنقوش بالذهب "جُزء عَمَّ" نقشاً إسلامياً على هيئة مُعَيّنْ، وتبدأ التلميذات بالقراءة، بينما تبدأ "أبلة نجاة" بتحويل المساحة السوداء من السبورة إلى بستان من ألوان قزح، اختصاراً للأسطورة البعيدة عبر التعليم بالرسم.كنتُ أنتبهُ إليها وهي تتحركُ برشاقةٍ من أعلى السَبّورة نحو جانبيها، كنت أراها رشيقةً لأنها كانت ترتدي جُلباباً ملوّناً زاهياً ومُفَصّلا بأناقةٍ لا بأسَ بها، ففي أوائل الثمانينيات لم تَهجُم [بعد] "العباءة السوداء" علينا بظلامها وانعدام أناقتها، كانت مدرِّسات "الدّين" [آنذاك] تُفصِّلن مَلابسهن المحتشمة بألوان خفيفة وزاهية وأغطية للشعر بيضاء اللون توحي بالنظافة والطهر، [هكذا كنت أراهُنّ].

وحين يصل الدور في قراءة وتجويد "جُزء عمّ" لـ تلميذة تجلسُ في منتصف الفصل، ترفعُ "أبلة نجاة" يدها قائلة: "صَدَقَ اللهُ العظيم"، وتُباشِرُ شرح ما رسَمَتْهُ على السبّورة. كان المنهج آنذاك يَحْفَلُ بـ "الغزوات" الإسلامية، بترتيبِ حُدوثها، كما ذَكَرتها كُتب الدّين، كُنا بشغفِ الصّغيرات نَودُّ أن نعرف من "فازَ" في تلك الحروب؟

المسلمون؟ [نحن ضمناً] أم "المُشركين" [الأشرار] تصريحاً؟

تحكي "أبلة نجاة" عن التفاصيل، وتُسهب في "تلميع" [جانِبنا المُؤمن بالنصر والفوز العظيم] لـ يَستوقِفني "خسارة/ هزيمة" فريقنا المُسلم خلال (غزوة أُحُد)!

رفعتُ إصبعي اللّعين، سألتها: لكنْ كيفَ لمْ يطيعوا كلام الرسول؟؟

نظرت نحوي وهي تَحتَوي حَنقي بابتسامةِ من يَعرفُ جوابَه، هَزَتْ رأسَها تأسّفاً: لأنهم انشغلوا بالغنائم والسّبايا، للأسف.

أُصِرُّ بطفولتي/ بيدائيّتي: لكن الرسول نبّههم، لمَ لمْ يسمعوا كلامه!

وكنتُ أرى [بطفولتي التي تشرّبت الفكرة الإيمانية كما قدّموها لنا] أحد أمرين:أن الله قد عاقَبهُم لعدم سَماعِهم أوامر النبّي مُحمد، أو أنَّ النصر ليس دائماً حليف "لنا" [نحن المسلمون]، أحباب الله ولا أحد سِوَانا! كنت أشكّ فعلاً وكثيراً في كل النتوءات التي تشوّه انسياب سَرد مَروِيّاتها، كنت أراقب عيونَ المعلمة حينما يُطرح عليها سؤالٌ صادم. كم كانت تبدو مرتبكة بـ معرفتها الناقصة وتَصِلُني حيرتها، يحْمَرّ وجهها الأسمر من الصدغين، وتَزمُّ شفتيها بحركة لا إرادية توحي بالغضب وتَغيب عيناها في المساحة الخلفية من الفصل..

تتجاوزنا بانتباهها وتظل نظرتها بعيدة.

أما أنا، فأظل حتى وقت قريب لا أحب مفردتين هما: "الغنائم والسبايا"، لأنهما شيئان تافهان و...بمعانٍ حقيرة [خصوصا حين شرحتهما المعلمة بـ دقة خالصة، إذْ لا حياءَ في الدين]!

ولأنني متفوّقة في مدرستي، المدرسة الابتدائية/المتوسطة [المشتركة]، كان يُسمح لي بأن أطرح أسئلتي التي تُفضي لمزيد من انْشِداه المعلمات وتَوتّرِهِنَ [وما كنت أعني ذلك حقاً] فالمُدَرِّسة مقدّرة جداً [في أيامنا تلك]، بل توازي مكانة الأم بشكل كبير.حسناً هل تِبْتُ عن الاستفهامات؟

في يوم ما غابَتْ معلّمة الدين، كانت في غيابٍ لأسبوعين لأنها وضعَتْ طفلاً، وخلالها استلمت فصلنا معلمة دين أخرى لا نعرفها، لم تكنْ تعطينا الدروس من منهجنا المعتمَد، لكنها أبقت الحصص الدراسية كحلقة أسئلة نطرحنا عليها بينما مطمئنة هي إلى أن المُقلِقات بسيطة حتماً لـــ تلميذات بعمر الـــ ٩ سنوات، بثقةٍ وابتسامةٍ أظهرت أسنانها أذَنَتْ لنا بالبدء، كان سؤالي حاضراً جداً، مضيئاً فوق رأسي مثل جِنّي صغير، سألتها:

"أبله؟ لماذا ليس هناك "آلهة أو رَبّة" أنثى؟؟

اتسعت عينيها قائلة: الله تعالي بلا جنس محدّد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد!

أردفتُ أنا: لكن الجميع يناديه بـ "هو"؟!

8

بقيَ الله / الإله/ ربنا/ هُو/ سبحانه... الكيان الغامض في عليانه. منذ تلك الأيام.

قوّة لا أعرفها تماماً، لكني أُبَجّلها لأسبابٍ تغيّرتْ كثيراً على مرّ السنوات واليقين والتجارب، وبالقراءات التي مَكّنَتْني من إعادةِ تأويل المعاني الدينية متنوّعة المصادر. كان مريحاً أن أعرف/أؤمن بوجوده، لأنه يَرعى كلّ فرد ومخلوق، حتى أنني في لحظاتي المُبهجة التي تَكتَسي بالامتنان له. أشعرُ [فعلياً] بأنني وحيدة معه، وبقية العالم مجرّد خلفية للأحداث الدائرة في تلك اللحظة، خلفية تكمل إحساس القشعريرة المحتفلةِ بحضوري ضِمْنَ مَجْدِهِ العالي. بل حتى خلال مراحلِ شُكوكي اليَقينيّة التي بدأتْ منذ طفولتي وسَطَعَتْ بحثاً ورغبةً في حَكِّ الصَّدَأ النامي على عَلامات استفهامي البعيدة بِمَدِّ العُنقِ المتطفّل دائماً [والذي يُوتّرُ المحيطين بي] أثق بأنَّ الله [مجرّداً من كلّ نوايا البشر وأطماعهم] يَقِفُ إلى جانبي ويرعاني، لأنه من رزقني بأفكارٍ تقدح في عقلي [الذي هو من سوّاه وعدّله] لمزيدٍ من التأمل والتفكر بملكوته؟!

لقد عَقدتُ علاقات سرّية/علنيّة مع الكتبِ الـ تَزْدريها اللّحى والعَمائم [على اختلافها] وتُجرّمها وتُلصقُ فيها الاتهامات، وعكفتُ على التّماهي مع أفكارِ من قاموا مِنْ موتهم العقلي من قَبْلِنا وأناروا الدّروب. كنتُ أريد [في الواقع] أن أجد معنى/معانٍ لمستقبلي النهائي البعيد، المستقبل الوهمي الذي لقّنونا إياه من دون مُقنَعات منطقية.

لقد كنتُ أنالُ ما يقارب المُشبع من معرفة وإجابات [ولو مبتورة النهايات/ الخلاصات] لأسئلتي المُدبّة باللّعنات على ما استغفلوا سنواتنا المُهدرة بالكذبات وتلوينها بأجمل ما يَظنّون، لكني أُعزّي روحي بعبارة تشدّ قلبي في كلّ مرة:

[لقد وصلتُ يا الله.. وصلتُ تقريباً إليك، فساعدني لأعرف المزيد]

وللأمانة، لم ينجح أحد [ولا أحد] في قطعِ طريقي النورانيّ الذي ابتدأ مبكراً بالأسئلة.

9

هل كان هذا أول النبش؟

كانت في بيتنا الأول، في منطقة الأحمدي "النفطية" لعنة حميدة، كانت هناك قطعة أثاث كبيرة جداً، ومرتفعة ومغلقة على كعوب الكتب السميكة المذهَّبة بالإنكليزية، وكطفلةٍ حاوَلَتْ طويلاً تَفكيك "رسم الأحرف العجيبة" قبل التعلّم، أثارتني تلك القطعة المبهمة، علمتُ لاحقاً بأنها المكتبة.

كان بيتنا الخشبي الصغير ذو الطراز الإنكليزي الريفي يشبه كثيراً ما رسمناه حين تجرّأنا على الألوان والورق وخطَّطنا بيتنا بمدخنة وقَرْميد أحمر قان. نعم، سكنتُ أوان طفولتي في بيت خشبيّ أليفٍ وهادئٍ بنا، حين كانت اكتشافاتي الطفولية تدور في تأملات بسيطة كلها مُبهجات، استعراضات "داني وميري" الراقصة، مغامرات "توم أند جيري"، حلقات "افتح يا سمسم" وأغنيات الروضة التي كانت تعزفها "أبلة زينب" على البيانو الأسود الكبير وأغنية "حُبّ الوطن فَرْض عليّه أفديه بروحي وغنيّه" وحبّي الغريب لأبلة "سَكينة" وتعفُّر كَفّيَ بالطين الملوّن حين أصنع منه دوائر أقطعها كشرائح الخيار، أو أهِلّةٍ صغيرةٍ ألصقها على أناملي كأظافر ملوّنة مستعارة، وأصوات "هدى المهتدي وفيحاء السعيد" عبر الإذاعة في سيارة ماما ونحن باتجاه الروضة، ورموشي لا تُحسن حَجْبَ الشمس عَني، تتسع دائرة انتباهي لتشمل مكاناً لم أعرف معناه، "لبنان".

"ماما؟ شنو لبنان"؟

"بلد بعيدة شوي، وفيها حرب، الله يعينهم".

صوت "هدى المُهتدي" وموسيقى "صباح الخير يا كويت" وسيارة ماما "البويك" السوداء، يتداخل صوت "فيحاء السعيد" والتعاطف نبرة مشتركة بين السيدتين، تشاركهما ماما بـ "تّشِقْ" من فَمِها تَأسُفاً على "لُبنان" التي أخبرتني عنها. ولبنان، يظل بلداً مجهولاً [بالنسبة لطفولتي] ويستحق التعاطف.

التعاطف يشبه الحزن؟ يشبه الضيق، ما معنى حرب؟ ما علاقة أنواع الفاكهة والخضار التي تحصيها المذيعة وتأسّفها على لبنان؟! تشرح لي ماما: "نستورد الفاكهة والخيرات من لبنان، مع أنه عندهم حرب، المذيعة تستغرب"

توقفت قليلاً أسألها: "ما معنى حَربْ؟

تتندّر ماما: "ناس تتصارع مع بعضها باستخدام الأسلحة وتتقاتل"

بقي في رأسي سؤال متسلسل؛ "ما معنى أسلحة"؟ كنا قد وصلنا لباب مدرستي الصغيرة، بـــقبلة على خدي أمي تودّعني .

دخلتُ للروضة حاملة استفهاماتي الكبيرة عليّ!

لكنني بدأت النبش القرائيّ منذ مراهقتي الأولى، كنت ألوذ بمكتبة أبي في بيتنا الثاني [منطقة هدية]، أهرب إليها حين تتوه مني بوصلة السؤال الذي لا تشبعني حوله إجابات أمي، أو صوت معلّمتي الواثق بـ اللايقين!

وحتى في بيتنا الثالث [منطقة السرّة] ظلّت المكتبة والكتب مهربي الهادئ الذي يفتح عيون دهشاتي مع كلّ فكرة جديدة. وخلال الجامعة، في مكتبة كلية الآداب في الشويخ، كانت رائحة الكتب تُغريني للابتعاد قليلاً عن عناوين الدراسة للتسلّلِ منها لأي شيء مثير، ثم بعد لَطْمة اكتشاف تتعلق بمفاهيم أعلى من الدين وأقرب للإنسان والكينونة البشرية والماوراء، تلك اللُّطْمة أرقدتني في الحمّى [أخبرتكم عنها] نفضتُ روحي جيداً واقتنيتُ كُتباً من مفترق جديد يَطرقُ ما في المعرفة من أبواب لغرفٍ خَلفية ساكنة بالارتياح، نفضتُ المُسلّمات كلها بلا أسفٍ، وهذا استوجب مني تركيزاً أعلى وسرّية آنية في الكشف، لأننا حين ننفضُ "بطانةَ" قناعاتنا لتحَوُّلٍ أفضل، نتصارعُ في الواقع مع الموروث وعيون آبائنا ا لـ تُراقبنا خِفية، وربما تُسلبُ حُرّياتنا وقتياً بذريعة إعادتنا للصواب، صَوابَهُم الذي لم يرَ الضوء!

بقيت كتبي الخاصة مهربي النبيل، فهل يبدو مُقنعاً لكم بأنني خلال حرب تحرير العراق في [٢٠٠٣]، كنت أعيد قراءة ديواناً للشعر في سرداب/ مخبأ بيتنا كي لا أنتبه لأصوات صواريخ "صدام" وأصوات الصافرات المؤذية للروح؟

يقول المعلّم والفيلسوف جدّو كريشنامورتي:

الحرب؟ هي الإسقاط الهائل والدمويّ لحياتنا اليومية! هي مجرّد تعبير خارجي عن حالتنا الداخلية وتضخيم لفعلنا اليوميّ، أنها أكثر هولاً وأكثر دموية وأشد تدميراً، أنت وأنا المسئولان عن الحرب، فما الذي نستطيع فعله لإيقافها؟

علينا التوقف عن الجشع الداخلي ونشر الحكمة ليهدأ الإنسان.

10

حينها كنتُ في نهايات العشرينيات [عشريتي الثانية]، تصوّروا كل تلك التحولات والاكتشافات، وإلى أي السُبُلْ يمكن أن تفضي بي ككاتبة؟

لذا، كان الإمساك بطريق البحث عن المختبئ بالنسبة لي كمن يتشبّث بفكرة ممتعة تقوده نحو الغناء بصوت عال نحو بداية الصعود ونهاية الخشية، أغنيات الطفولة لماجدة الرومي "عندي سمكة ذهبية"..

وكانت دوماً [عندي فكرة جَهنّمية]!

أنا أغني منذ كنت أتلمّس الألحان، والنغم.

والمعرفة [أيضاً] نغمٌ راقٍ، نغم كسُلّم نتدرّج عبرهُ عُلوّاً، القراءة فعل تدرّج كذلك، صعود صعود صعود.. وانتشاء تّام، التّماهي مع صَفْو الرّأس، وكنس المترسّب، يشبه تماماً تَجليات الاوركسترا العالمية في عزفها.

كنتُ في الأول مُتوسط [١٩٨٨] حينما أخبرتُ أبي عن لحنِ "كسّارة البندق"(١)، اللحن كان يذاع مترافقاً كخلفية أنيقة في النشرات الرسمية لأخبار تلفزيون الكويت، ضغطت بإصبعي على زر رفع الصوت، التفتُّ ناحية أبي: هذه مقطوعة اسمها "كسّارة البندق" نعزفها في المدرسة ونتدرّب عليها، ابتسم

(١) كسّارة البندق، و هي إحدى روائع المؤلف الموسيقي الروسي» تشايكوفسكي»، التي بدأ في تأليفها عام ١٨٩١ وأنهاها في عام ١٨٩٢م، وهي عبارة عن باليه من فصلين اثنين.

لي موافقاً: صحيح وهي بالإنكليزية Nut Cracker، رددّت اللفظ بالإنكليزية مُنتشية بالتعرّف الجديد، وابْتَسَمْنا.

بعد الغداء، سألني أبي إن كنتُ أريدُ مرافقته لـمشوار صغير [كانت تسعدني رفقته دائماً]، حين مَررنا على مُبنغاه وانتهينا، مَشينا قليلاً إلى حيث لا أُميّز، أشارَ إليّ أن أدخُل لمحلٍ «تسجيلات»، وحين دخلنا؛ سأل أبي البائع إذا ما تتوفر لديه أشرطة موسيقى عالمية؟ أوْمَأ البائع بنعم، وطلَب أبي كل مَعزوفات «تشايكوفيسكي»!

بكيسٍ ممتلئٍ باللّذائذ السّمعية غادَرنا نحو البيت وبامتنانٍ لا يُحد تعرّفت على مُبدعٍ رائعة «كسّارة البندق» من زوايا مختلفة، واليوم أُكرر امتناني لأبي الذي التقطَ شَغَفي بالمُختلف، اهتمامه الواعي ذاك، عَزّزَ ذائقتي حتى اللحظة بالمختارات.

كان «أبي» يعلّمني عبر حنانه الذي يَظهَر بأفعالِهِ النّابهةِ، يُعلّمني من دون أن يُمارس إرشاداً مُباشراً، وأظن بأنها نوع التربية المناسب والتي تُمكنّنا كـ مُكتشفين جُدد للحياة من التعرّف الأوليّ لكلّ شيء «حديث ومدهش» نسبياً.

لقد كانت الحياةُ أكثر بهجة، وافرةُ الاكتشافات، فزراعة حَبّات الفول في أواني القطن المشرّب بالماء، بينما نرقب نمو البراعم الخضراء، كانت أكبر دهشاتنا مثلاً، ففي بيتنا الهادئ الخشبيّ الأليف [في الأحمدي]، لم نكن سوى أمٍ وأبٍ وأخٍ أكبر.

كان عالمي الصغير كما تختزنه ذاكرتي أصفر بلون الغبار، بلون الغبش، بلون صورنا الفوتوغرافية نحن مواليد سبعينيات هذه الدنيا، كنتُ، وللحق، يُلازمني شعور دائم بأن الدنيا مُتسعة جداً عليّ، وبأنني بحجم رأس الإبرة

[مرتبطة حتى السّخف بوالدتي] وأخاف جداً من كلّ شيء تقريباً إلاّ من السؤال ومن قول الحقيقة.

هل مارستُ أول حركة «تمرّد» وأنا في الصف الثالث الابتدائي؟

كنتُ في نهار مدرسيّ في العام [١٩٨٥] عندما تَناهى إلى طُفولتنا المشاغبة بأن مُعلمة اللغة العربية قد تَغيّبَتْ في ذلك اليوم. وهذا موعد حصّتها على الجدول. وكان طبيعياً أن تَحِلّ أيّة مُشرفة مكانها لحصّة «الاحتياط»، كما كنا نسميها، وتنتهي الـ ٤٥ دقيقة فيما نشاء من لعب. أو كلام بناتٍ لا يُنقطع إلاّ بصرخة مفاجئة تُبدد «أزيز النحل»، كما كانت تُطلق عليه مشرفات «حصص الاحتياط»، لكن ما حدث يومها بأن مُعلمة الرياضيات [المادة العُقْدة] ستستأثر بهذه الحصة الكنز لاستباق المنهج المتعطّل دائماً. كنت حانقة جداً. فمن غير المعقول [على الأقل بالنسبة لي] أن ندرسَ «الرياضيات» مرّتين في ذلك النهار. فـماذا فعلت؟ لقد جرّبت التمرّد لأول مرّة عبر التزامي بجلوسي في مكاني من دون إخراج كتاب مادة «الرياضيات»، كنوعٍ من الاحتجاج الصامت. كنت الوحيدة التي فعلت ذلك. مَرّت معلمتي متسائلةً بصوتٍ عالٍ [بعد موقفي الرافض السلمي هذا]: من مِنْكُنّ لا تريد أن تكون حصة الاحتياط هذه للرياضيات؟

كنتُ جادةً جداً وحقيقية حين رفعتُ إصبعي الصغير اللّعين عالياً جداً.

ولاحظتُ بأن الصّمت والدهشة قد استبدّتا بالمحيط، وحين التفتُ إلى الوراء/ لزميلاتي اللاتي وجدتهن مأخوذات بجنون تصرفي/ عيونهن تشهق بالخوف، حينها قالت لي المعلمة، كلهن اخترن الدراسة إلاّ أنتِ؟

قلتُ لها: هذه ليست حصتك الأساسية ومن حقّنا أن نسأل عن رأينا فيما نريد. هذه حصة « احنباط » كما ترين. وأنا لا أريد أن أدرس الرياضيات لمرّتين في يوم واحد.

كان غريباً [وقتها] أن تصمُتُ المعلمة ولا تردّ عليّ صياحاً، أو تعنيفاً، او حتى ضربا. لكنها احترمتْ رغبتي في البقاء من دون دراسة في تلك الحصة.

وببساطة تامة تابعت شرحها للزميلات ولم تشركني ولم يستفزّها أنني أخرجت دفتر واجب اللغة العربية لنسخ ما ينتظرني.

شعرتُ بأنني انتصرت لنفسي من دون أن أُعَنَّفْ، لأني كنتُ أقول الحقيقة بهدوء تام واقتناع

بقيتْ لاحقاً. أستفتي الحق والمنطق بيني وبين نفسي، وأعيدُ تقييم المواقف الـ تستدعي «التمرّد» ولا أهابُ ما دام العقل يحمي قراراتي، ولا ألتفتُ للخوف في عُيون الآخرين، ولا لـ خشية أمي الهستيريّة عليّ [حتى اليوم]. بل استمدّ القوة دوماً من صمت أبي وعينيه اللتين تقولان الكثير مما يُشبهُ « استمزي.. الفتاة القويه تتكئ على منطقِ وَعيها بالحياة وعلى الحقيقة وما تقتضي منا ».. ألم أخبركم بأن بابا علّمني الكثير من دون أن يُفصح، أو يقول؟ أبي كان يفعل وأنا على تماسٍ مع عقله وروحه، ومنتبهة.

لكن. ظلّ سؤال خافتٍ يعلو ويهبط. سؤالٌ متأرجح لكنه دائم:

ما هي الحقيقة؟

منذ الطفولة ونحن نظن بأن كلّ ما يقوله لنا أهلنا هو كلّ الحقيقة، مأخوذة أرواحنا بـ صدقهم الذي كان مُسلّماً به. لكن ما كان يتسرّب لنا من حواراتهم

«الكبيرة» على أعمارنا ولا تشبه الوعظ المباشر [الذي يمارسونه علينا] دائماً، كان يرمينا في طُرُقِ التساؤل والتردّد أبدا. ما كان يربكنا في تأويل معاني الحقيقة، كانت تلك» الأقنعة المتعدّدة» التي تُستبدَلُ على عجلٍ ومن دون أدنى صعوبة، هي ما تربكنا تماماً، تربكني على الأقل. فقد كنت دوماً أشعر بأنني امرأة في الأربعين من عمرها تتخفّى في جسد طفلة. وعيي سامق على المحيط، ألتقط كلّ ما حولي.. ومَنْ هم حولي يظنونني «مُجرّد طفلة»، لقد كانوا يمارسون «عاديتهم/إنسانهم» الملطّخ بالقبح والجمال بمقادير متفاوتة، ولا يعرفون شكل الندم.

وفي فترات النصح والتربية، يُستَلّ قِناع لطيف جداً، بل قناع ملاك وتُعطى الأوامر بصوتٍ رحيم لنا وتتوالى الـ «لاءات» [بلا وجع قلب] لا تكذبوا! لا تسرقوا! لا تخافوا مِن قول الحق! لا تسبُّوا! لا تقولوا كلاماً بذيئاً! لا تخدعوا الناس!

لم يعجبني «فيلم اللاّءات» المثالي يوماً، خصوصاً حينما يَخرجُ من أفواهٍ تفعلُ عكس ما تنهينا عنه [أغلب الأوقات ولا تنتبه]، حتى ولو كانت «مُجبرة».

يومها، قرّرتُ أن أبحثَ عن معنى الحقيقة [بنفسي]، لم يُناسبني أن أكون جزءاً جديداً من البيت القديم نفسه.

ألَم يقل «المعري» يوماً: ((لا إمام سِوى العَقل))؟

وهكذا كان.

لم يكن الاحتجاج/ احتجاجي «برتقالياً» يومها كما [فعلت مع رفقاء

الحقيقة] في الـ [1]٢٠٠٦، بل كان احتجاجي يومها رمادياً،

لأنني كنتُ في مرحلةِ«هِجرة» وتركٍ لمكانٍ قديم باليقين، هاجرتُ من فكرة معتمة بالتوارث، وبدأت القلق المفضي لإقلاق المحيط كله.

و مُنذها عام ١٩٩٩ [عمر الـ-٢٢] قررت دَعكَ كلّ ما تسرّب عَنْوة لرأسي/ قناعاتي، من كراريس المدرسة المنمّقة بالاكتمال الهُلامي، مروراً بالإجابات القاصرة المعاني والحقائق البائِتة في رؤوس المدرّسات وغياب المساحة المتاحة في البيت لإطلاق فيض الأسئلة من دون وعي أصيل مني أنا شخصياً.

فـ عاهدتُ «حُجرات» رأسي، على المزيد من الكنْس/ الإحْلال والتّرْك.

مَحوتُ كلّ ما ظَنَنْته [يوماً ما] «حقيقة» وما زرعوه هنا؛في الرأس والقلب من «انصياع» مُؤذٍ، ولجأتُ لقراءةٍ منظّمةٍ تماماً [هذه المرة]، ابْتَعتُ مئات العناوين التي مَنعتها السلطة في بلادي [صرتُ مستقلة مادياً]، سلطةُ «الدين» التي لا تريدنا أن نرفع رؤوسنا نحو «الله» الحقيقيّ، بل نظلُّ تحت أوامر «ربّهم» الذي لا يشبه ربّنا، بتاتا.

كنتُ أقرأ كمَنْ يصَفعُ قلبَهَا لاكتشاف، كانت مرحلة«الحُمّى» هي مرحلة الاكتشاف، مرحلة الصراع، مرحلة من ضباب كثيف مُعتم ونهايته نور! سحرٌ لذيذٌ يشبه فتح صندوق يطفح بالأوراق التي تركها لكَ جدّك الذي لا تعرفه قبل أن يغادركَ مَوتاً ليُعرّفك كيف تتصرف في هذا المَضاع/الدُّنيا.

(١) حملة «نبيها خمسة» الشعبية والتي اتخذت من اللون البرتقالي رمزاً وانضم لها عدد من نواب الأمة، وكان هدف الحملة إيصال صوت الشارع الكويتي إلى القوى السياسية والضغط عليها للموافقة على تقليص عدد الدوائر الانتخابية من ٢٥ إلى ٥ فقط.

عُمقٌ سَحيق ومُبهم يُحفّز على الغَوص أكثر فيما يَنبش حوله الباحث عن شيء يكاد يقترب من السر، وفعل القراءة فعل مقدّس: هو صلاة تتوحّد فيها مع ذاتك عارياً إلاّ من حقيقتك الأولى كإنسانٍ يريد العيش بسلام وأمان، بأقل الخسائر الممكنة في الروح والجسد والعقل. وبثقةٍ عما سيكونَ لاحقاً. واللاحق؛ هو ما «يُرعبنا» كل الوقت، منذ الولادة نظل نفكر في الموت وتشملنا أزمة في القلب كلها حيرة وخشية من مجهولٍ آت.

أزمة في القلبِ/ الصّدر، وتذكّر لرائحة لا أُحبها: هذا ما ينتاب كياني حين يتسلّل إليّ القلق.

الشعور ذاته حين يتسرّب صُوت المُقرئ "عبد الباسط عبد الصّمد" بَغتة لمسمعي، شيء يعصر روحي التي تتشتّت، هذا لأننا نتائج عجائبيّة لعُقدٍ متراكبة/مترتّبة بفعل أهلنا، أو القدر. صوت "المقرئ الأهم في الوطن العربي" ارتبط بكلّ هذه المشقّة النفسية [الخاصة] لأنه يُعيدني عَنوة للتفتّح المدرسيّ الأول والذي خُضته مُتفرّدة لأنني البنت الوحيدة، فلا أخت تكبرني فأستفيد من "خبراتها" ولا صديقة حميمة من نِطاق الأسرة تعينني على نقل القادم إليّ بهدوء. كنتُ أدخل للتجارب بعينِ الفاحِص الجديد وبقلب متحفّز دوماً لإتمام المطلوب وبحواسٍ تتكامل لتُنتجَ نجاحاً يُفرحُ أسرتي الصغيرة ويجعل المعلمات [المثال السامي آنذاك] تفخَرنَ بمنجزاتي وتنقلن اعتدادهنّ بـ "ميس الصغيرة" وتفوّقها لوالدتي.

كنتُ [وما أزالُ حتى في الوظيفة الرسمية التي أمضيتُ فيها حتى الآن أكثر من ١٨ عاما] وكما عَوّدَني أبي، الذي يَخرج لعمله منذ ٦ صباحاً، لأكون فعلياً أول من تَدخُل للمدرسة [طوال سنوات دراسة ما قبل الجامعة]، صرتُ أحفظُ

التفاصيل الصغيرة التي لا تعني أحداً، كعددِ الشبابيك المُطلّة على الساحة وألوانها، وعددُ الشُّجيرات المزروعة حديثاً، وأنتبه جيداً إلى أنهم أعادوا طلاء سارية العلم الذي نُحيّيه كلّ يوم!

من منكُم أحصى عدد الأعمدة المحيطة بالساحة المدرسية؟ أو عدد "الزّهرات" و"المُرشدات" الواقفات لصق كلّ بوابة؟ من منكم يعرفُ تماماً الأماكن الظليلة التي تَحمي من الشمس والزوايا التي تُداعبها الريح بحيثُ تكون مثالية للأيام الرّطبة؟ وأماكن مَشارب المياه البعيدة التي لا يرتادها إلاّ القليل من الطالبات فتبقى نظيفة؟ من منكم يتذكر شكل حارس المدرسة الأشْيَب بلحيته المُحنّاة و"دَلّة" القهوة وهو يفترش الحديقة المخضرّة؟ [كان حرّاس المدارس في الثمانينيات من المواطنين من كبار السن قبل صفقات استجلاب الشركات بموظفين وافدين].

كنت أراقب كلّ ذلك وبهدوء يَعكسه صوت الطبيعة كما يبدأ الصباح، لأنني أدخل للمدرسة قبل تمام ٦ صباحاً.

أُراجع كرّاسات المواد، وأستعد لامتحان شفهيّ قد يأتينا مفاجئاً، حتى ينطلق صوت "عبد الباسط" ليهزّ أركان الساحة المدرسية، وهذا يعني بأنني صرت في الرُّبع الأخير من موعد جرس الطابور والاكتظاظ، صوته يُشبهُ المنبّه العالي، الذي لا يرحَمُ هناءَةَ النوم حين نَغطّ فيه، هو إنذار بنفادِ الوقت/وقتي أنا كلما سمعته، صوته يعصرني، يجعلني أرفع كتفيّ امتعاضاً ويحيلني لعيون المعلمة وهي تفكّك معنى "يُنفخُ في الصُّور" وأبقى أتفكّر بشكلِ ذاك المخلوق العملاق بشفتين غليظتين وهو يمارس النَّفخة العظيمة، التي من أجلها فقط كان قد خُلق! هو الشعور ذاته بثقله حين أضغط على أعصاب قناعاتي معاندة

لها ومُجبرَةٌ أن أذهب مُعزّية بـ "انتهاء وقتِ" أحَدَهم رفقةَ أمي ويشقُّ صوتهُ "هناك" أيضاً قلبي بحدّته/ عُلّوه ويؤذي قلوبَ أهل الفقيد أضعافاً [هكذا أثِق].
ألم أقل لكم بأن صوته لا يليق إلاّ بنفاد الوقت!

ولأن أوقاتنا كمثلِ ساعةٍ رمليةٍ [أو هكذا عَلّمونا]، فإن أعمارنا تمضي بحثاً عما يُسكِّن الخشية والقلق مما سـ "يأتي" وما سيكون وما سيغيّر خرائطَ حَيواتنا. في الحقيقة، إنّ هذا لانتظار مرير، إذا ما مارسناه كلّ الوقت لفقدنا عقولنا وصبرنا وتِهْنا في ملكوت الخشية مما يختبئ لنا!

11

وأنا في "عشرية جديدة" هي الأربعون .

بماذا أُمارس محبتي؟ وإلى ماذا يَحِنُّ قلبي؟

لصوت زميلتي "فاطمة" في متوسطة "زينب بنت خزيمة" وهي تشدو بدفءٍ لا يُصدَّق: "سلامٌ سلامْ .. سلامٌ عليكُم فَرِدّوا السلام يا لله"، ونحن ماذا كنا نشبهُ؟ فَراشات متَّشِحات بالأبيض و الأزرق لباس الكورال المدرسي الرسمي، ووردة مخيّطة عريضة البَتْلات تزيّن جانب صُدورنا، بلا أغطية رأس، فتياتٍ في مُقتبلِ الرحمة، ونُغني للسّلام تحليقاً في حفل كبير، تتنافس فيه أربعة مدارس على مستوى منطقة"الأحمدي" التعليمية، فاطمة السمراء بدفءٍ ساحر؛ قصيرة وناعمة وترتدي [ما يميّزها في الحفل] "الثوب النّشل"(١) الأسود الموشّى بالنجوم اللامعة، "فَطّومة"، كما أستدعيها الآن في مخيلتي، من أسرةٍ "محافظة"، فقد كانت المحجَّبة الوحيدة بيننا - ويَا للمصادفة - صوتٌ رخيمٌ فيه بُحَة أخّاذة أدهشت مُعلمة الموسيقى التي صاحَت بها: ((لن يمنعكِ / يمنعني أهلكِ من الغناء، أرجوكِ، أنتِ صوتٌ من السّحْر!))

(١) ثوب النشل؛ رداء حريريّ شفّاف واسع بلون واحد، يُطرّز بخيوط ذهبية لامعة، وهو لباس تراثيّ تختص به نساء منطقة الخليج العربي وترتديه في المناسبات السعيدة، وتحديداً في الكويت والبحرين والمنطقة الشرقية من السعودية.

خَجِلتْ فاطمة، غير أن عيونها القَلقة فضحَتْ صعوبة مُمارسة ما تهوى، والانصياع لطلب المعلّمة.

على صدرها دقّت"أبلة إيمان" : ((أنا سأتكفَل بالأمر، ماهو رقم هاتف بيتكم!))

وافقتْ أُسرة فاطمة بغرابة، ويوم زَفّتْ لنا "أبلة إيمان" الفرح، صِحنا بصوتٍ واحد وأطلقنا بهجتنا بالغناء من دون تنسيق للبدء "هِيليّالله يا الله حُبّ يا الكويت، مَنْقوشْ نَقشةِ الذّهب، مَنْقوشْ يا كويت .. "وبهاتين الأغنيتين ومعزوفة "كسّارة البندق" لـ تشايكوفيسكي، رافقنا فاطمة "مطربتنا" كما كنا نناديها، كفريق كورال من ١٥ تلميذة، تدرّبنا طويلاً على معنى التعاون في الغناء، على الشُدو بفرح، على التنفّس السليم، على معنى "العُرَبْ" الموسيقية والسَلطَنة اللحنية، وبأقصى ما عندنا من "طربٍ" أبْهَجْنا لجنة الحُكّام؛ موجُهو التعليم الموسيقي في مناطق الكويت، فقد أدهشهم التناسق بين العازفات الصغيرات والكورال [كنتُ من بينهم] و"مطربتنا" التي أعطَتْ حصادَ الفرح بـ بُحّتها التي تَسكنُ رأسي حتى اللحظة؛ تشدو بعينين مغمضتين؛ "سلامٌ من الله .. لا ينتهي .. على كلّ قَلبٍ إليه اعْتَلى"، فأين أنتِ يا زميلة "الطرب" النقيّ و"العُرَب" الصافية الـ تُثير قشعريرة في الروح مثل مُريد يَصعد للنور ..؟

فازتْ مَدْرسَتُنا بـ "مفتاحْ صُولْ" الذّهبي على مُستوى منطقة الأحمدي التعليمية، وفُزنا بأننا تعلمنا [حقيقة] المسؤولية الجَمْعيّة العالية و محبة أنفسنا ومعاني الإبداع و تعلّمنا معاني موسيقية تجهلها الأجيال التي قُدّر لها أن تولد بعد الـ ١٩٩٠، ردّدنا "المدرّج الموسيقي" و"الأوكتاف" و تعرفنا على مفتاح "فا" وأجزاء النغمات و الـ "بُومْ تِكْ بومْ تِكْ"، والإيقاعات وتزامنها، وبأن كلّ خطوة

قدم تساوي "دَقّة" وهي "رُبع نوتة" ومعنى "الكْرُوشْ" و"النَوار" ورسميهما، وجرّبنا العزف على الإكسَليفون والناي و الغناء طويلاً في الحزن والفرح، نحن جيل لم "يُخْنَقْ" بالتديّن ولم تُشطب حصص الموسيقى من جدولِهِ المدرسيّ لأنها "مُحرّمة" وستسوقنا جميعا إلى النار! بل غَنّينا طويلاً لـ "السّلام" الذي بَقِي "يَدعَكُ" قلبي كلما انغلقت عليّ الفكرة، أو عاكسني القَدَر.

في الواقع، إنّ ارتباطي بالموسيقى والغناء ككل الأطفال بصفة فِطْرية [نولد على الفِطرة التي هي مزيج سيّء وبدائيّ من حبّ التملّك ورغبات عالية بالبقاء والحِيازة] نحبُّ الموسيقى والغناء، ولعل الهَدْهَدات في المهَدِ وأصوات أمهاتنا وأفراد أسرنا الصغيرة المحيطة بنا هي من تبعث فيها دهشة التعرّف بالصوت وتهدينا عبر ذَبْذَباتهم الطاقيّة مشاعر اً معينة تنتقل إلينا/ الأطفال بسهولةٍ مؤلمة؛ إذْ لم يَضع الصّغير بَعْد قناعاً أو أكفر ليُواري خَلْفَها مشاعِرَهُ التي تترك ارتباكها على جسده/ ملامحه وصوته.

يتَسرّب حُزن الأمهات عادةً وتعبهن عبر أغنياتهن المتوارثة بالصوت الحزين والنغمة المتتالية لتهدئة الرضيع وتنويمه، فتنشأ تلك العلاقة الغريبة من سرعة تلقّينا [حين نكبر ويكبر وَعينا] للطاقة المُتولّدة من اللحن والكلمة، بل وحتى من الإيماءات الصادرة ممّن يُغني.

حينما كنت في سنوات الروضة [١٩٨٣ ـ ١٩٨٤]، طفلة صغيرة تكاد لا تُرىٰ [هكذا كنت أشعر] إلاّ بعيون المعلمات اللواتي يتفنّن بتدليلي كلّ النهار، التّمسيد على شعري الأسود الفاحم/الناعم، وبقَرْص خدودي الممتلئة، كانوا يفعلون ذلك وأسمح لهم أكثر مما كنت أدع المجال لأمي كي تَفعل ذلك [لقد كنتُ طفلة ناضجة بشكل غريب، جادّة على نحو يجعل أمي تضحك في سرّها]

وكنتُ في سباق مع الزمن لكي أعرف أكثر.

لكي أفهم هذا الكون الذي لم أستلطفه كثيراً يوم قُذفت فيه بلا رحمة، والأغنيات في تلك الفترة من عمري واكتشافي المانع [وربما كان اكتشاف الأطفال من زملائي في الروضة أيضاً]. كنّا نتحلّق حول "أبلة زينب" معلمة الروضة الفلسطينية المحجّبة، كانت سيدة كبيرة في السن [آنذاك] في نهايات الأربعين ربما [حينما أستدعي صورتها وأقول ربما لأننا كنا نرى في ذلك العمر كلّ الناس يتجاوزوننا عمراً وطولاً ومقدرة على كلّ شيء] نتحلّق كطوقِ زهرٍ، فتيات صغيرات وفتيان صغار نمسك بأكفّ بعضنا، نلبسُ زياً موحّداً بالأحمر والرماديّ شتاءً، ولكي ننال الدفء؛ تطلب منا "أبلة زينب" الغناء رفقة عزفها على البيانو الأسود الكبير الذي يتوسّط ساحة المطعم المغلق، وصوتها رفقة النغم يعلو:

"حُبّ الوطن فَرْض عَليّا، أفْديه بروحي وعَنَيّا..."

وكيف كانت تستبدل "يا مصر" بـــــ "يا كويت أنا رِضِعت هَواكِ من الصِّبا وجَرَى في دمّي... ومالِيشْ يا كويت حبيب غيرك أميل إليه في الدنيا دِي"

وأضيع أنا في تأمل الخيط الفضيّ المنسوج في حجابها الذي يحمل في نهاياته المزيد من الخيوط المنسَدلة على محيط كتفيها، بينما عدسة نظارتها تلتمع هي الأخرى لأنها تُحرّك رأسها باتجاهنا مثل "مايسترو" مشغولة يَداه بالعزف على البيانو، بينما رأسها وكتفيها يهبطان ويعلوان كإشاراتٍ للبدء في الغناء. ونحن من ورائها بمَذْهَبِ الأغنية من جديد نصيح: "حُبّ الوطن فَرْض عَليّا، أفديه بروحي وعنيّا"، تسحبُ كَفُها اليمنى على مفاتيح البيانو دفعة واحدة بخط مستقيم من اليمين حتى اليسار بإشارة صوتية لإنهاء الفقرة الغنائية

الصباحية الأولى؛ وتصيح من فَورها:

"معايا يا قمرات".

ثم، تُعاود تحريك رأسها، وتلتمع من جديد الخيوط الفضية المنسوجة في حجابها ونظارتها أيضا، فتغنّي :

"فتّحي يا وَردة... سَكّري يا وَردة..."

ونحن مجموعات دائرية، مُمسكة أكفّنا ببعضنا في دوائر لا تنفصل، تضيق بخطواتنا لنلتقي في نقطة وسط، ثم نبعد لتتسع الدائرة حتى أقصاها وتشتدّ الأيادي فنضحك، تنادينا "أبلة زينب":

يا أولاد.. وتشيرُ لخدّها الأيمن وتضربُ عليه بخفّة: هنا وردة: تَكْتكتكْ، وهنا ياسَمينة: تَكْتكتك.. وهي تحوّل يدها لخدها الأيسر، نُقلّدها بفرح الاكتشاف ونضحك حين تُكمل هي: "البنتْ الشاطرة طُولْ عُمرْها شاطرة والولد الشاطر طول عُمْرُه شاطر، تعرفوا تْعدّوا لغاية عشرة؟"

نتقافز مثل قردة صغار بأصوات مَبحوحة بالعَد لغاية عشرة كأهمّ المنجزات الـ ترشدنا إليها الروضة في الثمانينيات.

[أبتهج حقاً حينما أستَدعي تلك اللقطات]

حين عادت "أبلة زينب" من رحلة الحج في يوم ما، تعلمنا منها معنى هذه الرحلة، قالت بفلسطينيتها:

"رُحِتْ يا حَبايب ألّبي شُفِتْ بيتْ رَبّنا"

كنتُ أفكّك كلماتها كأحجيات ولا أكترث، لكننا رسمنا المكعَّب الأسود على ورق ملوّن واستلمنا منها الهدايا التي جلبتها لنا ولم تنسَ أحداً. حقيبتي المطرّزة بخَرَزٍ كَوَّن رسماً لوردة كبيرة، عَلَّقتها من سِلسالها الذهبيّ بشكل مائل حول جذعي ودُرتُ بها.. دُرتُ .. دُرتُ طويلاً مُستعرضة شكلها والتماع الخَرَز فيها بفرح غامر، ونسيت المُكعب الأسود ومعناه.

كبرنا ونحن نغنّي في كلّ لحظة تحتاج لأن تُطرّى بالنغم والسلطنة، ولنبدّد الوحشة والأذى والتعب والغضب و ... توتر الأرواح.

12

للثمانينيات عمرٌ من التذكر.

كل تلك الأغنيات التي سَكنَتنا، هي أغنيات توزّعت على مفاصلِ طُفولتنا وشرخ مراهقتنا الأول، تلك هي أغنيات المراهقة التي خدشها الألم كصفعةٍ مباغتةٍ من غُول اسطوري، وحين اسْتَفقنا، اكتشفنا بأننا قَفزنا في الهواء سنة كاملة من دون خفقة قلب، وبأننا صرنا [ولا ندري كيف] نحبُّ جداً ونَطرَبُ كثيراً ونتأثر حقاً بكلِّ أغنيات الشوق والوَله، بينما في الحقيقة ليس هناك لا حبيب ولا جار نهتمّ به لنعيد بسط الكلام غناءً ولا لوْعَة روح!

كان في وقتنا ذاك [١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠] وقت التحوّل من الطفولة لارتباك الرهافة والتلقّي لعالم أكثر اتساعاً من شباك زمن خاص بـ "خالد الشيخ"؛صوته الذي كان سبيلاً مهدّئاً لكل عَضرة قلب ورفّة روح ولكل تحليق بخيالات الأمنيات الـ تَسْتَهلكها اليقظة. حين كان الغَزَلْ رغبةً لا متوفرة، بل كان تهمة وعيب، وأصعبُ ما يمكن لمراهقٍ أن يخطط له حتى، فهاتفُ المنزل الذي تتشارك فيه الأنفس رغباتها الكثيرة وسِلْكه الطويل الـ ينتقل بالخِفْيَة من غرفةٍ لأخرى، حديث وآخر، للهمس والتصريح، نظلّ نتتبّع لونه على الأرض خطوطاً ممتدّة مثل أفعى مقيمة في البيت للإمساك بياقته البلاستيكية وتهريبه ولا نتوب من الفعل ولا نملّ من تأنيبنا بسببه!

أما تلك العادة المستهجنة المتلصِّصة على خصوصياتنا برفع السماعة الثانية [كَبْسَة مباغتة للاطمئنان لحُسنِ السيرة والسلوك] كانت تُغرقنا في خجلنا ممّن نتعاطى معهم على الضفة الثانية من المودة، بينما نطلب بأدب عالٍ منهم إغلاق السماعة الثانية للحفاظ على حقّنا في حديثٍ خاص [بريء من ظنونهم]!

كنا نحيا [وكان هذا طبيعياً في كلّ البيوت] بالتوقيت المحاصر بالعائلة والترتيب والحث على الدراسة بلا راحة، ضيق البيوت واللّمة القسْرية وكثير من صِياح الوالدين بهدف الترهيب/ التربية... كلها كانت أشبه بـ ضغطٍ مُخَلّلٍ يدفعنا للدراسة مثلاً مع الاستماع/الاستمتاع بأغنيات الحب والتمني، نتجلى بتأوّهات المطرب ونشاركه طموحه العالي في لقاء المجهول الذي نؤمن حقاً بأنه يستحق كلّ هذا الشغف/الانشغال به/بها.

كلّ ذلك محْض خيالات [هكذا اكتشفنا لاحقاً] لمراهقين وممارسات كانت تتم في السر، وفي غرفنا المغلقة على نوايا بالدراسة، إذ كان الفعلُ في العَلَنْ اتهام باطلٌ بالحب، خاصة إذا ما ارتبط ذلك بالنحافة كونها على علاقة أكيدة بمعاناة الحب.. وسِرّيّته!

خالد الشيخ، وأغنياته، كانت الفترة الذهبية من الفرح والقشعريرة، كانت أشرطته المتداولة فيما بيننا [المنسوخة عن الأصلية والتي لا تتوفر أثمانها لشرائها جديدة من محلات بيع أشرطة الكاسيت]هي إحدى كلمات السرّ المُصرّح بها، ذوقاً معتمداً ورائجاً، حينها كنت أحب [وما أزال] "الصغيرة نجاة"، تلك السيدة الخفيفة على الفؤاد، الهادئة كما الرحمة، تلك الـ تغمض عينيها على السرّ دائماً، والتي تمارس الوَله بتجلٍّ مقدّس.

أحبّ اللحن أولاً حين يُدغدغني، والكلام أشَدّ على الأذن حين يُسْكرني، والفرحُ سمةُ العاشقين، استمتع به [آنذاك]حين كنتُ على بدايات التورّد، وحين وَمَضَتْ نجمةُ الحبّ فوق رأسي؛ صار لأغنياتها شكلاً أكثر حبيّة، وصار لـ "صفيرة نجاة" صورة من قداسةٍ لا تتغيّر.

في الطفولة، والعُهدةُ على ذاكرتي، لأنني جئت بين شقيقين، الأوّل يكبرني بثلاث سنوات بينما يصغرني الثاني بسبع سنوات، فإن أمي كانت تُغني لنا ما يُتاح لها من "عائلة بندلي"[1] حين تغسل وجوهنا تُدندن: "غسّل وجُكْ يا قمر بالصابونة والحَجَر ... وينَك يا قمر"

لنردِّد وراءها: غسّلْ وجّي!

حتى تَنتهي مُهمّتها الشاقة كلّ صباح.

لكن مما عَلَّمَ في الذاكرة الموسيقية الطربيّة حقاً، هي تلك الحلقة من برنامج "أستوديو ٨٦" الذي استضاف اللبنانية السيدة "ماجدة الرومي" والفنان المصري"حسين فهمي"، الحلقة التي تحدّثت فيها طويلاً عن طفولتها وكيف نشأت في بيت فنان هو "حليم الرومي" والدها. اللافت حقاً، هو ما بقينا نستعيده [صديقتي عبير وأنا] من أغنياتها التي قدّمتها في الحلقة، فساتينها التي تشبه أردِيَة الأميرات في القصص التي نقرؤها، ذلك الأصفر اللامع جداً، المفرود على الجانبين كما بَتْلات الورد، فأية مفارقة بالرغم من صغر سنواتنا [١٩٨٦ الثاني الابتدائي] تلك التي جعلتنا مَخْمورتين بصوتها الأوبراليّ وتجلّيها الآسر بحيث تَوَارَيْنا خلال الفسحة المدرسية في الساحة البعيدة [خلف المسجد

(١) عائلة بندلي، هي فرقة/عائلة غنائية من طرابلس، لبنان، ازدهرت ما بين ١٩٧٠ وحتى ١٩٨٣. منهم دُورا بندلي وريمى بندلي.

لأننا نحتاج لمساحة خاصة بعيداً عن صخب التلميذات]، جلسنا على دكَة شباك المسجد ونحن نفرش ما تَيسّر من أطراف فساتيننا المدرسية على الجانبين، نتخَيل ونحن الصغيرات المشروعةِ أحلامُنا اليَقِظة، بأنها كانت بفخامة الفستان الأصفر للسيدة "ماجدة الرومي"، فستانها هذا تحديداً لا أشكَ بأنه سَلَبَ قلوب بنات جيلنا [آنذاك]، فستانها بـ "فْيونَكة" عريضة، لامعة على الصدر.

كنا نُفكّك اللحن والكلمات الفصحى التي حَفظناها سريعاً/ قليلاً [كنا نفشلُ في استدعاء الكثير من الكلمات فنُعَوّضُ ذلك بدندنة لحنية لاستكمال المتعة] نقول:

"عيناي رَفُ خَميلةٍ خضراءَ من أرضِ التَّمَني، أشَمَمْتَ عِطر غَلائلي، عِطرٌ يعيشُ ببالِ عَدْنِ .. أنا أيُّ شَعَةِ نَجمةٍ، أنا أيُّ لونٍ مثلُ لوني..." وتضيعُ بقيةُ الكلماتِ من مَخزون مفردات طفولتنا، ولصُعوبتها على الذاكرة المُنشغلة/ المُشتعلة بالأصفر الأنيق. كُنا فَتيات بعمر الثامنة/التاسعة وأُطمئِنُ "عبير" إلى أنني سَأدوِّن بقية الكلمات على ورقة لأجلها/لأجلنا غداً، لأننا سَجّلنا الحَلقة عبر الفيديو!

تصيحُ "عبير" غير مُصدّقة: والله؟! وتلتمعُ العُيون بالنَّزق.

لماذا كُنّا سَعيدات جِداً بتقليد الفنان حسين فهمي ومناكَفَتِه للسيدة ماجدة الرومي إلى الحدّ الذي جَعلنا نغيبُ في قشعريرة وصمتٍ لا نهائيين حتى رنّ جرس انتهاء الفرصة؟

لقد كانت مُتَعُ الدنيا صغيرة جداً، بسيطة جداً، تُشبهنا وتليقُ بالبراءة والانتباه المرهف الذي وُلدنا به، لكن السؤال: كيف كانت الذائقة بهذا الاختيار العالي قياساً على طَراوةِ سَنواتنا؟

نحنُ جيلٌ مختلف، عاصَرْنا الطَفرة الأولى لأوّل الخير، بينما راهَقْنا في عِزّ الألم، ثمَّ انتبهنا لضرورةِ أن تَكون المُوازنة هي المَسْلك الخاص القادم، فهل يُعقل أن أستَمع/أشاهِدُ تسجيلاً لحفل "عبد الحليم حافظ"، بينما أنا ما أزال في السّابعة من عمري، وأعيدُ وأكررُ الاسْتماع بينما يُغني "أهواك" وأُغمضُ عَينَي على اللّحن الذي سَحَرَني ولم أعِ الكَلام حِينها؟

[لا أدري إنْ كانت أُمي قد استغربت سلوكي هذا، أو انتبهتْ له أساساً] لكن البداية التي جَعَلتْنا نُصبُحُ على الأغنيات وفَرَحِها هي من أسَسَتْ لحب النغم والاختيار بين ما هو حقيقيّ و .. سطحي.

في الثانوية [١٩٩١ـ ١٩٩٤]، تعرّفت إلى صوت الجبّارة المطربة التونسية "أمينة فاخت"، وقد كنتُ مخمورةً بها وبصوتها حتى التقطت روحي أغنيتها الكونية الرهيبة "إلهْ الكُون"؛ هذه الأغنية التي كنتُ أُديرُها وقتَ انتهائي من الدراسة الثقيلة في ساعات المغرب الساكنة بالاسترخاء على ظهري أستلقي وعيوني معلّقة نحو الأعلى/السقف، لقد اعتاد جسدي على إطلاق قشعريرة امتنان/لذة أشعرها على أطراف جلدي حين النشوة بالموسيقى والأصوات والكلمات.

يعلو صوتها شدواً: ((قابلت خدود صفا لونهم بلون الفجر بأذانه، وفيهم لون خجل يفتن ربيع الورد في أوانه، لقيت الفتنة حَ تصادف كيان عايش بوجدانه، وخفت الشوق يسهّيني ويلاقي فِ قلبي أوطانه، رجعت لوحدتي أشكي ضنا قلبي وحرمانه، لقيتني في روضة بتغني نغم ألوانْ، جمال الورد فكّرني على الأغصانْ، بلون الخد وحرمني من النسيانْ، يا خالق الورد سامحني؛ أنا إنسانْ...)).

كنتُ في تلك السنوات من المرحلة الثانوية [١٩٩١- ١٩٩٤] حين أنعزل [أعني انعزالي وقت النصف الثاني من مراهقتي، انعزالي الذي كان يُربك أسرتي فلا يكفّون عن استدعائي مرة بعد الأخرى لمشاركتهم الأمسيات في غرفة الجلوس بحجج كثيرة كلها بلا معنى] كنتُ في الحقيقة أنعزل لأني أُسافر سفراً ذهنياً/ شعورياً نحو عوالم مختلفة، مكتظّة بالناس والتجارب والأصوات، كنت حينها لا أمتلك سوى جهاز تسجيل بفتحتي [كاسيت] وأعقد جلسات استماع موسيقية/ غنائية عظيمة مع ذاتي، وأغني طويلاً، أستلذّ جيداً، أُمرّن صوتي على الأداء، وهكذا اعتَدتُ منذ التجربة الأولى في كورال المدرسة [المتوسطة] وغنائي مع "أبلة إيمان" في فترات التدريب عَوّدني على مَمارسة الفرح عبر ملء الرئتين بالهواء والشجن وشحن العقل بطاقة الكلام الجميل واللحن الموزون على مهل، هذه المُدهِشات كنت أمارسها بالمايكروفون السريّ [فرشاة شَعري]، وأتجلى رفقة أصوات المطربين بمصاحبة سماعات الأذن ليتضاعف الشغف بحُسن الأداء.

[كنت دائماً ما أتخيل أن الحياة لم تبدأ فعلياً، فالدراسة شحن طويل لمستقبل آتٍ بالدهشة.. كما كنت أظن]

ثم "حِلِفْ القمر بِمين وقالّي .." بأن لا شيء من هذا سيحدث، والمستقبل هو نحن دائماً ضمن ظروف محيطة تدفعنا [على الأغلب] نحو طرق متشعّبة.. لكني كنتُ لا أصدّق "جورج وسوف" حينما حلف، وبقي "الشِّعر/الحلم غافي ع كْتافي".

فسلامٌ عليكِ يا "أبلة إيمان"، يا ضحكة مصر حين تفرح، سلامٌ على صوتك يا "فاطمة" التي لا أعرف اسمك الأخير [وهذا يحزنني كثيراً] فنحن "جيل" تربّى على معرفة أول اسمين بلا عائلة تميّزنا وتضعنا في خانة التصنيف المقيت، نحن جيل مدارس الثمانينيات في الكويت، التي أعرف وتعرفني، جيل بريء من كلّ المعوقات الحالية، وقد تبدّلت الحَسَنات كلها الآن. لذا، أصبو لأن أحيا في "سلام" وطمأنينة لا ينتهيان.

13

وأنا أتمرجح على سلَم الأربعين، حتى الأسئلة [أسئلتي اللعينة] تغيّرت زواياها .

وعليه سأطلق استفهاماً جوهرياً حان وقته: ماهو الشكل الأقرب لتعريف السلام والطمأنينة مجتمعَيْن؟

كما أراهما هو الخروج بعيداً عن المألوف، وهذا بالتأكيد ما لا يقارب مفهومكم عنهما، فتعريف الطمأنينة الذي [كنتُ أظنه] هو أن نظلّ نمارس ما نعرفه/ نعتقده، أو نرى آباءنا يمارسونه، وهذا في الحقيقة ليس سوى الوقوع في مصيدة واحدة مستمرة/ متكررة كلّ العمر!

علماً بأن وقوعنا فيها يعني العودة لغيبوبةٍ كبرى نفَضَها الراسخون في النباهة، ومازال يعيشها ويروّج لها تحت عناوين كثيرة / بشر كُثر نراهم كلّ لحظة ضمن قوالب ممنهجة ومرسومة [من آخرين لم يروهم/لم يعرفوهم]، لكنني أحببت القفز بعيداً قدر استطاعتي، وقدر نموّ إدراكي [الذي ما زال يتلقّى المزيد]، وقدرَ معرفتي [التي أُغليها باستمرار الدفع التأمليّ والقرائيّ] وقدرَ انهزام الأنثى في بيئتنا؛ التي تبرعُ بارتكاب جرائمها المتعدّدة نحوها بإصرارٍ لا يُستساغ إلاّ من المُعتادة أرواحهم على الانضواء تحت أجنحةِ سُلطات متدرّجة الخنق/ الخيانة عبر ذات واعية [ولا واعية].

حينما بدأتُ في الكتابة [هنا في هذا السرد] كنتُ أنبشُ في أدراج عقلي [على مستويين]: ممثلة بالذاكرة والعلم عندها، وفي أوراقي الشخصية المخزّنة في الصندوق المقفل على العشريّات!

فقبل مدّة قريبة، وبعد قرار عائلي بترميم منزلنا / منزل الجَدّ والجَدّة [أمي وأبي الآن]، المنزل الذي طاله تعب السنوات وصار يحتاج لإعادة بثّ شيء من الحداثة والتجديدات في أركانه؛ تركتْ لي والدتي صندوقاً مستطيلاً متوسط الحجم من القشّ الأزرق يحتوي على [أغلب] أوراق وكرّاسات التدوين التي مَلأتْ صفحاتها بـ خطّ يدي خلال محاضراتي في الجامعة، كتابات الدروس على مدى ٤ سنوات في قسم الإعلام / جامعة الكويت. وجدتُ حين نَبشتها أنّ أوراقها قد بهتت حبرها وحالَتْ أطراف صَفحاتها إلى الأصفر. نحن نتحدث الآن عن أوراق صار عمرها أكثر من ٢٠ سنة. فسنواتي الجامعية التي أحسبها [دائماً] ليست بعيدة، هي في الواقع بدأت في [١٩٩٥]، لقد تركَتْ أمي الصندوق في مكانٍ آمنٍ مُذ تركتُ المنزل نحو منزلي المستقل لأنها تعرف شدّة تعلّقي بكل ما هو "ورقيّ"، وسألتني يومها إذا ما كنت ما أزال أريد الاحتفاظ بهذا التجميع القديم [الذي ما عاد له معنى بالنسبة إليها]؟

اعترفُ بأني نظرتُ طويلاً للصندوق وما يَحوي [قبل أن أمدّ يديّ نحوَهُ]، ما كنا نطلق عليه "رِكوُرداتْ" من كرّاسات عريضة غلافها من ورق مُقوّى، وأوراق مقسّمة لفصول، وشخبطة بدائية كنت أسميها كتابة [لقد اختلف خطّ يدي تماماً للدرجة التي جعلتني أشكّ بكونها أنا]؟!

السؤال الأعمق كان: هل تلك أنا فعلاً؟

كنتُ أنا [تلك].

بمعنى؛ لقد كنتُ أنا في سنواتي تلك، فعلاً.

فالملاحظات الجانبية [وما أكثرها] للمادة الأصلية كانت الجذور الأولى للسؤال والكشف ولو كانت حَذرةً/بدائيةً وبسيطة [ومضحكة]الهوامش المتعلقة بـ اجتماعات "القوائم الانتخابية الجامعية" آنذاك/ أشياءٌ من أفكاري التي تُلحّ عليّ خلال الإنصات الواعي، أو غير المُدرك للدرسِ وتشعّباته وتلك الخِطط الصغيرة الرامية لتغيير مَسارات القادم [الذي كنا نظنه مُلكاً لأمنياتنا المتَحققة] القادم الصعب جداً كحياة جامعية/ مجتمعية ما كانت "تداويها" الدولة إلاّ لمزيد من الحماقة واللامسؤولية [حتى اليوم]!

كنتُ أظنّ كما ظنّ "المجتهدون" يوماً ممن شاركوني الإيمان بما قرأنا / ناقشنا، بأن طلاب الجامعات هم القوة الأصيلة الضاغطة التي تعمل على تحريك الشارع في دول العالم، تحريك الشارع "الحيّ/الواعي" بالتأكيد، وظننا وفقاً لهكذا إيمانيات [كانت] ناتئة/ناشئة للتوّ بأننا لامَسنا "الحقيقة" بشكل ما، وبشعارات عزّزت للمساواة، وشعلة عالية بلون "برتقالي" لا تخبو، كنا نظن بسنواتنا الصغيرة/ اليافعة تلك بأننا وصلنا، وبأهازيجنا [الثورية] وبحماسة عجائبية تستحمل حرارة شمس الكويت ورطوبة أيلول- تشرين بداية كلّ فصل دراسي، فنَصْلُبُ أرواحنا/أجسادنا الفَتيّة على بوابات الكليات لساعات طوال للترويج للفكرة/ المبدأ والتوجّه خلال موسم انتخابات الجامعة،

فقط لأننا نؤمن جداً [وما زلنا نؤمن] بضرورة الفعْل/القفْز خارج مُستنقع الرتابة والعادية والزحف الفكريّ الأسود!

لكن [ربّما] كنا نتعامل بالمنطق وحده، ولم نعِ أننا نعيش في هكذا دول، وجهها مدنيّ و"قَفَاها" قبليّ وتتنفّس البداوة الأصيلة كلّ الوقت، ونُقطّر" نفط" الاختلاف على شُعلة تقتات عليها وأكثر، تَبيّنَ لنا متأخراً بأن المنطق وحده لا يليق في التّعاطي الفكري لهكذا بيئات مسمومة بإرثها الـ يشدّها كلّ الوقت إلى الوراء.

لكننا تدرّبنا جيداً على إعادة رسم ملامح التفكير وطرق طرح السؤال وعلى معنى الفهم، على شحذ الهِمَم كلما خابت الآمال، وعلى الاقتراب من مكامن الخطر بخطط جديدة [بديلة وواقعية أكثر]، على التملّص ممن لا يشبهوننا، بل قبضنا جيداً على "أشباهنا" من هنا وهناك [في كليات أخرى] منابع مودة جديدة، تَدرّبنا طويلاً في معتركات النزاع الفكري، وفتحنا آذاننا/ وَعْينا مبكراً على الخدع والحروب النفسية و قرأنا كثيراً من مناهلٍ مختلفة، سنوات أربع معترك مبدئيّ للفهم الأوّلي.

ثم يتبعُه الاعتصار الـ يُضيء الروح بأولى نغمات "الكشف" الشجيّة و يرهف السمع، يُحيل النّفس لأخرى شديدة الشفافية، وتُعاش الحياة كلها ضمن شبه نعيم خاص/ رقصة مستمرة مشتعلة بالاكتشاف لا يَسمعْ موسيقاها إلاّ أولئك الراسخة عقولهم في معنى الصّعود، وتتاح فرصة الانضمام لجوقة المهاجرين الأبديين، وتَحْضُر لحظة الخروج من فقّاعة كبيرة عامرة بالعاديّ وما دونه بكلّ صلافته وامتهانه لعقلِ قرّر تجاوز مراحله البدائية [مبكرا] .

قبل أيام عاودتُ البحث في سلة القشّ من جديد، التي رَكَنَتها أمي [رغبةً في الخلاص منها] وكتابات سنوات مضت، كنت في الواقع أبحث عما يوصلني للكثير من جذور وبدايات القفز الحُر في الحياة، وصدّقوني؛ الفرح بالذات ليس غروراً، أو مرضاً نفسياً ما لم نشعر به كفهم "عميق" لما نحن فيه الآن، امتنان من فعل وفكرة ومنتَج نقدّمهم ببهجة غامرةً، نحن في الواقع نعيد العطاء مضاعفاً للبشرية [حين نكتب نحن نُعطي الكثير ونوزّع الأفكار والحلول للناس] و لو لم ننتبه لأصبحنا مجرّد مغرورين بذوات فارغة جداً يبتغون مجداً زائفاً/زائلاً، ذوات تتعيّش على المتع والاستهلاك ولا تقدّم حتى ابتسامة لعابر في الطريق، لأنّ العطاء ليس ضمن قاموس الفعل و هو البذل في المعرفة والفكرة أولاً، تلخيص واختزال سنوات استنتاجك الشخصي وطريقك الجديد وتقديم شذرات متفرّقة منه لمن تجمعك بهم دروب الدنيا هذه المرة وكل مرة تأتي فيها لهذه الجنة / النار.

لذا، تجدونا نَكْفُر في ذواتنا [في مرحلة ما أو أكثر من مرحلة متفرّقة]ولا نعود تُرضينا كما كانت [نخلعنا جيداً و نرمينا بعيداً، نُفكّننا ونعيد تركيبنا]، فنعيد تقييمها من جديد، نسألها عما سَلَكَتْ من طُرقٍ وعَماً تجاهَلَتْهُ، وندقّق فيما مررنا به، فقد قيل في الإنجيل: "من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه".

ومن أراد أن يكون "قيمة"، فعليه أن يترك كل إيمانياته، وما يحمل مسبّقاً، ويعيد تفكيكها/ اختبارها؛ ليكون كائناً صالحاً للبقاء والاستمرار، شيء يشبه موقف العاكِفِ على نفسه، الماضي نحو تغييرها تماماً، نَنْفُضُ بطانة الروح عما الْقِمَتْ لسنوات طويلة، انصهار وصراع لا تتاح فرصته للجميع بسهوله.

العملية متواصلة منذ خُلقَ العقل، فتحريكُ الرماد لا يتوقف والجمر الهادئ [الذي كان وهجاً حارقاً يوماً ما] يظلّ يبحث عن هواء ليبقى حياً مستوقداً بالاكتشاف المستمر، لكن الناس [أغلب الناس] كما يبدو مرتاحين فيما يعرفونه وفيما اعتادوا عليه [حتى وإن لم يعجبهم في العمق] ينفثون بوادر "شَكِّهِم" بـ الاستغفار [يظنونها وَسْوَسة شيطانية]، إذ إن الطبيعيّ والـ يعيد ميزان ارتياحهم هو "حَسبُنا ما وَجَدنا عليهِ آباءنا" والتبرير لا ينتهي، والمطمئنات لا تنفد.

خلال أيام مضت، قبل الشروع بتفريغ محتوى هذا السّرد الطويل الكاشف، تحديداً حينما أطفأتُ الشمعة الأربعين، شمعة معنوية كلها تبريكات لأحباء للعبور للعشرية الجديدة/ الجديرة بالتوقّف عندها، كنت أفكر طويلاً في الطفولة البعيدة، تلك الطفولة المتحفّزة التي عشتها، حينما كنا في محيط يظننا مجرد أطفال لا ندرك شيئاً وصفحات بيضاء [أنا أستعير تعبيرهم] بينما هم لا ينتبهون بأن الأبيض هو ناتج مزج كلّ الألوان.

كنا في الواقع أطفالاً نُحسن التلقّي والفهم وربط خيوط العبارات ومقارنتها بالفعل، كنا ننظر للمعلمة كأمٍّ ثانية [مثال حقيقيّ وبؤرة طمأنينة] وننادي الغرباء بـ "عَمّو" ونبتسم تأدّباً، ونشكر بصوتٍ مسموع من يساعدنا، ونحزن للفقير الجالس على كتف الطريق ونشتهي أن يدسّ أحدهم بيده المساعدة، ونراقب الليل وتداخله بالنهار في لحظة ساحرة [تعلّمتُ في سنوات الجامعة في دراسة الإعلام أن اسمها فعلاً الساعة السحرية] ونفهم معنى الإنجاب وكيف يتكوّن الجنين ولا نجرؤ على الخوض فيما نعرفه مع الكبار ونحن نعرف تماماً

الكذبات الصغيرة حين يطلقها أهلنا [حول هذا الموضوع تحديداً و غيره] وأنها لا تختلف بشيء عن الكذبات الكبيرة! وبأن الكبار يتنافسون فيما بينهم [بنا نحن] فالعبارات المرسلة بـــ سذاجة تامة كـــ "أولادي أجمل"، أو "أبنائي أشطَر" .. كلها كانت مدعاة لتندّرنا كلما اختلينا ببعضنا وتحدثنا بما استوقفنا من سلوك لا يشبه "قُدسيّة" الآباء، و عظمتهم التي دُعينا إلى احترامها ضمن قوالب متوارثة أيضا.

كنا في الواقع على درجة من النَّجابة الكافية، لهَضم كلّ لفظ وكلّ إيماءة وكلّ هَمْسة [تصدر عنهم] وما ورائها وما تحتوي.ورغم ذلك كله، كنت أشعر [من دون تنميق للعبارة] بأن الدنيا كانت متّسعة عليّ جداً.. ولا تُحتمل!

14

تساؤلي "الأربعينيّ" المشروع [بالنسبة إليّ حالياً] هو:

ما الذي يجعل دنيانا أقلّ قسوةً.. دنيا قابلة للبَلْع ولو قليلاً؟

هو الكشفُ الذي يترافق طردياً مع انتظار الآتي [ما يطلق عليه أهلنا المستقبل] كل آتٍ بالبُشرى، أو بالحزن، أو بالصدمات، أو بالعادي، هو [كما هو متعارف عليه] يحمل وصف "المستقبل"، ولا أدري ما الذي عزّز شعوري بـ الاستبشار العالي الوتيرة حين أنطق الكلمة بحدّ ذاتها!

ماذا أيضاً؟

كلّ تلك المُمتعات الـ تشبه ما يثيرني حقاً كطفلة أعود إليها، كيوم عطلة رائق خاص بي ولي، في بيتي الصغير جداً [البيت الذي اخترناه رفيقي وأنا]، يوم أقضيه مرتدية بيجامة قُطنية فضفاضة ومريحة، يوم من اللا وظيفة [التي تهدر طاقتي النهارية جداً] يوم ممتدّ بلا ارتباطات/ مجاملات تحيلني لكائنٍ مُثقل بالتعب، لقد "طَلَقْتُ" فعل المجاملة منذ قرّرت ذلك ومارست الاستقلال [منذ ١٠ أعوام تقريباً]، فأنا لستُ ظلاً لأمي مثلاً، ولا يستوجب وجودي/ حضوري إلى جانبها لحفلات التّفاهة المقامة بلا انتهاء كلما قرّر جَمْع من البشر الفرح، أو حتى لامس الحزن أطراف استقرارهم، فسلوك الانشغال بـ الآخرين هو سدّ لخانةِ الفراغ والملل وكلها ممارسات مشروعة لخداع الذات، [صدّقوني]

سيفرح الناس بوجودنا، أو بعَدَمه، وسيحزن الموجوع حتى لو زاره ألف فرد للمواساة. لذا، لن تجدوني في الأعراس ولا في المآتم.

مُثيراتي بسيطة ولا تتطلب الكثير.

إعادة تصنيف مكتبتنا الضخمة، أو حتى مجرّد قضاء وقت في تأملها، رعاية مزروعاتي المستريحات قرب النافذة المشبعة بالشمس والتحدّث إليهن، إبريق قهوة أحضّره بنفسي ويترك عبقه في أنحاء روحي، كرسيّ الجلدي أصفر اللون الذي احتضن جلوسي/ جنوني عليه خلال كتابتي هذه، وقطعة شوكولاته غامقة جداً ومُرّة، بالتأمّل قبيل وخلال وبعد الكتابة، موسيقى تتفق والمزاج السرديّ، الكثير من الهدوء المحيط وإنارة شبه مشتعلة بالأصفر، فالإضاءات البيضاء تثير مزاجي للأسْوأ وتقلبه نحو الارتباك وهاتفٌ صامت/أخرس ومقلوبٌ على قَفاه لا يَهزّهُ اتصال يحملُ خبراً يقلبُ السكون لـ تساؤلات تعبر بي من ضفّتي لـمزيد من التشتّت.قطعةُ لُبان أصيلة تُحرقُ على مهلها في مجمرة، تكثّف الفكرة، وتُعلي اللغة و تَحشدُ القلب.

لكن [واقعاً] من يتركُكَ لتمارس هذه البساطة من دون ركلات؟

يقول صديقي "المريد" الذي يُبادلني الحوارات كلما تشاركنا الضيق من هذه الرحلة؛ إنّ الصعوبات/ التحديات القَدَرية تأتي للناس وفق مدى سُموّ وعيهم وتفهّمهم لمعاني الإصابات في الروح والنفس والفكر، بمعنى أنه كلما زاد الوعي، صَعُبَتْ تحدياتنا أكثر [يال البؤس والتعب إذن].

فهل هذا الوعي، هو ما يفسّر انتباهي للتعلّم منذ الصغر؟

تعلمي الذاتي، فأنا لا أتذكر بأنني على الرغم من دخولي في عمر مبكر للمدرسة، بأنني احتجتُ لأخذ دروس خصوصية إضافية مثلاً، أو لا أتذكر بأن أمي قد خصّصت لي وقتاً لتدريسي كما كانت تفعل طويلاً مع أخي الأكبر، لعلّ مما تستدعي صور الذاكرة بأن أبي ولأنه نابه في العلوم، كان يعيد شرح المعادلات الرياضية المربكة، والتي تُعجزني دوماً بعد شرح أوليّ من معلمتي [الرياضيات علم جافّ لم يقنعني يوماً بأهميته ومنطقيته أبدا]، وكنتُ أتساءَل دائماً:ما الجَدوى من هكذا أرقام ورموز وحلّ صعوبات إيجاد الناتج النهائي منها بمزيدٍ من الأرقام والرموز؟!

كانت المواضيع الـ تُخاطب العَقل والمَنطق أكثر إقناعاً لي، كلّ ما كان ينطوي تحت حكاية وسرد يمسّد قلبي جيداً، دَرستها بفرحٍ واهتمامٍ عاليين، فيما بقيت خارج نطاق العلوم البحتة، والتحقتُ بما يشبهني/ بما يستميلني: "اللغة" كخطوة أولى في المرحلة الثانوية، الـتي تخصّصتُ خلالها في الإنكليزية والفرنسية على حدّ سواء، وأتعرّف [حينذاك] بشكل فرديّ عما يجاورهُما من حكايات ومعلومات وجذور الكلمات ومنشأها الأصيل.

منذ الصغر، لم يكن هناك الكثير مما يلهينا، فإما أن أنتظر الساعة لتلامسَ عقربَ الرابعة عصراً لأبدأ بمشاهدة التلفاز الذي يبتدئ بثّهُ متأخراً، بعد الانتهاء من مذاكرة دروسي وحدي، أو أمضي ساعة من العصر في ركوب دراجتي الصغيرة لأطوف حول بيوت الحيّ الساكن بحرارة الظهيرة، التي أستغرب الآن كيف لم تكن تُؤذينا؟ كما أنني كنت أقرأ قراءات حُرّة / متعددة حين تتمدّد الساعات بالفراغ.

هل تعلمون بأن المتعة الخالصة كانت في حِصَصِ "المُطالعة" المدرسية؟

هكذا كان اسمها الرسمي في وَقتنا [الثمانينيات]الصور المغبّشة بالذكريات الطيبة، الصور المعفّرة باللون البرتقالي، بالتقادم، ماذا أتذكر فور استدعاء المتعة/ المغامرة؟

تزور أنفي رائحة مكيّف الهواء البارد [التكييف كان ميزة أصيلة في المكتبة المدرسية لم تتوفر في الفصول المرهقة بحرارتها العالية في سنوات دراستنا التأسيسية]وتتمثّل أمامي ورود المفارش البيضاء النظيفة [المصنوعة من النايلون] التي تُغطي الطاولات الدائرية التي تحتمل خمس تلميذات قارئات، وقصص "المكتبة الخضراء" التي تُعرض علينا من أمينة المكتبة لنختار وفق ذائقتنا ثلاثة منها لقراءتها ونباشر تلخيصها في دفتر مجلّد باللون البنيّ الورقي خُطّ عليه "حصّة المطالعة"، من حينها تعلّمت التلخيص كتابة، والتلخيص فكرة والتلخيص رواية والتلخيص محاورة، بل وحتى التلخيص قرارات نهائية لا جدال فيها.

منذها [وحتى قراءتي الحالية للكتب] وأنا أُدوّن ملاحظات مختزلة على طرف الهوامش في كتبي، نعم! أكتب وبالحبر على المساحات الصغيرة الـ تحرس المتن لتدلّني سريعاً على ما قرأت، وهذا لا يجرحُ الكتب، بل يُحييها أكثر! يحميها من نسيان ما "أخبَرَتني" به متونها من دهشات، الكتب تُعطينا والنهلُ منها يرافقه شعور بالدفء، والكتابة على هوامشها الفارغة [ما فائدتها إذن؟] هي حوارات نديرها مع كتّابها في الواقع [لن يجرحني أن يدوّن قرّائي ملاحظاتهم على المساحات الصغيرة الفارغة على أطراف رواياتي وكتبي] .

لنعود للثمانينيات، ففيها كان يوم الأربعاء يوماً مقدّساً [بالنسبة إليّ]، فهو اليوم الدراسي الأخير، ليأتي الخميس بعده بنصف دوام، فنرجع للبيت مُبكرين،

•

وحينها تبدأ عطلتنا الأسبوعية، وهو يومي المقدّس، لأن بابا وقبل عودته من وظيفته للبيت، يمرّ في زيارته الأسبوعية المُلزمة لـ مكتبة الأحمدي Kuwait Bookshop ليعود لنا بحزْمةِ مبهجاتٍ ورقيةٍ، كيسٌ رماديّ منتفخٌ باللذائذ، "مجلة ماجد" لي شخصياً وعددها الجديد الذي يصدر كلّ أربعاء طازجاً، عدد من المجلات الأجنبية في الاقتصاد والسياسة له، ومجلتان لماما هما "روز اليوسف" و "صباح الخير"، ومجلةٌ صغيرةٌ اسمها "المختار" كنتُ أقرؤها بشغف غريب، علمتُ لاحقاً في التسعينيات حينما تخصّصت في الثانوية في اللغة الإنكليزية بأنها النسخة العربية المترجمة لأهم ما يَرِدُ في مجلة أمريكية اسمها "Readers Digest "، المجلة الأمريكية العائلية المحتوى والتي تصدر آنذاك لعشر مرات في السنة، وقد بدأتُ قراءتها في اللغة الأصلية إبان دراستي الثانوية لتعزيز لغتي الأجنبية.

لم يغِبْ كيسُ المبهجات الورقية منذ الثمانينات وحتى التسعينيات إلاّ سبعةَ أشهر [الاحتلال العراقي]، بل صارت أحد أهم مفرحاتي الأسبوعية كلّ أربعاء، لكن هذه اللذة انقطعت لمرّة جديدة دائمة خلال فترة الجامعة، فقد كبرنا وصارت اهتماماتنا مختلفة، كما أننا في [١٩٩٥]كنا قد تركنا "مدينة النفط" / الأحمدي واقتربنا لقلب العاصمة، ثم في الجامعة بدأت رحلة عبر الزمان والمكان والأشخاص، وأمنيات لم تمضِ بحسب المراد، ومجابهات طويلة مع ما كان مفترضاً وما حدث بالفعل، صراع بين ثقافات تجمّعت تحت مساحة علمية متنوعة، كلٌ يحملُ حقيبة الاختلاف ولا يَصِلُ لمبتغاه في يُسر كان يظنه، لكنها كانت فعلاً المرحلة التي وضعتني على "سِكّة السلامة الأولى" في الوعي وهيأتني لأول الاحتراق النافع [الملموس النتائج].

15

في الأربعين أطلّ من التلّة البعيدة، فماذا كسبتُ وماذا فقدتْ؟

نلتُ صداقاتٍ كثيرةٍ، وخضتُ صراعات واسعة، وكثير ما اشْتبكَ هذا بذاك، ولكن كيف؟

الأوغاد في حياتي كُثرٌ.

توزّعوا على مفصّلات العُشريات الثلاث الماضية بلا رأفة.

كان معظمهم اخْتباري الخاص على قدرة تحمّلي وأغلبهم لم يكونوا سوى الطريق الوّعر الذي تطلب مني أن أسلكه بأقل خسائر في الروح، غير أني "قتلتهم" في داخلي/ضميري بقلبٍ مرتاح ومن دون مشاعر حانقة، هكذا تمّ الأمر بسلام، وقد انتهيت منهم واحداً واحدا، كل منهم في وقت مغادرته المناسب [بفرحٍ غامر].

أوغادُ حياتي لم ينتهوا بعد [بالطبع] وربما كان هناك المزيد منهم ينتظر فرصته للدخول لحياتي هذه [ولو من بعيد، وهؤلاء أتعس الأنواع]، لكن لأخبركم عمّن مرّوا بي، من عبروا كان بعضهم مُرّاً في التعامل ولم تطل فترة تواصلنا، فقد "بَقَ بَحْصَة" الكراهية فَوْر اقترابه/ اقترابها، وانتهى سريعاً من حياتي إلى غير رحمه.

بعضهم تقطّعت به السبل [سُبُلَهُ الشخصية] وتلهّى بنتاجِ حماقاته وغاب رغماً عن الدنيا، والبعض نال منه الحقد الكبير حتى غمر جهازه العقلي وتخبط في اختياراته الحياتية حتى تبدّلت أهواؤه، وما عاد يتعرّف عليّ [بفضل من الله ورعايته].

بينما هناك من كان وصوله لدائرتي الشخصية مثل الرسالة النبوية، لأسبابٍ ربّانية تخصني، ومنه تعلّمت الصبر والتأمل والصمت والردّ والحقيقة وإعادة النظر والتبصّر والتفكّر وقولُ لاءاتٍ كثيرةٍ بسهولة تامة، كلها عَزّزت في روحي المزيد من التعافي، كلّ من آذاني جاء لأسبابٍ معينة تخدمني في واقعها مهما بَدا الأمر سيئاً، والبقية منهم مُعَلقّ [معظمهم] بحبال ذاوية تنتظر تفرّغي لقطعها وفرز الجمال من القبح، وهذا ميزة صارت ملازمة لي أمارسها أسرع من ذي قبل! [لأني آمنت بها جيداً] لكني لسبب لا أعرفه أجد ضالة الصداقة الحقّة في من هم أكبر مني سناً.

أغلب أصدقائي من الجنسين هم ممن يتجاوز سنّهم عمري الحقيقي بـ ما يزيد عن عشر وعشرين وثلاثين سنة أحياناً، ومعهم تصفو الساعات وتتلوّن الحوارات وتبتهج النفس وتلتقي الأرواح من بعد غياب في الزمن، نعيد وصل الكلام وكأننا توقفنا عند اللحظة ذاتها منذ لا أتذكر متى! لكن سلسلة التعارف ليست جديدة حتماً، لعلّنا الْتقينا في بقعة وزمن سابقين من هذا الكون اللامُنتهي في الذهاب والعودة الرحيمة [سنواتنا الروحية الأصيلة منذ التخلّق الأول].

هذا ما يفسر دوماً سرعة تعرفنا وشغفنا بالاقتراب من الآخَر البعيد في الواقع، آخَر لم تجتمع به إلاّ لدقائق عابرة لكنها جاءت في وقتها الأكيد، الوقت المدوّن على "لوحنا المحفوظ"، اللوح الذي لا يشبه بأيّ شكل من الأشكال

ما لقّنتنا إياه "أبلة نجاة" معلّمة الدين في الابتدائية، لكنه لوح أكثر سُمواً ورأفة وفيه اكتشافات عالية الروحانية تدهشنا.

فالأصدقاء ليسوا ممن يشبهوننا فيما نفعل، وإنما أصدقائي هم أبطال في هذا العالم المتخم بالوجع.

صديقتي الحلّاقة [نورا]، التي تعمل لأكثر من ثمانِ ساعات وهي مبتسمة من قلبها حين نتقابل ونتبادل أحاديثنا بينما تعيد تقصير شعري وتقليم أظافري، صديقي الخياط [شاهِدْ]، الذي لا ينفك يسأل عن سبب غيابي وقلقه من سوءٍ قد يكون أصابني ويظل يعدني بأنه سينهي تفصيل طلبي في أقرب فرصة ولا يفي أبدا، صديقي صاحب المحمصة [حجّي جواد]، الذي تسحره عبارة "عمّي شلونِك؟" فيضع كفّه المعروقة بالتعب على صدرِه امتناناً يقفزُ من عينيه نحوي ويزيد مقدار البنّ المطحون عما طلبت بأوقيةِ محبّة، صديقتي البائعة في المخبز [إيلينا]، التي تخرج من وراء الساتر الخشبي لتضمني لصدرها سلاماً واشتياقاً بينما تدسّ قطعة من حلوى في كيس الخبز على سبيل الوداد، صديقي عامل الغاز الأشيب الذي ألوّح له من "بلكونة" الدور الأخير في البناية وينتبه لخيالي باسماً لانعكاس الشمس في عينيه ومن طفولتي، فيرسل بقنّينة غاز ممتلئة بالرضا والشكر وتبادل الطيبة مع "حارس عمارتنا/أبو إبراهيم"، صديقي دكتوري [دكتور هشام]، الذي على غير العادة نتبادل فيما بيننا مواضيع في الثقافة والسياسة وبعض الطُرَف العابرة قبل الخضوع للكشف وقياس ضغط الدم العالي أبداً بالتفكير! صديقي صبيّ القهوة في مكان وظيفتي [زاهد]، الذي يُصبّح عليّ بإنكليزيته البدائية ويستبدل الـ "غوذموزنينغ" بـ "ثانك يو" [على أنها صباح الخير] ويبهجني أنه يحاول توزيع محبّته مهما كانت خطأً، صديقي

[حجي كاظم] الذي يُلمّع سيارتي شهرياً و تسعده جداً تصبيحتي اليومية عليه، فيدعو لي من منتصف قلبه دعاءً خالصاً بالستر والراحة بلهجته الحنونة .

أصدقائي [في الواقع] أكثر عدداً مما تتخيلون، أوسع تنوّعاً مما تظنون.

أصدقائي ينقسمون على فئتين، تلك [التي ذكرتها] فئة أحترمها جداً، والفئة الثانية هم من أطلق عليهم "رفقاء الروح"، هم كذلك فعلاً، فليس الصديق الذي لا يلمس قلبك، لكنه فقط من تربطك مفصلات الدنيا به لأنك تتشارك معه مراحلك قسراً، أصدقائي [غالباً] ما يعيشون في أبعد بقعة من هذه الأرض، أصدقائي بعيدون/منتشرون في الشمال والغرب، متوزعة أرواحهم في دول الله، بعيدون زمنياً، ويتقلّب الليل والنهار بيننا تباعاً وليس سهلاً علينا الإمساك بباقة الاشتياق متى ما أردنا، لكنهم في منتصف القلب وفي لبِّ الشعور والتواصل القلبي، لأنهم رفقاء للروح.

الرفيق هو الصديق الحق وهو ليس كأيّ عابر، وهو من "تقدح" بينكما في اللقاء الأول "شرارة" الخفقة والحب؛ الحب يصنع اللقاء المطوّل/ الممتزج بكلّ الجنون والآه والضحكات المفضية لدمع كثيف باستمرار الحياة [حيواتكما/ حيواتكم]، الرفيق هو من يغيب عنك فيرتبك قلبك وتصله ذبذبات قلقك عليه تخاطراً فيجيبك من دون أن تتصل [كم مرة حدث ذلك] لتتقمّص محبتكما وتصمد أمام هزّات الوجع حولكم .

16

جهادنا كان حين التقينا [رفيق عمري وأنا] إذ لم تكُن الدربُ مهيأة أبداً لكي نَمضي في توقعاتنا بسلام.

عثرات القدر وأكثرها من البشر كانت توتّر الاقتراب المشروع [الـ يستلزم أن يوافق عليه المجتمع كله]، لكننا كنا قد كتبنا عقدنا الخاص، عقد الرفقة الأولى والقبول إذ تحققت "شرارة" الخَفْقة التي ستصنع اللقاء المطوّل وتحميه وتباركه، في ذلك الحين [٢٠٠٧] كنت قد اتخذتُ القلم صديقاً، وتخلّصت من بؤس "صداقات مشوّهة" أطالت الأيام الساكنة بالكثير من الخَيْبات وما كنت منتبهة، لأنهم تحديداً من كانوا وراء الركض شبه الثابت الذي كنت أمارسه وكأنني في مضمار لا ينتهي، وبلا خطُّ نهاية يُحدّد الوصول [وحين انتبهتُ..تحرّرت سريعاً] تركتُهم عبر وضع نقطة صغيرة في آخر العلاقة من دون تَتِّي للمُختبِئ وراء الفكرة، ما كنتُ قادرة على هدر المزيد من الحياة بكل ما ينتظرني وأشعر به، فحين تشعر بتشابه الأيام حتى أضحت يوماً واحداً غاية في الطول تنتبه جيداً لحالة المُوات العَميق الـ تَسْكنك رغم الحراك الذي تُمارسه يومياً [مثل مُولَد لا يُتعبه تقديم عمره الافتراضي وقوداً] ولا ينتهي.

تبعتُ حَدْسي، والقراءة الفاحصة لخطوطِ فنجاني التي أوّلَتها تلك الغريبة / القريبة حتى أشارت لي:

"هناك من كانت تَسحبُكِ من شَعرِكِ نحوها بعيداً عن حياتك القادمة، لكن يظهر الآن لي بأنكِ قصصتِ جذر ظفيرتك الـ تَشِدُكِ منها"! أومأتُ لها بنصف ابتسامة متعبة بالدهشة وكاملة بالانتصار، أردفَتْ وقد زفَرَتْ حيرتها ارتياحاً: حسناً فعلتِ.. حسناً فعلت.

وهكذا كان، قصصت الخيوط الـ "عقّدتها" تفاصيل الحياة أكثر، وكأنّ القدر كان قد تحالف مع رغبتي بالترك والتخلي وكانت السبيل مفتوحة أمامي كـ جنة مُرحّبة، ومنذها تعلّمت أنه حين يضيقُ عليك صديق مثل بنطالٍ قديم، تخلّص منه ببساطة تامة.

سُئلتُ ذات مرة: وكيف يضيق علينا الصديق؟!

حين يَحشُر نفسَهُ بينكَ وبين تفاصيلك، حين يُعيد تأويل تصرُّفاتك التي كان يُحبها بتآمريّة غريبة، حين تَتسرّب الغيرة إليه مما أنتَ فيه من فَرَحات صغيرة، فيفقد السيطرة على انفعالاته ويبدأ معكَ بـ "السّغبَلةِ" الكلامية اللاإرادية بحقٍ لا مُبرّر له ومع غيركَ عنك! وحين يُعيق المبهجات عن وصولها إليك في الخفاء، ثم يحتضنك "مواسياً" متألماً كذباً، حين يتذرّع بالبرد، أو الحرّ مثلاً، فلا يرافقك في النزهات التي اعتدتم عليها، لكنك تكتشف بأنه أمضى الليل "البارد/الحار" مع رفيق آخر في مكان آخر، وحين يبدأ بالصمت خلال حديث مشترك وفي عينيه كوْن من تساؤلات قبيحة / فاضحة بلا طعم [تفتعل عدم انتباهك لها]، وحين تبدأ الكراهية "تنزّ" من أهدابه نحو آرائك؛ اخلعه فوراً ولا تنتظر، اتركه ولا تلتفت حيث كنت معه / حيث كان ملاصقاً لك.

وصدقاً ستفتح لك الحياة أبواباً من ملذّات ورغبات وأمنيات.

فـ هو/ هي كالثقل الذي يُغلّقُ انطلاقك نحو مصيرك الموعود/ الأجمل.

أردف السائل: لكن الوداد الذي كان سينقلب لكراهية؟

[الذي كان قد كان] ومن كرهك بينما أنت له الرفيق لسنوات، سيفعل حتى إن أنت اخترت التخلي عنه لأجله/ لأجل الأيام الـ كانت تجمعكما، سيكرهك لأنه تحوّل، لأنه ما عاد هو/هي، بل أنت ما عدت تعرفه وتتعرف إليه/إليها، ستُمرضه/ تمرضها الكراهية وستعرف أنت ذلك [وربما تبتئس لما حلّ به]!

لقد تعلّمت الكثير من الأوغاد في حياتي، فشكراً لسوء سلوكهم الفاضح للحقيقي بدواخلهم، تعلمت بأن من يكرهني لأي سبب يصرّ على مصاحبة أصدقائي في محاولات يائسة للتلصّص الفاشل على حياتي، بعضهم يرسل طلبات الاعتراف / البكاء البارد عبر حجر الدردشات الإلكترونية مع أصدقائي، يكفّر عن شروره في مواسم العواء حين يقرص قلبه / ها فقدي الحقيقي، يشكون لهم التخلي الذي مارسته ضدّهم [دوماً أنا المتهمة بالتّرْك]، ولا يعترفون حتى لأنفسهم بحماقاتهم البادئة بالأذى والجرح.

بعضهم يَفْجُرون في خُصوماتهم، ويعتقدون بأنهم قد سمّموا حيواتنا عبر "عَضّات" مباغتة نثرت ترياقها في الخفاء والعلن وآذتنا، كأن يدلقون بشاعاتهم البدائية في محاولات رخيصة للأذى، لكنني أُبشّرهم بأنهم عبر تلك العَضّات الخبيثة، إنما يحجزون لرؤوسهم [مكان الخطط السوداء] مَقعداً أكيداً في جحيم الضياع / الجُذام / ألْزهايمر / الخرَفْ [يتخذ الضياع أي مرض حقيقيّ في وقت القَصاص]، فـ"الكارما" [الجزاء] في هكذا اقترافات تكون عاجلة ولا تؤجّلْ لحياةٍ جديدة، فتهانينا لكلّ من مارَس سوء النوايا تنفيذاً وفعلاً، واعتقدَ واهِماً بأن الانتقام سلوك يُفْضي إلى الراحة.

مع ذلك، أعذرهم جميعاً [أُمارس الغفران دوماً والتجاوز]، أعذرُ الأوغاد في حياتي جداً، فـ أحيانا يضطرّ أحدهم بسبب خوفه / رعبه من شخص ما إلى التودّد له والتقرُّب منه. الانصهار في كلّ تفاصيله والحُلم طويلاً بأن يكون "هو/صورته" بشكل ما. رغم ذلك، لي حاسّة ربّانية تكشف لي الضحكات المزيّفة بالنوايا المبيّتة بالكراهية [حتى ولو تأخّرت في اتخاذ القرار بالابتعاد]. فأنا أعرفكُم [تَصِلني ذبذباتكم المزعجة]، لذا أتجنّبكم ولا أراكم، أتركُكم في رثاء غير معلن، تُقرِص قلوبكم وتوجعكم أجنابكم كلما مرّ اسمي في حضوركم [فالمشكلة تخصّكُم].

كنتُ قد قرّرت ألاّ أقترف خطيئة ترك نفسي عُرْضة للعابرين معظم الوقت، فمارست التأمل طويلاً حينذاك، عالجت أوجاعي بغرابة تامة أثارت المحيطين [قرأتُ في مجالات تمسّد الروح وتُعلّيها] جعلتْ مني امرأة تقترب من القوة، فعلت الكثير من أفعال الانْعِتاق، كان الشعور بالخِفّة من الداخل هو ترياقي الذي أحسنتُ استخدامه و انتصرت، تعلّمت بأن "الله" راعٍ لي، فلا يعوزني أي شيء [كانت هذه صلاتي ومازالت].

لكن هل تعرفون لماذا نمرضُ عادة بعد اتخاذنا لقراراتٍ كبيرة؟

يحرقُ معظمنا سنواته عبر التمسّك/ التعلق بـ ماضٍ لا يعني له إلاّ المزيد من ضغوطات القلب والسقوط في الخطأ.نحن في الواقع نتعلّق في فكرة، آراء بدائية، نبرع في تعطيل الرأي والروح والجسد عن البحث والتكوّن، التعلّق هو تأجيج الفوضى الداخلية والخارجية، وهو الخوف، وليس أسوأ من الخوف لأنه هو ما يَمْسَخُ الإنسان لآخر متوحّش ومُتْلَف من كلّ جانب!

لو أننا نمارس الإنصات للداخل أكثر؛ لماتَ الشر.

والداخل يعني محبّة الله وإشاراته [هي ليست وَسْوسة شيطان أبداً]، لكن من يجرؤ على "القفز" بعيداً عن ملوّثا.ت البشر لاكتشافات قد تكون حارقة / خارقة للخوف، للإرث المتراكم بالثقل، من يجازف بالقفز من دون مظلّة واسعة وموثوقة اسمها المعرفة؟

الغبيّ هو فقط من يستمرّ في فقدان كلّ شيء ولا ينتبه، بينما يتمتّع "الواعي" في النهار والليل، بالصيف والشتاء، بالحياة والموت، بالفَقْد والكسب على حدّ سواء، فالتعاسة تتولّد من الارتباط بالأشياء والأماكن والناس، نحن [في إدمان] شبه دائم على التمسّك حتى بالمُؤذي [لأننا تعوّدناه فقط]، الحياة متحركة ومشاعرنا كذلك.

قال لي معلّمي في يوم كان ثقيلاً عليّ:

"حين يكون الغروب أمامك استمتعي به من دون أن تتعلّقي به، استمتعي بمنظره الذي لن يدوم طويلا".

انتزعتُ ابتسامة من تعبي بينما أنظر نحوه، أكمل: "انتظري النجوم بعده، منظر جميل آخر وجديد، حزننا على انتهاء منظر الغروب سيمنعنا عن التمتع بالنجوم".

وهذا ما كان .

نجمتان تمّ اللقاء بيننا [رفيقي وأنا]، فكيف لهذا اللقاء أن يتم من دون زوابع بشرية وكونية؟

هكذا كنا نردّد في كلّ وِداد خاص يتمّ بيننا، بينما تحرسنا تلك الشجرة في حديقتنا السرية.

لم تخيفني يوماً [منذ الْتقينا]فكرة أن أخسر رهاني مع الحياة ومع الحب. بل كنت على ثقة بأننا سنعيش معاً، سنكمل هذه الحياة سوياً، وبأن طريقنا سيلتقي [في نهاية الأمر]مهيّئاً بالورد و الآلام على حدّ سواء، فهذه [كارما] اللقاءات الصعبة / المتحقّقة باختبارات لا تنتهي فعلياً، ذاب المحيط المشحون بالكراهية نحونا وانهارت خطوط دفاعه [حِيَلْ حقده وخُطط الانتقام] و نجَوْنا، فكيف لا ينجو من يمارس "الحب" صلاة وقبلة أصيلة؟

ما تعلّمته بأن من "يكرهك" [يكره نفسه في الواقع ويمرضها]، فإنه يقرأ لك جيداً، ويبحث عنك / كتاباتك / أخبارك .. بشراهة المهووس بك، لكنه يمارس كلّ ذلك سراً [كما يظن]، فيرسل "جوكر" ما [وما أكثرهم]، لاقتناء إنتاجك، ويلتهم حروفك في غرفته وحيداً وهو يعيد تفسير ما وراء المعاني و يتوجّع. إنه لا يتوب، بل يرسل جواسيس مَرَضِه بك لمتابعتك على "صفحاتك التواصليّة" دورهم الوحيد الاحتفاظ بصور الكترونية مُقْتنصة مما تكتب، وتقاريرهم تصل جيداً، كاملة ربما، أو مجتزأة، وتكبر دوائر الكراهية نحوك، لأنه حين يُسألُ عنك يجيب:

من هذه؟ أنا لا أعرفها حتى.. لكنني أعرفُ كم هي مكروهة .. جدا.

أكتُبُ هذا الكلام /التشخيص وابتسم، هؤلاء ليسوا سوى نتاج خلل أخلاقيّ/روحانيّ، وصَلاتي موجّهة لإصلاحهم.

غيّبناهم [عامدين وباختيارنا] عن المشهد الـ ينتظر المحبة على بعد خطوتين ويكتمل وانشغلنا بمكمّلات البهجة والاكتشاف والترتيب القدريّ، وهكذا كان.

وأزهر إكليل الله المقدّس.

لم نخسر رهاننا في الواقع، بل انهارت دفاعات الكارهين، وغابوا عن المشهد كله إثر الفجيعة المنشغلة بنا، وهي خيار ربانيّ رحيم بتعبنا الطويل الذي استمر منذ الشرارة حين قُدِحَتْ [٢٠٠٧] حتى التوهّج النورانيّ بأول البهاء [٢٠١٠].

كان هناك ما يشبه الصّيحة في وادي الأنبياء، وَعْدَنا/ عَهدَنا المكلّل بالقُدسيّة :

"لن ينكسر الفرح ولن تَعطَب الجنة .. أعِدُكَ" .

الحب، يعني أن يتسبّب الطرفان لبعضيهما بـخَدَرٍ طفيفٍ في الصدر، خَدر هانئ ومريح، وأن تترافق السعادة وهذا الخَدر، كمثلِ قصيدة تُبقيكما في طيران على جناحيَ سلطنةٍ وآهةٍ متوازيتان، لا فرح يشقّ القلب تماماً ولا وجع يشقّ الصدر تماماً، أن يجد كلاً منكما الآخر في همّ المحافظة على نَصاعة العالم عبر القصائد والغناء والسفر وكثير.. كثير من الجهاد والاحتراق.

كنتُ أغنّي حزني وامتناني فهل يُقبل غنائي؟

لم نكن غرباء تلك الليلة [٢٠٠٧]. يوم نضج التوت في قلبي، كنت أنتظر الهَمْس المفتاح من رفيقي.

كنتُ في مساء برقت فيه العيون بوضوح، دَسَّتْ كَفُّهُ الدفينة بالثقة قُرصاً مُدَمَجاً كَتَبَ عليه بخطِّ يده وبلون أخضر، الاسم السحر : Frank Sinatra، مع ملحوظةٍ ناعمةٍ تستقرّ في زاوية الغلاف Track ٢ . تواَدَعْنا حتى لقاء بعدما أهداني بمحبتهِ العاليةِ التردّد وبكفّيه كمن يُقدّم قرباناً مقدّساً ذاك القُرص. تبَسَّمْتُ بفداحة لهذا الودّ الغامر. كنتُ في سيارتي متجهةً للبيت بعد يوم طال في الانشغال وتَخَفَّفَت ساعاته بتلك المحبّة الظاهرة/ الخفية. فقد كانت لا تزال العلاقة المطرّزة بالاهتمام والرأفة والخشية والاشتياق والتودّد عالقة بين الاستبشار وما قبل الفرح!

بعد كلّ لقاء مودّة، كان الطريق يستحيل بساتين من اللذائذ والهواء العابق بالعطر، عطر الليل الهادئ وكثير من السكون. وصلتُ لغرفتي البيضاء، أعدتُ تقليب القُرص المدّمَج بين يديّ بلطف. قفزتُ كما أشارت الملاحظة اليدوية لـ Track two، لتنطلق موسيقى استطعت تمييزها.. قليلاً، لتبدأ محبّة "فرانك سيناترا" النبي بـالأغنية السحر، يومها كانت هذه الكلمة المفتح/ التعويذة التي أنبتت اخضراراً في القلوب و بها وضع كل منّا آنية زهوره على شرفة الآخر بامتنان.

أن تُحب يعني أن تطلب من الكون حولك هدوء يليق بالاشتعال الجديد/ بالفكرة النيّرة/ بالعَطيّة الحميمة التي أنزلها الله لصدرك. أن تُحب يعني أن ترى الجمال في الزوايا المعتمة، في بكاء طفل يضيق بالحرارة، في شيخوخة عجوز أقعدته الآلام، في جُزُر البحر الحزين عَصراً وفي ازدحام السيارات الذي لا يُغتفر!

أن تُحب يعني أن تُكثر الضحكات بلا معنى محدّد وأن تجنّ بالرّعشات اللذيذات حين يمرّ بسمعك لحن مفعم بالآه، أن تُحب يعني أن يسكنك حزن مُحبّبٌ وأليف!

إننا حين اخترنا يوماً للعَقْد "المقدّس"، الذي جاهدنا فعلياً للوصول إليه / وصوله إلينا، هل كان مرسوماً له أن يكون هو نفسه يوم إعلان الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، وهو ذكرى اغتيال "جبران تويني"، وهو اليوم الذي أُحْرِق فيه "مارتن لوثر" مرسوماً كنسياً ينصّ على طرده من الرحمة عقاباً على معارضته لسلطة الكنيسة! وهو يوم إقرار اتفاقية مناهضة التعذيب في الأمم المتحدة، وهو يوم استلام "تشرشل" لجائزة الأدب، وهو يوم الدستور في "تايلاند"، وهو التاريخ المعاكس ليوم ميلادي، وهو تباشير انتهاء عام ودخول آخر، وهو قلب احتفالات الميلاد، وهو الرّكون من بعد التعب لقلبِ نصْفي الجميل الذي غابَ في الدنيا طويلاً، وهو الكون إذ يشرح لنا معنى اجتماع المعجزات وتحقّقها!

17

٢٠١٠ وما بعدها.

نحن نعيش انعزالاً خاصاً [اختيارياً] منذ ارتباطنا.

مُذ رَكَلْنا الدائرة الخانقة من الصداقات التي تيبّست بفعل الاعتياد/ الإصرار حول عُنُقَيْنا.

فضّلنا [وما نزال] عالمنا الخاص، الذي [كما يبدو لي] أنه مُسْتعصٍ على فهم الكثير ومُستهجَن حَدَّ لَيّ الشفاه امتعاضاً يضحكنا جداً. منعزلة أرواحنا في بيتنا، مكاننا الذي يراه "بعض الزوّار النُّدْرة" والمصمّم وفقاً للذائذ المغرية لمن يمارس الحياة ضمن المتطلبات الدُّنيا من التمنّي، فنحن نوعٌ من البشر قد لا تصادفونه كثيراً [لا يروق كثيراً للناس]، نوع يقتاتُ على أمل داخليّ بترقّب حدوث ما هو مبشّر وحقيقيّ وصادم بإيجابية، بيتنا الأخير هو الملاذ والملجأ والمكان "السريّ" الذي لا يعرفه إلاّ من هم "نُخبة النبلاء بالنسبة لنا"، البيت مَعْمل ملائم لممارسة الحياة كلها [قراءة وكتابة ونقاشاً وتفكيراً ومشاهدة واستماعاً واسترخاء وتأملاً و ...]، فلماذا تهربون للخارج لمواجهة القَرَفْ؟

القَرَفُ الخارجيّ كثير، ومتعدّد ..

أحياناً على هيئة بشر من فَصيل مجروحة أيامهم بالفراغ والرغبة في كلّ شيء، أو على هيئة استهلاك ملوّن بالحاجات اللامنتهية، وأحياناً مغلّف بفعل/ نشاط كتب عليه "ثقافة"! [كنا] لا نُفوّت ندوة/ عرضاً / أمسية/ مسرحاً، أو عزفاً موسيقياً، لكننا في كل مرّة نمضي للعروض بأكبر قدر من التوقّعات والآمال، لنخرج من منتصف العرض متذمّرة أرواحنا من ضياع وقتنا في متابعة أرباع المثقفين ممن تجرّؤا على نشر فشلهم على الناس.

يضيع منا الوقت في هكذا حفلات تروّج للتفاهة والتصفيق والمنافع، ولا تُضيف [لنا] شيئا.

يضيع منا الوقت لأننا نحتاجه للكتابة، فنحن في الواقع نكتب كل الوقت، حتى وإن لم يكُن بالتدوين، فنحن نكتب ذهنياً بينما نراقب الكون/ الناس/ الأخبار/الطقس/الابتسامات والفواجع. نكتبُ لأننا نخشى أن تَضيع المُخيلة، أن تموت الحكايات ولا يَسردها أحد، يُرعبنا أن يَفيق القرّاء المُخْلِصةِ اختيارانهم يوماً ولا يجدون مخزونهم من مبهجات العقل!

باختصار، منذ [٢٠١٠] ونحن نسير باتجاهنا الخاص.

بماذا أعدُك يا رفيقي؟

أُطمئِنُ قلبك وأخبرك لمرة جديدة بأن "يَدي على كتِفك" دائماً، نمضي سوياً في الطريق، ولن نهتم إلاّ للحَقّ، فهل من عهد آخر أكثر طمأنينة؟كلّ عام ونحن نقترف الحب والاكتشاف والتعلّم معاً يا متكأ روحي.

هل أخبرتك يا نصفي العظيم بأن السماء منذ [٢٠٠٧]كان قد تبدّل لونها نحو اللازَرْوَرد؟ وبأني صرتُ أتلقى رسائل مباشرة من الله الجميل دوناً عن كلّ

البشر؟ وبأن هناك قوّة عظمى قد حرّكت الغيم الأسود لتظهر الحقيقة النبيلة وتنثر عليها بَتْلات ورد أحمر مخمليّة الهوى لم يُخْلق مثلها في البلاد؟ رباطنا ابتدأ حين هطلت رَحَمات الله في الأرض الغريبة التي طبْطبَت على حرّياتنا وقالت:

"أمديكُما جنوناً لا يخبو"، فانطلقنا نذرعُ ساعات البهجات نوراً واكتشافا.

منذ [٢٠٠٧] ونحن نَسْقي قنديل محبّتنا عطراً، وبهذا عهدنا يمضي.

نامت الدهشات العتيقة في مكامنها، لأن أهم الأشياء كانت قد تغيرت بالنسبة لي/ لنا، صار ما يُمتعنا مُختلفاً، بل وغريباً لدى البعض، البعض الكثير.. البعض الأغلب! [لا يهم]، بل أن حتى فكرة الوجود وأسراره المختبئة، ومعاني الإيمان والمُعتَقد والتحوّلات الكبيرة التي أفرزتها القراءة كفعلِ حفْرٍ مستمر، كل العلامات التي تركَتْ آثارها علينا جعلتنا [في نظر حتى أهلنا] نُشكّل تهديداً /خطراً/ بُعْبُعاً للآخر [الذي ينوي الاقتراب بشدّة ويَهاب جداً] والآخر مسكين [ولتُطلقوا عليه ما شئتم من الأسماء]، فكيف بالله عليكم في مجتمعات يُشْقِمها "الدين" وحُرّاسه يمكننا أن نمارس "الحياة" على حقيقتها من دون وَجَع؟ عن أي المواضيع يمكننا التحدّث؟ ومع من؟ نحن نحيا [ويا للكارما] في ديار خُلعت عنها "خيمتها" على عجل وقصْقَصَتْ جَدائلها واستعارتْ لُغات ليست لها لتوهِمنا في تَمَدّنِها؟ كلهم بارعون في الحديث عن ذاك الفرح الآت في نهاية "الممر"، الممرّ الطويل الذي لا أراه إلاّ "أسطورةً مُهدّئةً"، بينما هُمْ [ومُخدّرهم وأفيونهم] كلّ أسباب البلاءات والخَضّات والفَقْد. نحن أسرى الانتظار الذي يتخلّله استفهام كثير نبحث عنه في الكتب، ومليون تساؤل وسؤال لكنه عاجز عن النمو حتى على أول الحنجرة ولا يتمدّد لينطلق، بل دائماً

[وراقبوا أنفسكم] دوماً ما يُبَلَّعُ مع كأس ماء لا يرويكم، وتتناسونه عبر الانشغال بالمعتاد/اليومي/ المعيش، ولا يُسْتَهجَن.

نقول لكم الكثير في الحياة وفي السّرد، تصريحاً أكثر منه تلميحاً، لأننا وببساطة لا نخاف.

إن الخوف مفردة الضائِعَةِ بُوصلَاتهم بالتوقّعات التي لا تتحق، فحين كنّا صغاراً لم يكن [كما يشاع دائماً] الخوف من يسيطر علينا بكثافة سيطرته حينما نكبر في الواقع.. حين نتقدّم في العمر قليلاً.. وأكثر، يزداد خيالنا خصوبة وجنوناً، ويصير التوقّع مندفعاً باطراد غريب كلما تقدمنا بالسنوات.

الآن، وأنا في الأربعين صرتُ أتفهّم معنى القلق المخلوق على مقاسات أمي، ذاك الوحش الغافي بعيون نصف مفتوحة معها كل الوقت، القلق كائن يشبه الظل، فهو يغطي ظهرك ولا تراه لكنك تشعره وتفهم مراده ويؤذيك بملاحقته لك، القلق مسبّب الخوف، وهما صديقا أمي مُذ تعرّفتُ عليها بحضنها الأول لي. يا إلهي.. كم أفكر بعينيها المشتعلتين ارتباكاً وترقباً يقرّب المأساة دوماً ويُبعد السلامة!

حتى ارتبط رَسْم كلمة "قلق/خوف" بصورةِ عينيها الضائعتين في الشقاء المنتظر [بالنسبة إليّ] .

أمي يرتفع سقف هلعها حين نناديها بلهفة، فتَحنق علينا إثر بعثنا للخوف في قلبها [من دون قصد]، ترتعب لأنها سمعت [خطأً] أحدنا يضحك بصوتٍ أقرب للشهقة العالية الـ تصِلُها توجعاً! لماذا؟ لأنها لم تصادق إلاّ الخوف المكرّس للقلق.

متى تعاظم الشعور بالخوف كـ غول كبير نما على حين صَدْمة؟

حين باغتتنا "القبّعات العسكرية الحمراء"؟ لا .. بل كانت هذه اللطمة في آخر مقياس الخوف والتشبّع منه.

بل، منذ سنوات كنت فيها أُطْرَى من أن أبتلع مفردات لها روائح البارود و كراهة المعنى الكامن وراء القتل والموت، والمؤامرات وشهقات التعجّب ومعنى أن يقف "وطنك" على رجلٍ واحدةٍ وأنتَ تراقب بعينين صغيرتين جداً ما يرتبكُ حولك ويَجْرحُ الاعتياد على الحياة والفرح والألوان، ويحيل كلّ شيء للون موحّد بالرمادي، باللاوضوح.

كان غامضاً جداً [إلى أن كَبرت] ما لوّث خَدَّ سنوات التفتّح والتلقي [رغماً عنّا] من مشاهدة/ مراقبة والنهل من مواقف أهلنا/ المجتمع و الأخبار والأغنيات، جرعات [مُسمّمة في الواقع] من تأييد حتى الموت للعراق مثلاً، و حَقْنِ كراهية حتى المرض لعدو العراق آنذاك؛ إيران مثلاً.

نشأتُ كفتاةٍ صغيرة تُحسن الْتقاط المشاعر وما ورائها خلال الثمانينيات [يا للأسى]، هو عُمر التفتح الأول "صادف" [وليس هناك مصادفة] أن تكون الحرب الإيرانية العراقية على أشدّها، وفي الكابوس المذكور كنت في دائرة الأحاديث اليومية التي تتكلم بالطبع عن الحرب، وتلك مفردة مُبهمة [بالنسبة لطفلةٍ مثلي] لكنها سيئة طالما ارتبطتْ بقلق يسكُن عيون أمي بشدّة وتأملات طويلة من أبي بعد نشرات الأخبار اليتيمة [تلفزيون الكويت الرسمي وتلفزيون العراق] كنا نسمع من جهة واحدة [ليست محايدة]، كنا نَسمع/نُصدّق الطرف العراقي/الكويتي، لأن الكويت كانت أقوى الأطراف الداعمة لأطول الحروب الإقليمية في القرن العشرين، والتي نشبت بين العراق وإيران [١٩٨٠]، حربٌ

تابعناها بنصفِ عَين وبنصف ضمير وبكثيرٍ من الدعاء السلبيّ على الجانب المُغيّب عنا، بحيث لا يتنبّه أهلك إلى أنهم يُعبّئون قلوباً طريّة لأطفال لم تتجاوز أعمارهم العشريّة الأولى، بكراهةٍ عاليةٍ قد تُمرضهم/تمرضنا!

قد لا نختلف على أن العراق [آنذاك] قد أطلق دعاياته الرسمية [التي ليس أبرءُ منه فيها] حول اتهامات لإيران بقصف بلدات حدودية وخلافات مُستهلكة بالضّغينة [تدور مثلها بشكل دائم بين الكويت والعراق] حول "شطّ العرب": جالِب الخَيْبات و"الرَّدَى".

كنتُ بطفولتي التي تقتات على السؤال وتتابع ردود الأفعال في أسرتي الصغيرة، لم أعرف من الجانب الآخر [إيران] سوى الصورة المكرّرة الملفّقة للكراهية التي لم أعرف منشأها إلاّ متأخراً، لم يكن خياراً لأطفال كُنّاهُم. سنوات ثمانية مستمرة طحنت الأرض والسماء [تلك الحرب]، خدعات كبيرة بالحب والكراهية، بالتأييد والرفض، بالمساعدات والشجب، بالغناء تحبّباً ونصراً حكومياً وشعبياً بـ "هَلَا بسيفْ العَرَب" و "صقر الشَمْتِيَة الـ ما يتْعَبْ" ودعوات بالموت والحرق والفناء لصاحب العمامة السوداء، الذي تظهر صوره ضمن رسومات الكاريكاتير في صُحفنا كلّ يوم وعبارات لصيقة كلها أذى وبشاعة [فليسامح الله طفولتنا المؤدلجَة بالجهل] علمتُ بأن اسمه "الخميني"، صديقة أمي القريبة جداً تدعوه "الإمام" خلال حديثهن، بينما تلتزم أمي الصمت وتكتفي بالدعاء لكي ينجو الناس من الحرب، كانت الكويت تنال الكثير من الأذى خلال هذا الجنون، فمهاجمة السفن الكويتية واختطاف الطائرة وتفجيرات متفرّقة في البلد لم يكن شيئاً عبثياً على الإطلاق، الكويت داعمة كانت جداً، دَفعت بكل ما لدينا من طاقات للحب والكراهية على حد

سواء، لكن لماذا؟!

ماذا يمكن لدولة صغيرة كلها خير أن تَجْن من "الانْحشار" بكلِّ هذه القوة [موقف عالي الصوت] بين دولتين مجنونتين بالعظمة؟! صغيرة كنت ولا أدري سبب القلق الذي يلبس ملامح أمي كلما تابعت أخبار الحرب في الثماني سنوات المطحونة بالبارود [وكأن الأمر لأسباب تخصّها وحدها]. كنت أرى بعض التفاصيل على الشاشات الرسمية، لكن الأخبار حين ترد من مكانها لها وقع مختلف و.. أكثر إيلاما.

هل كان ليمرّ هذا المَيَلان الواضح جهة الشمال بلا رصاصات، أو خوازيق؟

أين يا ترى "تتَشَغْلق" ذاكرتي البصرية الـ تسبق مفرداتي آنذاك؟

نَحلُق أبي وأمي حول التلفزيون، أربع كلمات تتردّد: "محاولة اغتيال مَوْكب العُوْد[1] "، بينما الحواجب معقودة على الخوف والقلق، هذا ما كان يظهر لي من ملامح أمي وأبي. كنت صغيرة جداً [١٩٨٥] طفلة معقودة شرائطها البيضاء في الثالث الابتدائي بعينين تائهتين بالكلمات الأربع الغريبة وخوف الكبار يشلّ ساعة اللعب المعتادة!

"ماما ... شنو في"؟! وبين كفّي اليمنى قطع من الحلوى بنكهة الفاكهة تذوب.

(١) «العُوْد» كلمة يطلقها الكويتيون على الكبير سناً أو مقاماً، هنا جاءت في سياق الحديث عن «حاكم الكويت» آنذاك خلال واقعة محاولة اغتيال أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح عام ١٩٨٥ وهي محاولة اغتيال فشلت عندما كان في طريقه للذهاب إلى قصر السيف - مقر الحكم - وكانت هذه المحاولة عن طريق سيارة مفخّخة.

أمي تردّ عليّ بـ "لا ندري حتى الآن، خلِّينا نشوف ونسمع يا ماما!" ويدها اليمنى تؤشّر بأمر السكوت.

تعود عيناي للشاشة الصغيرة، تُقطع الأغنية بمنتصفها، ويظهر "بابا جابر" بهيئةٍ لم نعتدها، شيئان لافتان؛ كان مرتدياً "الغترة البيضاء" من دون عقال أسود، وبالنسبة لي كان هذا ظهوراً غريباً، و كذلك جروح محمرّة على جانب وجهه وصوته خفيض يُطمئن "شعبه/نحن" بأنه بخير وأنه نجَا من كمينٍ قاتل لولا "عناية الله".

"نْشِقْ تِشِقْ" متكررة كردّ فعلٍ من ماما تبدي أساها على وضعه المفاجئ، ومزيد من الخوف مما هو آت يقبع بين عينيها.

بابا مُنصتاً ناظراً صوب "الشيخ جابر" بهيئته التي ما اعتدناها، رأسه يُحلّل اللقطات والكلمات ولا يَقول شيئاً جلسته متأهّبة للمزيد، وفي كفّي اليُمنى ثلاث قطع من الحلوى دَبَقتا بالانتظار والترقّب والكثير من القلق غير المفسّر لسنواتي الصغيرة جداً. كل ما أتذكره بأنني بقيت مُحملقة في جُروح وجه "بابا جابر"، ومتألمة لتغيير وجهه ووسامته في تلك اللحظة، كنت أفكر جدياً فيما لو كان موجوعاً من هذا الاحْمِرار الواضح أمامنا على الشاشة.

"مَسْكين".. أطلقتُ من فمي.

نظرات مواسية من أبي وأمي في اللحظة ذاتها، ولا أدري لم قلتها.

إنني مذ فتحتُ عينيّ على هذه الأرض بكل الانتباه الذي يقودني من منتصف رأسي، لم أتلقّ أيّة جُرعة [ولو بالتلميح] إلى أننا أسرة تتملّق إلى السلطة أو الأسرة الحاكمة، لم يحدُث أبداً، مثلاً، أن عَلّقنا صورة لـ حاكم في بيتنا

[كما كان يفعل كثيرون وهذا من حقّهم]. وقبالة ذلك، لم يحدث أن انْتُقِدَ أي منهم ولو بالإشارة أو اللمز، كان أبي منذ تفتحنا الأول [حتى الآن] يُؤكد فينا وعبر سلوكه العادي مبدأ أشدّ عَظمة وأكثر قداسة، وهو الشّعور العميق بالانتماء لهذه الأرض/ أرضنا/ بلدنا / وطننا، الذي هو أقصى اهتماماته وحرصه الأول.

ففي الأعْياد الوطنية "الدوريّة" التي تُحيي ذكرى الاستقلال [قبل هُبوب وَجَع الشمال]، وأتحدث هنا عن سنوات العَشْرية الأولى، كنا نتعاون في تَعْليق/ رَفْع أعلام الكويت على مدخل بيتنا وفي فصولنا الدراسية، ونتابع الكرنفالات على القنوات المحلية ككل أسرة كويتية لا تُفوّت فرصة الفرح والامتنان لهذه الأرض التي رَعَتْنا وما تزال.

لكن ذاكرتي طريّة بأحداث تواترت بلا رأفة، طعنات خناجر تافهة لكنها كانت على تماسٍّ مع طفولتي ودهشتي لسبب هام، وهو أننا وبعد أيام قليلة من واقعة محاولة الاغتيال [مايو ١٩٨٥] دَخَلت مُشرفة الفصل لتجْمَع كراريس إحدى زميلاتنا التي تغيّبت عن الفصل منذ حدوث المحاولة، و لأن سنواتنا اليافعة تمنعنا من التحليل والربط واتخاذ موقف كاره، سألناها ببراءة: أين زميلتنا "فـــ"...؟ أخبرتْنا بصوتٍ صارمٍ وكفّيها تَقْبضان على كَراريس الزميلة تمهيداً "لاقتلاعها" من بيننا:

"هي ما عادت معكم بعد الآن، انتقلت"!

عدتُ إلى البيت وفي عَينيّ مَنظر كرسيها الفارغ منذ أيام، أخبرتُ أمي بأن صديقتنا "فـــ..." ما عادت معنا، انتقلت، كما أخبرتنا المعلّمة و "جمعوا كراريسها"!

علَقت أمي استغراباً: "من ينتقل في أواخر السنة الدراسية وقبل الامتحانات؟!"

رفعتُ كتفيّ بدلالة الـ لا أدري.

استدركتْ سريعا وسألتني: "ما نهاية اسمها؟!"

نطقتُ: "صادِق".

هزّت أمي رأسها وزمّت شفتيها تأثراً لم أفهمه، ومساءً تبادلت حديثاً هامساً مع أبي [كان يصلني واضحاً] حول الزميلة التي انتقلت، سألته هي: "كيف؟ يُبعدون من الكويت؟!"

أوْمَأ لها بــ "نعم.. أظن ذلك".

مرارة تكاثرت في فمي بعدما استحضرت الجروح في وجه "بابا جابر" ...

والمرارة لم تتوقف!

تكاثَفَتْ بعد شهرين بإرهابٍ جَديد طال "المقاهي الشعبية"[1]، ثم "اختطاف الطائرة"[2]، ثم سلسلة من المؤذيات المتناثرة في قلب مدينة الكويت، ومدن النفط، والشوارع الفرعية بدلالاتها عبر عمليات فردية تورّطت فيها أسماء كثيرة من أبناء البلد ومن خارجه، وصولاً إلى "درّة تاج الشوك والأذى"، فكان الاحتلال العراقي للكويت، يوم باغتتنا "القبعات

---

(١) تفجيرات المقاهي الشعبية ١٩٨٥، هي حادثة تفجير مقهيَيْن شعبيَّين في مدينة الكويت في ١١ يوليو عام ١٩٨٥، نتج عنه مقتل١١ شخص و٩٨ جريح.

(٢) اختطاف الطائرة الكويتية «الجابرية»، هي واقعة اختطاف طائرة تم في يوم ٥ أبريل عام ١٩٨٨ حين كانت طائرة الخطوط الجوية الكويتية رحلة رقم ٤٢٢ تحلق في الأجواء العُمانية متجهة إلى الكويت قادمة من مطار بانكوك في تايلاند.

العسكرية الحمراء"، بل كانت هذه اللطمة في آخر مقياس الخوف والتشبّع منه [بالنسبة إليّ]!

بينما كنت أدوّن هذه الكلمات، لا أدري من أي الزوايا في رأسي قفزت أغنية اشتهرت بعد تحرير الكويت غنّاها "عبد الله الرويشد"، باللهجة المصرية؛ كتبها له الشاعر "الأبنودي" تقول:

"يا كويتنا الحبيبة.. عودي من غيابك، دِي القَدَم الغريبة هِرْبِت من ترابك"

وجدتني أشهق بكاءً طازجاً مع "عودي من غيابك"، الكويت غابت حقاً منذ أغسطس ١٩٩٠، ولا أدري حقيقة إن كانت عادت أم ظلّت في غيابها!

يوم "نَجونا" بحبّنا لهذه الأرض، أظنني استنزفت كلّ المخزون الحقيقيّ من الشعور بالخوف/القلق، الذي وُلِدَ معي. ومنذها وأنا أتعامل بالعقل والمنطق وانا يفترض مع كلّ "المُرعبات" المفترضة في حياتي. مبكراً تجاوزت القلق الـ يعمي الأرواح عن قول الحقيقة، وشَقَقتُ لنفسي درباً [خالياً تقريباً] متفرّداً، طريقاً لا "أستوحشه" [أبداً] لقلّة سالِكيه، بل أنني كلما أمعنت في الوحدة؛ تكثّف لديّ الشعور بـ الصواب وشكله وحاستي لـ"شَمْشَمة" بوادر الخطأ تتعقّد وتنمو وتتحقق.

18

منذ [٢٠١٢] وشعور يتسرّب لي بوضوح بأن الناس صارت تَتَجَنّبني.

لا عَجب من ذلك طبعاً، فبعدَ ما كتبتُ/صَرّحتُ به في إصداري [أفتحُ قوساً وأغلِقَهُ][1] حتماً جعل الجميع يعيد النظر في كيفية ممارسة علاقاتهم الإنسانية معي، قُل هو الخوف من أن تبرز مخالبي الكتابية من جديد وقد أتناولهم فيما أسرد! لكني [وأنا أُصدِقكم الوِداد والمُصراحة] بأن تفضيلكم بالانسحاب والابتعاد فراسخ عني لَهُوَ الشعور المأمول منذ تعرّفت بالأشباه ممن يدورون في "حلبة الثقافة" الغائمة المواقف والمنتجات التي شوّهت ـ وما تزال ـ التاريخ الوطني للإبداع إلاّ ما نَدر.

سلوكهم الذي عاشرته /اقتربت منه في الـ ٢٠٠٠ تحديداً ونَفَرتُ مِنهُ على مُشارف الـ ٢٠٠٧ تقريباً، كل ما عُرض خلال السنوات السبع من أفلام واقعية الأبطال وسيّئة المادة لا تُصَدّق لو رُوِيَتْ في مجلدات؛ جَعلني أعيد برمجة فكرة الثقافة التي ينادي بها "مُتسابقو الحلبة الثقافية"، بل جعلني أُعيد التأمّل/ التحقّق في تاريخ "الإبداع" على هذه الأرض [التاريخ المدوّن في الكتب الوثائقية، والبحوث التي تحمل توقيعات بعض من متسابقي حلبة الثقافة] لأنني رأيت بوضوح وبأفعال مضارعة آنذاك كيف كانوا يمارسون "الحياة الثقافية"،

(١) سَرد ذاتي صادر عن "دار العين – القاهرة" في ٢٠١٢

بل وكيف يُكتب عنهم!

لقد كانوا [وما يزالون طبعاً] أشبه بفيلم فاشل مُدجّج/مُفتعل بالحكايات الخُرافية التي ليست من النوع الذي يتركنا "نمط" غير مقتنعة أرواحنا بما جاء فيها من خداع، بل تُعيد دهن الخرافة الأصلية بالأسود وتُغبنها بالعبثية والدُجل.

لكن: هل كنت لأستمرّ بقبول كل تلك الادعاءات والتزوير/التزويق الذي مارسه من قبلهم "مهرّجو وماسِحو بلاط الملوك"، بالاقتراب قفزاً والاستئناس مدحاً لعقول/ قلوب الراشدة أخلاقهم؟ لا... لأننا فهمنا.

وطوينا صفحات كلها "تبييض/ تنصيع" لتاريخ معفّر بالضغائن الصغيرة والكبيرة، واعتمدنا على المشاهدة الحية، وقياس ردّات الفعل، والمواقف الدائرة وقراءة الآراء عبر الإبداع، وعدا ذلك سوف يمضي كل شيء في مهب التيار.

19

في صيف [٢٠٠٠]

يوم رافقني أبي لدار النشر أول مرة، ليطبع لي [مَحبةً/تشجيعاً] أول سَردياتي "عَبَثْ"(١)، وبعد اللقاء الأول مع أصحاب دار النشر، قيل لي [شفاهة] سَطراً واحداً اختزل كل شيء لاحقاً [كانت شرارة الضوء لما اكتشفته فيما بعد] قال لي من سَبقني خبرة و تعاملاً مع الكتّاب من الكويت: "يا بنتي، لو يحرسك الله من نزاعات المثقّفين في الكويت، ستتمكنين من شقّ طريقك بهدوء وثقة وتميز، راقبيهم جيداً وستعرفين ما أعني".

يومها، ربَتُّ على قلبي، وهمست: أنا مستعدة.

لذا، لم استغرب كل الحروب التي مُورست ضدّ تفتّحي الأول، حينما دخلت إلى العالم الساحر/ الساخر للسّرد، وكنت بعد عدد من الإصدارات قد فهمت تماماً بأني أقدّم شيئاً مختلفاً / أعني حقيقياً، لذلك فهو يثير رعبهم لاستمراره، كلهم ظنّوا خطأً هامسين في آذان بعضهم "ستكون من أصحاب العمل الواحد"، لكن الوعي بالذات ولو على أطراف الحلم هو الغيمة التي تقودني لزوايا البذل والمزيد من التكوّن المفضي لسطوع جديد، وهذا هو الهدف من عبورنا في هذه الحياة؛ نحن الآن هنا منذورة أرواحنا بالموهبة، نشارك الكون عطايا الله سرداً،

(١) إصداري الأول، قصص قصيرة صادر عن "دار قرطاس - الكويت" العام ٢٠٠٠

عطاياه ليست حكراً علينا، سردنا/إبداعنا لافتة صغيرة مضيئة تحمل ثلاث كلمات : "نحن هنا للمساعدة"، فمن يمكنه أن يوقف محبة الله التي يبذرها في خَلقِهِ؟ نحن حين نكتب، فإننا ننحت عطاءً، نحن لا نتنافس إلاّ بالمساعدة. أما الجوائز يا رفقاء القلم/ العقل ليست سوى خديعة كبرى، الثواب دائماً "فخ" مزركشة تفاصيله لاستمالة "الحيوان الأناني" الأصيل فينا، العطايا [بدءاً من الثواب المقدس وانتهاءًا بـــ تكريمات الأدب أو قلّته، لا فرق] كلها تعني قبول الوقوع في الشَّرَك، الانصياع.

في صباح كان مشرقاً جداً بالشمس الحارقة الـ تشرق مبكراً، شمس الكويت الـ تُحسن الحَرْق، وخلال طابور المدرسة في نهايات يونيو [١٩٨٨]، انطلق اسمي ثلاثياً بشكل باغَتَ سكوني الداخلي، وعلى مَسْمَعِ التلميذات والمعلمات في المدرسة [آنذاك]، لتعلن الأخِصائية الاجتماعية حصولي على جائزة ما، لأنني [كما فهمت] كنت التلميذة الوحيدة التي دوّنت الإجابة الصحيحة على سؤال كان قد وُزِّعَ ورقياً خلال حِصص المطالعة في المكتبة، إذ كان السؤال يقول: ما هو جمع كلمة إمبراطور؟

استُدعيتُ لتسلُّم "الجائزة" التي جعلت الناظرة تنتبه إليّ جيداً وتمسك بكتفي في محبة غريبة، نظرة من يفتخر ويندهش بالمنجز ويغار ويختنق في الوقت ذاته [تغار لأن لديها ٥ بنات موزّعات في المراحل كلها واستأثرن لسنوات متتالية بالمراكز الأولى في الفصول.. ولم يعترض سِواي] كنتُ أتقدَم بذهول وسط تصفيقات الأكف الصغيرة لزميلاتي، المسافة بين مكان اصطفافي في الطابور حتى وصولي لمكان التكريم مسافة زمنية غريبة، كانت مساحة مبهمة في تلك اللحظة، مكان تعامد مع الفراغ، واتسع كالضياع وضاق عليّ كالحيرة!

وحين سُئلتُ عن إجابتي عبر مكبّر الصوت، أجبتُ بصوت مُستخفٍّ بالفكرة وبالاحتفاء وبالتكريم وبمدعاة الجائزة:

"أباطِرة" [نَفثتُها من فمي وكأنني في رهان عما سيكون بعدها]، فهل كانت الجائزة تلك نبوءة لآتٍ ما كنتُ مستعدّة له؟ قلم حبر منقوش بالأحمر والأبيض، والمدهش فيه أنه كان يحوي في جوفه شريطاً ورقياً ملتفّاً ومهيّئاً للقَطْع، للكتابة عليه.

يومها؛ تنامت بداخلي الدهشة من المعاني الكامنة وراء الفوز والجوائز. استعدتُ فوراً عيون الناظرة وهي تستقبلني على منصة التكريم، ماذا كانت تقول؟ [قرأتُها بإمعان]، عيونها قالت؛ هذا ردّي على تمرّدك وإشاعة التذمّر قبل أيام لأن بناتي الخمس هن الأول في فصولهن دائماً.

ولأخبركم بشيء كان قد أطلق شرارة الـ لا منذ تلك السنوات.

درستُ في مدرسةٍ مشتركة، بمعنى أنها تحوي مرحلتين [ابتدائية ومتوسطة]، كان مقدّراً لي أن أمضي ٦ سنوات فيها [أمضيت أول سنتين في ابتدائية أخرى] حتى أنتقل لأخرى جديدة تعليمها ثانوي، فهل كان مكتوباً عليّ كذلك أن أتأرجح ما بين المركزين "الرابع أو الخامس" من التفوّق على مستوى الفصل [فقط] لأنّ ناظرة المدرسة كانت قد وَزّعت على مراحل المدرسة بَناتها /تعاوينها/ تمائمها لتنال كل منهن المركز المتفوق "الأول" [دائماً] في كل الفصول؟

كان الأمر أشبه بالـ "كوتا"، بنت الناظرة الأولى دائماً، وابنة الوكيلة الثانية بلا نقاش، وابنة المعلمة الثالثة طبعاً، لتؤثّث أمانينا على التنافس بالمراكز الرابعة أو الخامسة بما يتناسب و طموحات بسيطة!

الجارح للطفولة آنذاك هو مساومتك على المركز الذي تتم "تَرْسِيَتُك" عليه، لأننا كنا ننتقل ناجحين لفصل أعلى "سوياً" وهذا ما جعلني انتفض في يوم توزيع شهادات نهاية الفصل الدراسي في وقت حصة "الألعاب" [قبل تغييرها للرياضة البدنية] صِحْتُ بصوت عالٍ وتردَدَ صوتي بالصدى في صالة اللعب: "علاماتنا التي نحرزها واحدة، فلماذا هي الأولى دائماً، ما الذي يميزها عَدا أمها التي توظّفها الدولة كـ ناظرة تجلس كل الوقت في مكتب مكيّف بالهواء البارد و تشرب عصيراً طازجاً وتحرق البخور.. "؟!

كنت قد تمكنتُ من حشدِ عدد من أصوات الطالبات الزاعقة بالرفض للظلم، والتي سالت من عيونهن دموع الاحساس بالإجحاف، تدخّلَتْ "الأخصائية الاجتماعية" في محاولة لتهدئة الأمور وتبرير الموقف، خصوصاً بعد نهر الدمع الذي ذرفته زميلتنا "ابنة الناظرة" [الأولى] ولا أدري حتى اللحظة ما سبب بكائها في تلك الزوبعة المطالبة بالحق، عَدا أنني لامست منطقة الأمان لديها، إذ لم يجرؤ أحد يوماً على التعرّض لها/ الاعتراض عليها.

فهل أعدّت "ستّ الناظرة" فيلماً قصيراً [مُفتعلاً] لـرأب الصدْع الذي أثارته هذه القصيرة اللئيمة [أنا] يوم توزيع الشهادات في المتوسطة، عبر تكريمي وحيدةً فريدةً على مرأى من الطالبات في يوم من آخر أيام الفصل الدراسي يفتقر حتى لبرنامج الإذاعة؟ حين أعدتُ التفكير، فقدتُ شغفي بالمشهد دفعة واحدة، كان ضوءاً حارقاً جعلني "أُسطورة" المدرسة لأسبوعين متصلين [هما أسبوعيّ الاختبارات] من العام [١٩٨٨]، فهل يا ترى كانت تلك تؤامة شعورية لما حدث في [٢٠٠٧]، مساء وقفتُ على منصة القول أتْلُو كلمتي على العيون المتحلّقة على مسقط الضوء المباغت لمرة جديدة؟ حين ضاع طعم اللحظة

الإبداعية يوم استحالت الابتسامات المُصَوَّبة نحوي علامات تحذيرية عاكسة، فما معنى أن أُكرّم [من دون أن أتقدّم للجائزة]، هل لأنني بذلت جهداً طيباً في تقديم عملي الإبداعي للقرّاء؟! [هل كان ذلك رأي القرّاء فعلاً لأنني نلت جائزة شخصية تحمل اسم صاحبها، الذي احتار [في الواقع] واضطر لتقديم جائزته لي أنا في دورتها الثانية]؟ وماذا عن لجنة التحكيم؟

نحن نحترف الكتابة، نحترق في الكتابة، فعلى ماذا يتم الاحتفاء بما نكتب؟ [بعدها فهمت:أنهم يحتفون بمن يكتب مادام لطيفاً ولا يزعق بالحق]. نحن منذورة أقلامنا لمدّ يَدِ العَون بالفكرة، ولأن نَرفع القلق والخوف والارتباك والحزن عن أقصاه، ليتحوّل مسار التفكير نحو حياة معانيها.. أكثر.

أن تحترف، يعني أن تشعر بالخفَّة والتحرّر [من كلّ شيء تستميلها رغباتك]، و "المال، العطايا" تقلّ بغيض، كنتُ ليلتها أقرأ/ أتلو كلمتي على الحضور الذي "نافَق" وحضر بكثافة ما كنتُ أراها في "أمسياتي السّردية" قبلاً، وجوه لا أعرفها لكنها حتماً تعرف "صاحب الجائزة/ العَطيّة"، الحضور الذي غَمرته البهجة الحقيقية [ربما] وفي داخلي صوت يخبرني بما يجب أن يكون بعد هذا الانهمار المفاجئ والمثقل بالزيف، استلمت "المادة/ الهدية/ العطيّة"، وفي أول نهار لاحق كنت قد أعطيتها لمحتاج غريب، حينها فقط عاودتني الخفّة، وغاب صدى صوت التصفيق والتبريكات المرصّعة بالنِّفاق التي دبّقت روحي في الليلة السابقة، مزّقتُ ورقَة "الكلمة" التي ألقيتها، لأنّ ما جاء فيها لم يعد يشبهني!

اغتسلتُ بماء الوعي الصافي، احتفظتُ فقط بـ مجسّم التكريم لأنه نحت أصيل لفنان[1] أفتخر به دوماً، اكتشفت بأني أحب الحياة حين تهديني فرحاً معتدلاً، و أتقن حينها المحافظة على شكل الابتسامة وطعمها ومكانها، نحن العالقة أنفسنا على الطرف من كل شيء، شبعنا مبكراً [يفترض أن نكون] من كل ما يبرق ليلفت انتباه لا مبالاتنا، ويصرفنا عن فعل النموّ والترقي والتخلي والاكتفاء.

(١) درع الجائزة منحوتة للفنان الكويتي ـ العالمي/ سامي محمد.

20

متى اكتفيت؟

مُذ التقينا في حديقتنا السرية، نصفي الجميل وأنا.

بينما كنا قد جعلنا من "الدنيا" كلها تحالفا لــ لقاءنا، وبينما كنا نَعْبُر عَدّاد الثلاثين من سَنواتنا وما جاورها من رزانة وبُعد رؤية إلهية تأتي للمَمْهورة جِباههم بالتكليف لحمل شُعلة الدّليل، و"مُعلمي" يقول دوماً، بأن الجلوس في الطبيعة يجعل "الاعترافات" سهلة وأكثر انسيابية ومن منبعها الأولي/ الطاهر / الأصيل في قلبينا.

في "حديقتنا السرية" التي كانت مكان لقاءاتنا المتكرّرة / المتوارية عن عيون المتطفلة أرواحهم بالسؤال المحموم بالأوجاع، وفي ظل شجرة النَّبْق الواسعة الـ فَيْ، الــ تعيد تنقية هواء الله لتملأ رئتينا به حتى في عزّ صيف الكويت الحارق، نمدّ فرشتنا الملوّنة بفرح اللقاء الداعي لكثير من الحوارات، نمدّها لتحتوي ارتياحنا وأوراقنا التي نمضي الوقت المسروق ببهجة اكتشاف بعضنا عبر قراءتها بصوت عالٍ يرفع منسوب الثقة ويكسبها روحاً لا تُرى لكنها رغم ذلك تنمو على طمأنينة وارتياح.. تناقشنا طويلاً في معنى أن يكتب البعض من أجل التكسّب والضوء الكثيف، بينما ليس في "نصوصه ما ينتفع به [فقد بدأ منذ ٢٠٠٧ غربال التّصفيات من جانبنا لكل أولئك المتلطخة أرواحهم بما

لا يشبهنا]، تذكرنا سوياً تلك الأسطورة القديمة التي تقول:

"إما أن تكون فقيراً وحقيقياً، أو أن تكون غنياً وسلعة رائجة ترفع لافتة الثمن [القيمة] على روحك"، فإن أي معادلة تحاول الربط بين القيمة الأدبية بالمال هي محاولة ساقطة/خادعة/مضلّلة، فالموهبة لا يمكن بأي حال قياسها/وزنها بالمال، كما لا يمكن شراؤها، فهي في لغة اللاهوت (نِعمة وفَضل) تنبثق من ذات مكتملة/ ممتلئة [روح تمت مجازاتها بإعطائها هذا النور الربّانيّ الذي لا يُهدى إلاّ بعد معاناة طويلة واحتراقات في الحيوات]، فالقدر الإلهي حين يهديك/يهدينا ميّزة وعطيّة هي مكافأتك القدسية بعد عناد عقائديّ ملتبس/ سابق/ بعيد ومُنْهِك.

فأن تكتب / تكتنب وأن تمشي حافياً في طريق طويل مغطّى بالوَحَل والوحشة لأنك فقط تبحث [وآخرين لا تعرفهم] عن خلاصنا بإيجاد "الحياة" التي نريدها، أن تنسج خلال رحلتك الحافية على الطريق، كلاماً مُقنِعاً لغيرك يجعله يعيد الانتباه للتفاصيل الـ سرقتها طاحونة كل دورة اختبار/ حياة.

كنت قد استخدمت مصطلحاً منذ زمن بعيد، يُفيد بأن "المبدع"، هو ليس سوى (مُحارب وحيد) وفي هذا النصّ الحر، فأنا بالتأكيد أعني [المبدع الحقيقي صاحب الرسالة والهدف الأصيل الذي لا تهزّه المخاوف ولا يهاب الكتابة بصوت عال]، فعلينا أن نتفق على هذا المفهوم أولاً كي لا يربّت كل منكم على قلبه، بينما يشير عقله بمؤشرات الطمأنينة الكاذبة بـ أنا هو/ أنا هي!

قلت هو (محارب وحيد) فعلاً.

فهو بالإضافة إلى أدواره الأصعب [كما أراها] في التأمل والتفكير والبحث وإعمال معاولِهِ للنبش فيما يثيره وما سيكون [وكأننا الملامين دوماً والمسئولين

حتماً في تجهيز الحاضر والمستقبل وتخفيف الماضي للبشرية] عبر نصّ وفكرة / سَرد / شعر/ مسرح / فيلم وموسيقى.. نقدّم منتجاتنا الذهنية للمتلقي وكل أولئك ممن لا نعرفهم في الواقع، فإن أتعس ما يمكننا تحمله هو ما أُسميه بشخصيات هائمة تدور حولنا رغماً عنا، هم "ظلال المبدعين" أو "هوائم المثقفين"!فهذه [العَوالق البشرية] تنقسم على اثنين في العادة [كما أراهم بوضوح وبانتشار مخيف]، هم ممن لم تبلغ موهبة المبدع، بل ويجاهد بكل ما يحمله من "أنزيمات" الكراهية والسُّميّة في جسده لإطفاء وهْجَكَ الذي يثير تحسّساً عالياً في روحه، ولا يرهقه ولا يثنيه رادع، بل حتى لو تطلّب الأمر أن يدفع من ماله الخاص لمن يُجيدون النموّ في بِرك الصحافة الآسنة [الخبراتهم البعيدة في نتف بَتْلات الزهور النامية حديثاً]، و(الظلال/الهوائم) يطمحون كثيراً بالطيران كـ مبدعين/والطموح لم يكن كل شيء بالنسبة إليهم، فكلنا [الأنا بشر] نطمع في مرحلة ما من حيواتنا [ما لم ننزع شوكنا وتنظّف] بامتلاك كل متع الدنيا والآخرة وما بينهما في الوقت نفسه!

لكنهم [تحديداً وصِدْقاً] بماذا يحلمون؟

تحلم الـ "ظلال" كثيراً بالاقتراب من المبدعين [كخطوةٍ أولى] ويُعاملوننا كـ مشاهير الرُخص الفني حين يَخرج أحدهم على المسارح المفتوحة بالساحات [حفلات كراسي البلاستيك واللباس "الكاجوال"] وينهار بعدها مراهقو الحب المستحيل لنيل لمسة حنان منهم/ منا، أو توقيع مَيت بالجمود والافتعال!

"ظلال المبدعين" أجنحتهم؛ ناقصة النمو، وهكذا دوماً يشعرون، وهو ما يوتّرهم جداً، شعورهم يُشابه الأنثى الـ عاندتها أظافرها في التكوّن لأن جسمها

بنقصه كالسيوم كدافع لنموّها، هم يفتقدون "مَصْل" الإبداع في أرواحهم، وغيوم سماواتهم عقيمة لا تنجب تفرّدا.

بينما لا يعرفون حقاً بأنهم [في أحيان كثيرة بالنسبة لي] مُثار حَسَدِنا لأنهم في مَأمنٍ من هذا الجهاد وهذا الضياع وهذا الحَفر، المؤلمة تبعاته، فمن لا يركب سكّة الندامة/ سكّة الكتابة، يعني بأن يداه لم تتلطخان لا بالحبر ولا بالدم!

إنهم من الناجية أيامهم، فلا يغرقون بعميق السواد، فنحن نغطس في أيام أطول مما تحتمل أرواحنا الحرة في كبسولة ضيق مبهمة البداية والأسباب [ربما لفكرة واحدة عصيّة على الفتق، أو القبول، أو النموّ بتفاصيلها] نعيش أيامنا بحقائب ثقيلة بالذكرى، نهذي مع أنفسنا بما ننشغل/ يعتمل في قلوبنا/ تتبدّل كيميائية أجسادنا، وكم يمرضنا إنتاج كتاب!

ومع ذلك، لا يكتفي "الظل" بالقراءة والاستمتاع [إنْ كان ما نكتبه ممتعاً فعلاً] والتأمل والاستفادة بما أجهدنا لتعطيه من أمان [حتى ولو كان مزيفاً] عبر حكاية أو غيرها، فيظل "الظل" ومن شاكله [وما أكثرهم بالمناسبة إذ تتجاوز أعدادهم أعدادنا بمراحل وهذا مفجع في الواقع] ينقصّى الضوء كأشباح باردة الفعل، يجهد ليستخدمك للوصول لقُرصِ شمس يراه مستديراً هناك، ويغريه جداً أن يلمسه.

لكن كيف؟

عبر ادعاءات مبتذلة يَحْكيها/ يُحيكُها كـ نتاج كل حياته القِرائيّة من كتابين لا أكثر، لعلّه مرّ بهما حين كان مراهقاً، ولمّا حفظ العبارات المُسْتلبة من صفحات مزخرفة أطرافها باللاجدوى، ونالت في حينها وعلى غفلةٍ من الصدف

[ومن أصحابها] شهرتها الخائبة وقد نقلوا إليها مُراءَهم تحت بريق رخيص!

"ظل المبدع" كائنٌ متلوّن.

يحبّك [أو يدّعي ذلك] لسبب ويكرهك لأسبـ ب.

يحمل هويته النكرة التي تؤرّقه/ هويته المرتعبة في عمقها كل الوقت خشية صعودك أكثر، وحين تَحْدثُ المعجزات لَك، فإنه يتحوّل لكائن بغيض أكثر، بأظافر معقوفة بالسم، وينفث كلاماً مقعَراً/ متفذلكاً/ معاقاً لغوياً وممزوجاً بالعتاب الغريب!

"... لو أنك لم تكتب هذه العبارة ... شعرتها لا تخدم النصّ"، ويُحدّثك [بلا خجل] عن النصّ و"التبئير"، وعن "إشكالية وضع المصطلح" وعن "الاغتراب اللغوي"، وعن مصطلحات النقد السيميائي. وينتهي [ولا ينتهي واقعاً] برؤيته الشخصية للتّناص حتى لتظنّ أنك حَللت ضيفاً على "جيرار جينيت"(1) لأنه يستمرّ بإعطائك رشقاته الفكرية ليختمها بـ مشروعة الكتابيّ الخاص المؤجّل [فـ كلهم حين يقتربون منا يستحيلون أصحاب مواهب مدفونة تنتظر فرصة للتفرّغ والتفريغ] ومشروعه الذي الْتَمع [وهذه من مفرداتهم الأثيرة] في رأسه [المشغول أبداً في الدنيا] منذ خمس سنوات وأكثر، وليبدأ بعدها فيضان الشرح [الذي لا يعنيك أبداً ولا تودّه بتاتاً] كمن يسرد قصة آلامه على كرسي طبيب معالج سأله بداية بـ "خير إن شاء الله"؟

رباه! من المسئول يا ترى عن هكذا إرباك يمارسه هؤلاء "الظلال"؟

---

(1) الناقد السرديّ الفرنسي، أحد أقطاب النقد الأدبي في النصف الثاني من القرن العشرين. عُرف باشتغاله منذ الستينيات على الأجناس الفنية وجماليات علم السرد.

إرباك عميق للروح، لا ينقصنا قطعاً، فأرواحنا تغلي على موقد اقتناص الزمن والمزاج والتوافر النفسي للكتابة والاشتغال! كم من المرات هجم علينا الذنب من هذه الشاكلة الفقيرة إلى الله أولاً وإلى من ينصت إليها بمودَة واحترام لأنها [وحقيقة أقول] لا يمكن أن تُحتمل بأي شكل ولا صفة، أتراها ضريبة [من ضمن حزمة ضرائب] ما يفترض أن ندفعها كأن يُنتظر منك أن تكون بعيون من هم مسحورة أرواحهم بالهالة الشخصية لمن ينال الحظْوة من الله ليقدّم شيئاً نبيلاً للمحيط؟ كيف يمكننا ونحن [في نهاية الأمر بشر بجلود رقيقة جداً] يسهل كسرنا/تمزيقنا ولو بنظرة قلق/ استهجان/حنق أن نصمد في مواجهة انتفاخات وتقرّحات تحتاج وقتها كي تتوازن بين داخلها وخارجها عبر جلسات التنفيس الإنسانية هذه؟ يا لِعدد مرّات تأملي وسؤالي لنفسي: هل ينفصل أم يشتبك دورنا [في هكذا مواقف طالما تكرّرت] ككتاب نسعى لأن نقدّم وجبات محبة وأكاليل معروف فكرية/ذهنية ومعتقدات بلباسٍ جديد أكثر قبولاً للمجتمع، لكن من قال بأننا المسئولة أرواحهم عن الاحتضان النفسي للطامحة قلوبهم/ رغباتهم لتلامس ولو عابر لأكتاف حضور المبدعين؟

لكنني وللحقيقة أقول، صرتُ أتعامل مع الحالة بشكل مختلف، شكلٍ يبعث شيئاً من الراحة [بالنسبة إليّ على الأقل] فحين يتحدّث "الظل" يبدأ شعور يشبه الترنّح بداخلي، وأمعن النظر في تقاطيعه/هم، أبحث فيما يمكن أن يكون مفتاحاً لتحليل الدائرة في عقولهم، تلك العصارات الـ تغذي مراكز الانتباه والتفكير والكلام.

وخلال صمتي الطويل [الذي لا يعنيهم ولا يزعجهم] غارقين في الحديث عنهم [ذواتهم] مشاريعهم التي لم تأتِ/شذرات قراءاتهم المستلبة، اطلاعاتهم الأولية حدّ التكلّس. وصمتي الطويل يحيلني إلى "فأرة" هادئة بعيون شاخصة نحوه/هم، في مجرّة قَصِيّة من الوجود، أراقبهم، وحين التبصّر بما كان، أُجد بأن [الثقافة] هي أبْعد نقطة للممارسة يمكن أن تقدّمها تلك "الظلال"، هم يستمرؤون الظهور فقط بمظهر خاص، أعلى من الناس العادية، وأقل قليلاً من المبدعين، هم يشبهون [بالتأكيد] "تلك الصورة" الخدّاعة جداً، الخاطئة كثيراً عما يكونه [المبدع الحقيقي الذي اتفقنا عليه قبلا].

فالقهوة، مثلاً، هي مشروب الإدمان الإبداعيّ، مع سيجارة تَحترق/تُبتلع كل الوقت..شَعرٌ منكوش بلا رأفة وبوهيميّة سلوكية متواصلة، علاقات جنسية خارج الطريق ولا كابح لها، والليل؟ حارس الكحول ورغبات الضياع والبكاء والاعتراف والكلام الكثير الذي يطوف على هوامش الفهم والاستيعاب، ولا يعلَق بعدها شيء!

تلك الصورة المغبشة بالإساءة؛ ليسَتْ نحن.

هي تلفيق سينمائيّ فاشل ليس إلاّ، ومن يمارسها ليس سوى "ظلّ مثقف".

أمضيت وقتاً طويلاً في البحث عن إجابة لهذا السؤال؛ كيف لهكذا "ظلال سوداء" [تفرض ذواتها علينا كل الوقت] أن تمارس خنقها الشرير لخصوصياتنا أيضاً؟ هل أسْوء من أن تتلقى اتصالاً هاتفياً مبكراً من "ظل ما"، مبكراً للدرجة التي تفزعك، ليجيء صوته زافّاً البشرى بأنه "بصدد" كتابة رأيه النقديّ حول

رواية ما. لذا، عليّ الإنصات بكاملِ رغبتي لما رآى هُوَ وعبر الهاتف في هذه الساعة المبكرة من الوحشة؟

حقيقة في هكذا مواقف، أجد نفسي بشعور غامر بالأسف على ضياع سنوات "هكذا ظلال" بعضها لامست أعمارهم ما فوق النضوج باتجاه النضوب بمراحل، وبعضهم [مع ذلك] مازالوا يمارسون موتاً سلوكياً كل لحظة يفترض أن تكون غنيّة بالتعافي والانتباه. لا تنتهي حفلات الضيق، لكنها حتماً نتائج لتصفيق بعض المثقفين لمثل هؤلاء ممن طبعوا كتاباً يتيماً في سنة من الغفلة، وبقوا حتى سنوات لاحقة يرفعونه على رؤوسهم ويجوبون فيه الشوارع، أفواههم تصيح تسبيحاً لا يتوقف: "نحن كُتّاب وحق الله"!

تلك النماذج لا تنهي، بل يتوالد الكثير منها من رحم التخيّلات والتمنّيات الخاصة بهم، لكن أسوء "الظلال" أولئك الذين تصادفهم في مكان مشترك في الحضور، ممن تجمعكم الأماكن فيها طوعاً، هم من يمشون بقصة عرجاء واحدة تتغيّر هوامشها فقط بحسب المنصتين إليها في كل مرة، هم يحملون سلّة واحدة من الـ "حنق" الصوري [المفتعل]؛ أوجاع يطلقونها كي ينتبه إليهم المنشغلة قلوبهم بالفرح الطري و.. ينصتون.

هؤلاء يتصرفون بـ صبيانية لافتة لا تليق بمن جاوزوا مرحلة الزغب النابت للتو أسفل الأنف، مكشوفة نواياهم بوضوح المتواري خلف إصبعه، لكنهم [مهما صدّدتهم] لا يخجلون من التمادي لـــ "نيل حقّه فينا"، هو/هم يريدون أنصبتهم الفردية من "الكتّاب" وحواراتهم ونقاشاتهم معهم، فـ يقدّمون استعراضات الكلام ولا يقطعون سلسال "سَقَط الحديث" الدائر بالانتفاخ؛ فتروس الثرثرة تعمل مشتبكة بكل شيء لديهم بلا توقف.

في هكذا مواقف [وما أكثرها] ينتبه عقلي لتفاصيل "الظل" ومناوراته الخاسرة لفتح أفق [ممكن] لحديث "ثقافي" نهاري/ مسائي لا أخرج عادة منه بشيء، وهذا جد مؤلم.

هم لا يعون بأن النقاش العقلاني/الحقيقي لا يكون إلاّ مع من يلامس خيط الاشتغال الجاري [البسيط الذي لدينا] أو حينما يتجاوزك بوعيه بمراحل تجعلك مأخوذاً بحديثه الساحر/ السامي، عدا ذلك، فإن "الظلال" ومن على خُطاهم أتركهم للحياة وللطبيعة لتتكفلان بـ تهذيبهم، فالأحاديث الدائرة من جهة واحدة [جهتهم دائماً] تُضيّعُ ملامحهم الأصلية لأراهم بصورة واحدة تجمعهم، لباس مهرّج وأنف أحمر وكرش متهدّل و حركات بهلوانية لا تليق، فهؤلاء يتمترسون عادة وراء عُقدهم الأصيلة وكل أزمات الثقة التي مرّوا بها في حيواتهم، هم تعرفهم إذا ما حدّقوا في الفراغ وهم يبرمون أهداب عيونهم، ويلوّثوا محيطنا بالدخان الصاعد من رؤوسهم، يمارسون انتقالات "فصامية" عبر القفز من حديث شبه مستمر لآخر بعيد جداً [يترتب على ذلك دائماً تغيير مفاجئ في وضعيات الجلوس].

"ظلال المثقفين"، هم حلفاء الهُراء المتواصل بادعاء المعرفة التي تغيب عنّا دوماً، وبعبارة "هذا تقييمي للوضع الثقافي"، ولعلّ هذا سبب جوهري من أسباب نكبتنا الثقافية، نحن نعاني من حصار الدهماء، من نباحيّ الآفاق ممن يلتصقون بـــ مساعينا الفردية للفعل الإبداعي، ويكرهوننا جداً [لأسباب نفسية تخصهم]، لكنهم يعلنون صداقتنا للناس.

من أين لنا بأعصاب مقلوبة تحتمل هذا وتلك؟ نحن مخلوقات بأمزجةٍ لا تُفسّر حتى لنا، كبيوت العنكبوت، منسوجة من أناةٍ وتذوب في لحظات تكدُر، فالمزاجات المخترقة لا تتناسب والعمل الإبداعي الجاد، الـ يحتاج لـ صومعة توحُّد، مكتملة الشروط حتى آخرها على أقل تقدير.

نحن ننحشر بين دائرتين عملاقتين حين يطلق عليك مجتمعك لقب "مثقف"، مطلوب منك أن تبيّن مواقفك من الأشياء والأفكار والأحداث والبشر بحقيقية وصدق ونزاهة، كما أنه مطلوب منك تقديم منتجاتك الفكرية/ الإبداعية/ التنويرية لجمهورك المحب والمضاد على حدّ سواء.

الثقافة ليست أمنية!

الثقافة والفعل الإبداعيّ حروب نخوضها بأقل ما يمكن من الجروح والإصابات في الأرواح/الأبدان، فأن تكتب بصدق/بمبدأ/بجدية/باحتراف واستمرار تلك حرب شرسة ومُكلّفة، يعني أن تستعد دائماً للخسارات ولأن يبرز عرق ينبض كل الوقت في منتصف جبينك وأن تمرّن صوتك طويلاً لقول الحق بينما قلبك دافئ باليقين، وجيوبك خالية من الفائدة، وسجّلك الإنساني [الأخلاقي] بياضه أصيل، وأن تَعرف إلى أين تَمضي بين كل هذه الوَساخات المحيطة والتحوّلات المقيتة وأنت ما تزال مبتسماً، بينما تتمتم: سبحان مغيّر الأحوال.

وقد يساورك شكٌ كثير حتى في تمتمتك.

أن تنتبه.. أن تستحيل مخلوقاً من انتباه.

لا تغفل عن خيانات المبادئ، تحالفات ما تحت وأعلى الطاولات، نمرايا التي لا تعكس لنا إلاّ الجزء الظاهر منها، الولاءات التي تُشترى بـ "رنين النقود"، وأنت؟ تكتفي بـيقينك، تعيد في كلّ مرة / صدمة / خبر، ترتيب التفاصيل الناشئة للتو، تنظر جيداً وعميقاً لآخر الجدران المتهالكة بينما عيناك شهود حدث مؤسف.

تعيد التمتمة:

ضاع فرد جديد، اشتروك يا صديق.. وداعا.

تضحك من أنفك بقلب بارد، لقد ضاع قبله كثيرون وانتهى، لقد اختار.

21

في المرحلة الثانوية [١٩٩٢ - ١٩٩٤] وتلك كانت الفترة الذهبية لنظام المقرَّرات الثانوي في الكويت، تعرفنا نحن الطلبة على هذا النظام [المتطوّر آنذاك] والذي يشبه تماماً، في تراتبيّة التخصّص والمواد وتوزيعها وشكل الفصول، نظام الجامعة. تعرفنا إلى عدد من المواد الدراسية الحِرْفية والفنية إضافة إلى العلمية على حدّ سواء، إذ إن متطلبات التخرّج الاختيارية تتجاوز الثمانية أحياناً ويتاح لنا الاختيار ما بين التربية الفنية وموادها التي تتفرّع لتخصّصات الرسم والطين والطباعة والمعادن والخشب، بمستويات أيضاً. لقد كانت ساعات دراسية جادّة وليست لتضييع الوقت أو الترفيه، بل أنها قد تجعل من الطالب فناناً حقيقياً، كما أنها مواد تساهم في رفع المعدّل الدراسي، أو حتى الرسوب على إثر التقصير فيها.

لقد تعلّمت الكثير من حصص مواد التربية الفنية، وأتذكر بأنني كنت أُدهِشُ "أبلة ناهد" بما تنتجه كفّاي الصغيرتان اللتان تبعثان فيها الضحك بعد أن تُمسّدهما بمحبةِ أُمٍّ وتعاطف معلّمة، حاجباها معقودان برأفة عليّ، فلم تكن "أبلة ناهد" المندهشة من صفر هاتين الكفين فقط، بل كل مدرّسات المواد الاحترافية الـ تحتاج لليدين خلال العمل، فمثلاً معلّمة "الاقتصاد المنزلي"، أبلة خضرا"، التي أثارتها طريقتي في سدّ/ طيّ فطائر العجين وهي ترى الإتقان الذي لفت انتباهها، كذلك "أبلة ندى" معلّمة المقرّر المتقدّم في إصلاح

الأعطال الكهربية للأدوات المنزلية لقد كنتُ في مرحلة احترافية وخبرة كافية لإصلاح سخان الماء ومكْواة الملابس ومَحمصة الخبز في بيتنا نتيجة لتعليمها، كانت أمي توجّه عينيها المبتسمتين نحوي بينما أفترش أنا الأرض لأفكّك قِطعاً معيّنة من تلك الأجهزة المنزلية التي ركنتها أمي [لأنها لم تعد تعمل]، تضحك أمي من صغر يديَ دائماً، لكنها بدلت ملامحها نحو الامتنان الكبير وشيء من الفخر، لأن كل تلك الأجهزة تحوّل مصيرها لمطبخها من جديد لا إلى حاوية القمامة.

فيما بقيت والدتي تسرّب استحسانها لما تقدّمه يداي الصغيرتان مع كلّ خدمة جديدة/جيدة أقدمها إليها، تنظر لهما بينما أقود سيارتي لأوصلها إلى مكان تريده، أو حين أطهو الطعام. أو بينما أكتب سرداً على طاولة مطبخها حينما كنت في بيتها/ بيت أبي.

على الرغم من ذلك، ومن دون أن تفصح عن مشاعرها، فإنني لم أكن أستاء حين تسألني [على سبيل المزاح والتدليل] كيف لهاتين الكفّين الصغيرتين أن تفعلا كل ذلك؟ أخبرها؛ بأنهما قادرتان أيضاً على الإيذاء، لكنني لا أفعل.

لا يعني ذلك بأي شكل من الأشكال بأنني إنسانة طيبة، لكن الإيذاء هو نتاج لعقلية بدائية/فطرية لم يمسسها اشتغال روحاني، وأظنني أمضيت وقتاً طويلاً كمُحاربة في سبيل الترقي.. ولا أدري إنْ كنت قد لامست طرف السكينة بعد.

كفّي الصغيرة، أو يداي الصغيرتان، تُسرّبان للناظر إليهما مشاعر متضاربة، فإما أن يستحسنهما/يحبهما، أو يستنكفهما!

تماماً كمن يلتقي بي لأول مرة.

علاقتي بالناس علاقة تدهشني..

[سأعدّل صياغة العبارة من جديد لأخرى أكثر دقّة] علاقات الناس بي هي ما تُدهشني فعلاً.

الناسُ في حياتي صنفان متناقضان جداً حِيال اقترابهم الأوّلي مني، صنفٌ يكرهُني جداً [لأسبابه الخاصة التي لا يهمّني معرفتها وأظنها ترسّبات "كازميّة"سابقة] يَكرهُني هذا الصنف حتى قبل أن تتهيّأ الظروف للقاءٍ فعليٍّ، وصنف آخر على النقيض، يسعى بغرابة لكي يكون ضمن دائرتي الأقرب ويبدي محبّته العالية التي تخجلني.

هذا الاختلاف/الهوّة بين المشاعر تحفّزني دائماً لأن أهرب بخطوة سريعة نحو الهواء الطلق، إلى التحرّر من العلاقات التي لا أختارها [تلك التي فرضَها أصحابُها] فأحيانا يكون من المؤلم حتى وخْز النسيج الناعم، وعلاقات لطيفة [لا أختارها] أشعرها تحاصر مزاج الكاتبة بي.

أصبح في هكذا مواقف تلامس إنساني الداخلي الذي لا يحب الصخب والعلاقات وتداعياتها الأكيدة وما يتبع السلام والكلام والمواعيد المنسوجة بمحبة [بلاشك]، ومن ثم ردّ المواعيد بأخرى متتابعة، أصبح مثل طفلة بعينين متورّطتين بقصتها العتيقة، لا أقوى على الإفصاح والتعاطي [ليس كراهةً ولا غروراً] بل لأنني بمزاج مختلف مذ ولدتُ وتكوّنتُ في بيت هادئ كل الوقت، بل أشبه بالمعبد الساكن، ويا لَلتعب حين تكون تربيتك وبالاً عليك! لقد أمضيت زمناً طويلاً [ثلاثة عشريّات لم تكن هيّنة في الواقع] وتجارب وقراءات كثيرة فقط؛ لكي ابتعد عن الوصفات الجاهزة في الحياة، فاعذروني لأنني لن أعود إلى البئر الأولى أبدا.

منذُ تلك الأيام البعيدة، تلك التي تَزورني بلون مغبَش بالبرتقالي، أيام المدرسة في مراحلها الأولى، كنتُ أرى بأن الاقتراب مني كان صعباً، إذ كنت ألحظ هذا الأمر في عيون التلميذات/الطالبات منذ الابتدائية وصولاً للجامعة، حتى صارحتني إحدى الصديقات الجديدات مرة بأن لي ملامحَ غير مرحِّبة، ملامح مشغولة بنفسها كل الوقت، ملامحي [كما يراها الناس] متكبّرة / مكتفية بذاتها، كنت باختصار شخصية لا تحفّز على الاقتراب منها، بل؛ لعلّي كنت أُعلّق لافتة تحذيرية لكل المحيطين!

إنَ ما قيل لي على مدى صداقات، يصدمُني حقا.

لأنني وببساطة أشعر بأني مبتسمة كل الوقت، أنا مبتسمة من الداخل جداً، راضية إلاّ قليلاً، منغمسة بأسئلتي المجنونة، وأفكار قلبي المتأمّل حوله، كما أنني دائمة الغناء، أُزجي الوقت بين الحزن والدهشة بالدَنْدَنة والطرب وحوارات لا يقطعها إلاّ المزيد من الحوارات. في كلّ مرة أسمعُ فيها هذه التعليقات، أبقى في منطقة غريبة من الشعور، منطقة ليست محزنة ولا مفرحة ولا بينهما، ثم أراهم يستدركون بما يشبه المجاملة التي تُفضي إلى التّمسك [المخيّب لرغباتي]: «لكننا حين عرفناكِ جيداً ...»

ولا أتركهم يُكملون، أقاطعهم: "أحببتموني مثلاً"؟

إنني إنسانة عادية جداً، أنا أقل من ذلك.

بمزاج هوائيّ متقلّب [فتاة الميزان] لكني أضع اختياراتي وإيماناتي في أول أولوياتي.

أومن جداً بتلاقي الأرواح، منها [القليل والنادر] ممن يتفق مزاجه على الجنون الحميد بي، ومنها [الكثير المتوافر] ممن ينفرني منها، وأعْبُرهُ بلا أدنى تأثير. لذا، نجِدُ بعد تجارب جيدة، بأن بعض من صادَقونا لم يكونوا سوى "بكْتيريا" نافعة تمكننا من مواصلة الحياة بدهشة [تفعل فعل العلاج]، وتُزيّت الصُدأ النامي على مفصلات الدنيا.

لكني رغم تلك النّتوءات على الروح، أعالج نفسي عبر رشّ طبقة من الإيجابية لتغطية مشاعري حين تهبط بالصدمات التي تتحوّل لاحقاً كمفردة أخرى [أكثر وضوحاً وتقبّلاً وتصنيفاً]، هي التجربة.

هل حدث أن شعرتم يوماً بالوحدة مع أنكم تخرجون برفقة آخر؟أن تعيش تجربة منفلتة من جدول أيامك المعتاد [الذي يريحك] لتجد نفسك منقسماً على رغبتين؟

فأنت تتذكر كل الوقت بيجامتك المفضلة التي تنتظرك لترتديها، ومكان جلوسك الهادئ، وتتحسّر على سبب قبولك لهذه الدعوة/الورطة/اللقاء، سلسلة المترادفات التي بلا رغبة، يدقّ السؤال في رأسك بهذه الصيغة تماماً [بمجرّد أن تركب سيارتك] ماذا لو بقيت في مزاجي الأول/الأصيل/المعتاد/المريح، في زاوية الجلوس المثالية بالنسبة لي، محاطة بالكتب وحزْمة ورق جاهزة للفكرة الطارئة؟ ثم إنّ قهوتي ألذّ بمراحل من هذا النقيع الأسود الممل الذي أنظر إليه الآن، أقلّب الفنجان برغبة مضاعفة للفهم، وسؤال يقتحمني: لماذا لم اعتذر عن هذا اللقاء!؟

أنا اليوم خارج البيت.

خارج ذاتي، وهذا الشخص الذي يقابلني | يتحدّث ولا يهمني حديثه| لا يدري بأني وحيدة بداخلي مع فكرة التقطتها قبل قليل قابلة للتزاوج مع فكرة غامرة تستأجر عقلي منذ أسابيع، لقد دخلت سيدة للمقهى |حيث نجلس|، أثارت عبارات سرديّة صارت تنشطر في رأسي، مشهد يحتمل البناء والتركيب السرديّ، ورفيق الجلسة/اللقاء/النقيع الأسود الممل ما يزال يحكي، أُومئ له بينما على جبينه أطرّز كلماتي كي لا تضيع، ثم استلّ حقيبتي باحثة عن القلم اللعين، أسحب حزمة مناديل موضوعة على الطاولة وأبدأ بالتدوين السريع، إنني لا أهمله، إنني فقط أقبض على الفكرة وأحميها من الهرب، ينبّهني الصديق مازحاً:

"إياكِ وكتابة حكايتي"!

أُطمئن ثقته، وبنصف زفرة أخبره بأن لا يقلق، فهذه حكاية امرأة لم يرها، ولم يعرفها.

نحن بأمزجة لا يَقْدِرُ على تَفسيرها أحد.

أمزجة الكتّاب/ نسّاجو الأحرف لا تتشابه على أية حال مع غيرهم ولا مع بعضهم حتى!

قد نسْهُو ساعة تأملاً في باقة ورد ذابلة، وقد نعبر مروراً ضجراً بملامح غاية في الجمال ولا نعبأ بها، وقد نفكر طويلاً، بل نمضي ساعات وأياماً في نحت عبارات لا تتجاوز الخمس كلمات وكثير من مشاعر متطاحنة بسببها، والصور الذهنية النمطية التي تعرضها لكم خيالات المخرجين [عنّا] ليست صحيحة على الإطلاق، بل هي رؤى مبتذلة بالادّعاء والتقوّل والتمثيل، مضحكة.. لا بل تصوّرات مسْخ عن بشر ليسوا نحن بالتأكيد.

22

بعد شدَ وجَذب بيني وبين والدتي. وافقتُ على مرافقتها لما يسمونه في عرف/ لغة الحريم بـــ "الاستقبال". كان ذلك في شتاء ٢٠٠٧. حينما احتَفل يومها بمناسبتين أحداهما شفاء من مرض لقريب، والثانية تخرُّج من كلية طبيّة لابنةِ هذا القريب، كنت أُكملُ دائرة الجلسة التي ضمَت نسوةً كثيرات تلتمعُ أطرافهم بالمَاس والذهب والعطور الفرنسية الممزوجة ببخور كويتيّ أصيل.

في تلك الفترة كنت على أطراف التّعافي من هكذا زيارات [تدفعُنا إليها دفعاً لا واعياً أمهاتنا كي نكون في محيط النظر لأيّ عابر بنوي الزواج] ملبّدة بالدبق الاجتماعي، مرّ من الوقت الطويل ما يكفي لأن يغمرني الندم على الساعات المهدَرة بالصوت النسويّ العالي، والكذبات المنحوتة بشبه إتقان، والابتسامات والدعوات وكثير من الشاي والقهوة ومراقبة الشخصبات المنتثرة والتي تصلح جيداً كشخصبات هامشيّة في روايات قادمة.

في لحظة، شهقتُ كالملدوغة، بينما كنت أُبحلق في شاشة هاتفي. اقرأ خبراً مُرسلاً من صديق يماثلني الحُلم، صمتت النساء وهن ينظرن إليّ باستغراب، وأفواههن تُتمتم بـ البَسْملة وتمني الخير، أخبرتهن بصوت حزين:

"بينَظير بوتو[1].. اُغتيلت"!

ما أتذكره بأن أكثر من ٤٠ امرأة كنّ قد "لوَثْ" فَمَها بـــ [إبا لَلسخف] صامتة، بينما اكتفت والدتي بـــ "يرحمها الله"، وصوت بشع وصلني من آخر الجلسة متسائلاً:

"مِنو هَذي"؟!

لعلّ ذلك الموقف/المشهد/الحادث كان بالفعل الطلقة الأخيرة التي مكنتني لاحقاً [بل فوراً] من تعديل نمط حياتي وما تسميه الأغلبية "تمرّدي" على المتعارف عليه، ومقاطعة كل ذلك [من دون استثناء] تلك التجمّعات النسوية الفارهة/الفارغة المعاني/المشاعر.

كنتُ يومها امرأة بحُلم يتأبّط ذراع أيامي، ولن أتركه بالتأكيد ليرتاح غيري/مجتمعي، الذي يعيش كلّ لحظة أكثر صور الخَيبات وضوحاً، وأكبر المجاملات أذى للأرواح، وضياع للوقت المهدر بالتفاهات.

يوم أحزنني خبر مثل ذاك.

ويوم استهجَنَت إحدى "الحريم" اهتمامي السياسي، لم يكن مؤذياً/بل كان عادياً جداً في محيط غارق حتى أُذنيه بالاستهلاك، لكن المفجع كان شبه التبرير الذي أبدته أمي [أمامهن] بصوتٍ خفيض وكأنها تعتذر، أو تصنع هامشاً للتوضيح: "إي، ميس عندها اهتمامات بالأخبار والسياسة والعالم..."

---

(١) رئيسة وزراء باكستان، اغتيلت في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٧ وقت خروجها من مؤتمر انتخابي مع مناصريها.

مازلتُ أتذكر المرارة التي تكاثرت في فمي فجأة، وقد غطّت على طعم القهوة الدافئة التي كنت أشربها قبل الهامش/التوضيح الذي ارتكبته أمي في لحظة عدمية.

مثل تلك الحوارات، أعطتني شحناً عالياً، شحن عقلي/ عاطفتي، للالتصاق بمبادئ في الحياة أكثر، غادرتهن ذهنياً لمدة طويلة نحو أسئلة تناثرت على وجوههن الملوّنة بالأكاذيب والمساحيق وموت الاحساس، أسئلتي كانت؛ كيف يمكننا أن نناقش بصوت مكسوٍّ بالثقة وعامرٍ بالحقيقة مواضيعَ تحتاج لوَعيٍ متّسع بالرأفة، كيف نتناقش بلا سند ثقافيّ حول الحق والكذب والعدالة والتحدّي والعائلة والملائكة والحجاب والخيانة والسّفور والمساواة والاحترام والشهداء والبَكارة و "عذابات القبر" والصدق والاحتيال والجريمة والخوف... بل كيف نجرؤ على الخوض بما لا نعرفه أصلاً كالإلحاد والإيمان؟

نحن مجتمعات فقراء بكل شيء، فقراء بالإنسانية حتى، وبلا عقل يُحسن السؤال، ثم التحرّي، ثم التفكير، ثم الاختيار الحر، ليعيش حياة كريمة بعطاءاتها، تحرّرنا مما ينتظرونه منك ولا ترغب به صدقاً.

23

عَلِمتُ في فترة من حياتي، بأن هناك [قوّة عظمى] ترميني لذلك المصير، كمثل مكافأة واختبار في آن واحد.

في يوم ما [صار الآن بعيداً نسبياً] ضاقت بي التساؤلات عن جدوى كل هذا العبث الذي نحياه، كنتُ أفكر؛ أية كارثة أكبر من وجودنا [هنا] في هذه الحياة؟ حين رسمت على الورق [كي أحيط بالصورة أكثر وأقتنع] الغاية من وجودنا على هذه الأرض منذ ولادتنا حتى موتنا [بحسب الفكرة الدينية المتوارثة] كنت ما أزال في أول العشرية الثانية، بكلّ تلك الضحكات اليائسة، كنت أحيًا في لافهم وجَرْي سريع.. سريع [كم كنت أراه لا ينتهي] مع تيّار الناس اليائسة وما تزال تبتسم؛ جري لا يهدأ نحو لا أدري ماذا؟

هل كنت أراها تحقيق رغبات لا تتحقّق في الواقع، فنواصل الجَري والدعاء والتمني وادّعاء الفرح حين نلامس أطيافه التي تشبه السراب، وكثير من طلب العفو ع. ذنوب لم تُقترف؟

في "اعتكافي الأول" مَرَرت بالتمحيص الطويل والبحث عن إجابات تقنعني، تخمد اشتعال الأسئلة، وخلال عبوري في القراءات المسروقة من عيون المحيطين والرقباء وأوصياء الدين، أطمئنت روحي إلى أن كل ما تعلمته من المدرسة محض اجتهاد لا يقترب من ٢٪ من الحقيقة [التي كنتُ أظنها]!

تركت تلك الكتب لأنني تجاوزتها بقفزتين لمنطقة أخرى من التوتر المُفضي لمزيد من الحَفر، حوّلتها للتبرّع بها، علّ من يؤرقه السؤال يجد عبرها ضالته في الفهم.

خلال تلك الحَفريات "الشرانية/القرانيّة" للكتب على الشبكة الكونية، للحصول على كل تلك العناوين المؤدية لمبحثي الجديد [آنذاك]، كل ما يتلاقى بخطّ السير المشرق بعبارات الروح و"الكارما" والموت والحياة وتعدّد الولادات والتقمّص ...إلخ، وكل ما يتفرّع منها واليها باللغتين العربية والإنكليزية، بدأت بوضع قدميّ على أول العتبات المفعمة بالنور، كانت المغارة الذهبية المتوارية بعيداً واستدليت عليها. لقد غيّرت تلك الكتب منذ ذلك الحين [حتى الآن وللأبد] طريقتي في النظر إلى نفسي أولاً، والنظر للعالم ثانياً، وللكون والخَلق والخالق ثالثاً، كل تلك الاكتشافات التي تحتويها أغلفة ما يزيد عن ١٧٨ كتاب، جاءتني كلها في التوقيت الصحيح والملائم [وقت الاستعداد الروحاني لتلقي جديد].

لقد تعلّمتُ منها الكثير.

إنّ هذا الوجود الذي يحتوينا جميعاً، هو أبعد بمراحل مما نظنّه وفق التجارب اليومية التي نحياها، شيء يتعدّى ما نتلقاه عبر حواسنا الخمسة فقط، كنت أقرأ وأُدهَش طويلاً، لأيام وأيام، تعلّمت أن أقف في زاوية جديدة / بقعة لم أمَسّها من قبل، متخفّفة/ متخلّصة من كل قناعاتي السابقة، نحو ابتهاج الصّحو والبصيرة الـ تبتغي الفتح، حين كنت أتدرّج بقراءاتي، انفجرت إدراكيا بحيث آمنت بأنني قد بدّلت بُؤبؤ عينيّ عبر المعرفة الجديدة، وصرتُ أرى بفم إلهيّ/مقدّس أعلى.

كل هذا الكشف حوّل اتجاه البوصلة في مُجمل حياتي.

علّمني بأن مصادر القوة في الحَيَوات؛ كثيرة، لعلّ أحدها، وأهمها هي طاقة الكلمات.

والكلمات هي رسالتي عبر هذه الحياة [هذه المرة] وتيّقنت بأن هناك من يهدينا فرصة لنكون في مرمى الإبداع كهبةٍ ربّانية/ طاقيَّة/ مقدّسة، إنها "وسيلتنا" التي نمرّر عبرها معرفتنا للغير، عطاءاتنا للآخرين.

قراءاتي كانت متسلسلة [كما ينبغي لكل معرفة أن تكون] من دون مُرشد [ماديّ] يُعينني على الاختيار والبدء والحَدْس، كانت اللذات القِرائيّة تستميل بعضها، لا تكفّ ولا تكتفي ولا تشبع، والفرح بها والدهشة كمثل حفرة من ورد تعبق بنثر بَتْلاتها!

منذ ذلك الحين وأنا أُؤمن بأننا المسئولة أرواحنا عن كلّ عمل نقوم به، عن كل فكرة تخطر لنا، وعن كل شعور ينتابنا. باختصار، نحن [فقط] المسئولون عن كلّ "نيّة" نضمرها/نعلنها، وعلينا تحمّل نتائجها كيفما كانت.

النّوايا بوصلة الجيّد/ المفرح/المبكي/المدهش/التحوّلات... وكل المؤلم في حيواتنا.

لقد تبدّلت حياتي للأجمل [عبر مراحل متصاعدة طويلة نسبياً]، ومن الفهم؛ تولّدت بداخلي قوة حقيقية أعانتني على حسن الفعل والاختيار والانطلاق، آمنتُ جداً بأن الشجاعة هي أعلى الفضائل ومن دونها لـن يستطيع أي منا المثابرة على الإتيان بأي فضيلة لاحقة.

لم أنته من تعلمي المستمر [حتى هذه اللحظة]. ألاحقه وأتتبّع خيط الضوء الساطع الذي أراه لوحدي. لقد بلغت الآن الأربعين من عمري ومازلت أتلقى التعاليم الروحانية [مثل مُريد تدهشه المعجزات] عبر الكتب الكثيرة/ الدروس من معلّمي/ وعبر الحوارات التي تفرز المزيد من "ماذا عن"؟ لعلّ الأهم والأوقع من ذلك كله، هي هدايا الله. تلك التجارب التي يقدّمها الله لي على هيئة مشكلات قاسية جداً. لكني أُعمل بصيرتي. واستجلب كل طاقة الرحمة التي قد نُسجت بيني وبين العظيم منذ أول خلق. وأنتظر بسكينة وانتباه عاليين كل الإلهام الذي سيهبط كومضات نور. فحتى التجارب [ما يطلق عليه الناس مصائب] تشحنني بالامتنان والحساسية المرهفة للقادم.

في يوم ما، مغمورة كنت في اكتشافاتي الروحانية [بعد ٤ سنوات من البدء] زارتني الخشية العميقة فجأة. أمضيت أياماً كانت هي الأطول. كنت فيما يشبه الاحتضار الدائم. هذا هو القلق! صلّيت دعاءً خالصاً لله [دعائي دوماً خاص] ودعوت الخالق [خالقي الذي أعرف] بأن هذا الأمر بات يحيّرني بشكل عميق. وكان أن أرسل الجميل بشارته الواضحة لي بعد يومين. لقد عرّفني بالمزيد من الأصدقاء/الغرباء ممن يؤمنون بهذا النهج الذي اكتشفته/اكتشفني بمحض إضاءة قلب. بل أن نوعاً أكثر دفئاً من العلاقات البعيدة كانت قد بدأت، وكلها تهدف إلى النموّ والشَراكة الروحية. خصوصاً بعد التخلّص ممن يعطل حضورنا في التلقي الفكريّ الجديد. وكعادة أي مُنفلِت من "قَطيعه/جَماعته"، فإننا كنا مستعدين لتلقّي الاتهامات والعنف والتنكيل المعنويّ ما قد يكفي كي "نَتوب" عن خوضنا في "الممنوع" ديناً/ عُرفاً/ مجتمعاً و... حرية!

ولأنني ضدّ النقاشات السّمهية/ العابرة التي تلامس الإيمان.

كنت لا أبادر برأي الخاص، أرد فقط حين يُلح أحدهم في طلب رأيي في شأن ما، يرتبك السائل ومن حوله، فأخبرهم: نحن نتبادل آراءنا لأن في ذلك صحة نفسية وعقلية. إن قناعاتنا بأرضيات مختلفة. ونحن عبر شدّ الأفكار من بافات العادي: نهز البرك الراكدة، لعلنا نتحرك باتجاه الحياة أكثر.. ويمكننا التوقف عن ذلك، لكنكم من طلبتم هذا.

[لم أسعَ في حياتي لمناقشة أحدهم في معتقده/دينه، أو حتى سؤاله عنه لأن هذا يخصّه وحده] لكن الغير هو من يطرق أبواب التساؤلات الكثيرة فيما أعتقد/ أرتدي/ أفكر... [وفيما هو أكثر خصوصية] ولا يخجلكم هذا التجاوز الـ يفتقر للتأدّب، وتظنون بأنكم دوماً على صواب لا يقبل إعادة الفَتْق/الفهم [لأن المتديّن الذي يَحيا بالحواس الخمس فقط يظن دوماً بأن الحق مِلْكه].

لكني في إيماني الذي سلكته وتوحّدت به / معه / فيه. منذ أكثر من ١٢ عاماً، مرتاحة للفكرة الأسْلم للصورة الإلهية كما ينبغي لها أن تكون، وكما يليق بالخالق أن يُعظّم، سعيدة ومؤمنة بالاكتشاف الرحيم الذي كان قد جاء في وقته [٢٠٠٥]، نحن الآن [٢٠١٧] صحبة من مجموعات متباعدة، نلتقي عبر التواصل الفكري/الإيماني، ومازلت اتعرّف بأشخاص تدرّجوا للضياء قبلي، فنحن لا نحتاج إلى "نبيّ"، ففي الواقع أنبياؤنا خمسة: "العقل/المنطق/العلم/ التجربة والقدرة الإلهية المتحقّقة". [مع كامل تقديري وتقديسي لأنبياء الكون كافة، عليهم محبة الصلاح والخير].

نحن ومن مثلنا، نحيا عبر الشراكة الروحية للإنسان، وعبر ابتهاج لما تقدمه الحياة [كل حياة] والتي حلّت تدريجياً في مكان الشعور بالبشر وكأنهم مادة فقط، مكان تلك النوبات من الارتباك والاضطراب ،الغضب والغيرة واليأس والشعور المفجع [الذي قادني يوماً نحو النور] وهو الشعور بعدم الجدوى!

وأنا في الأربعين، أتشبّث بتلك المَلَكَة المهداة إليّ من الخالق الجميل. تلك الأبعد من الحواس الخمس، الحَدْس العالي بالأشياء والتلقّي الغامر بالإشارات الدّالة للفرج/الفرح، فحين نسلك إيماناً هو باختصار: كلّ خيار نقوم به على أساس الخوف، لا ينتج إلاّ نتائج هدّامة، لأنه لا يعطينا إلاّ الغضب والحقد والانتقام، هو خيار لا واعٍ بُني على الخوف والخشية، بينما كل خيار يقوم أساساً على الحب وما يحمله من شعور رديف بالامتنان والتقدير سيقودنا إلى نتائج سليمة ومباركة.

أتيتُ من بعد قراءات طويلة/متعدّد في "الصوفية" متدرّجة منها لما هو أوسع وأكثر عمقاً، وهي "الكارْمِيّة"(١) التي حين وصلت لها فهمت جيداً سبب انجذابي البعيد للمتصوفة، هم "متديّنون" لكنهم يمارسون المحبة/ الحب كسلوك متوحّد في الحياة ومع الإله فهم بشر يرون الدنيا ببصائرهم ومنها وعبرها. لقد انطلقت أنا للبحث والخروج من دوائرهم نحو النور الأقرب للخالق، لستُ صوفية، بل صرت في مكان أكثر يتخطّى الدين ولا يتجاوز الإله.

---

(١) المعتقد الكارمي : أي الأفعال التي يقوم بها الإنسان والعواقب الأخلاقية الناتجة عنها. إن أي عمل، خيّرًا كان أو شرا، وأي كان مصدره. فعل، قول أو مجرد فكرة أو نيّة داخلية. لا بد أن تترتب عليه عواقب، ما دام قد نَتَج عن وعي وإدراك مسبوقين. فيكون جزاؤه إما الثواب أو العِقاب. قد تطول أو تقصر المدة التي تتطلبها ردّة الفعل الإلهي تجاه أعماله. فالكارما هي قانون الثواب والعقاب المزروع في باطن الإنسان.

أنتمي لجماعة تنتمي لما يطلق عليه "الإدراك الموسّع" الذي يتيح للمؤمنين به فرصاً أكبر للتطوّر والنموّ بمعاني الحكمة الإلهية النورانية.

[لست أدعو لشيء، فأنا ضدّ فعل التبشير بمعتقدات وأديان، ولست أنبذ إيمانيات قد ترونها أصيلة لا جدال فيها، لكني أتحدث عن تجربتي المتواضعة بكل أرْيَحيّة، فخذوها على محمل الحكايات التي تخزّن في الذاكرة وتجنّبوا نامي الكراهية والحقد تجاهي في أرواحهم، لن يؤذيني ذلك حتماً، لكنه سيُمرضكم، فاسْلَموا للخير واسْلَموا للإنسان].

24

هل أخبرتكم بأن الحقّ يُجبنُ الظالم؟ لقد قرأتُ ما ينتهي لهذا المعنى يوماً.

ماذا أستدعي من سنواتي اليافعة [البعيدة بالتعلّم] لأخبركم؟

كنت على قدر جيد من الشجاعة فيما يخص الحق مذ كنت صغيرة، قد يكون هذا صحيحاً، لكن الشجاعة من دون وعي عالٍ تستحيل تهمة واتهام!

حملت قناعتي الصغيرة فيما يخص "الحق" و "الظالم"، وكثير من إفرازات البدائية والمراهقة واشتعالها بالحنق، وجابهت معلّمة مادة المكتبات في المرحلة الثانوية [١٩٩٢- ١٩٩٤]، المعلمة التي لم تتجاوز حينها ٢٣ سنة من عمرها وتستغل سلطتها، مبدئياً، كونها معلّمة، وتسرّب وقت الطالبات قبل الاختبارات مما يصعّد الشعور بالضغط الزمني الذي يحاصرنا آنذاك. كانت في تسلّطها مُحبطة لي عبر رفضها المتكرّر [خمس مرات] لاستلام تكليفها لنا/لي المنجز في نسخ [في التسعينيات كان كل شيء يدوياً] بطاقات فهرسة الكتب للمادة البحثية، تلك البطاقات التي تتجاوز ٣٠٠ بطاقة، وقد أعددتها وفقاً لتعديلاتها لأكثر من خمس مرات/ جولات، ترفض البطاقات من جديد بابتسامة منسوجة من التسلّط لا أفهمه، كنت قد جئت لتسليمها جهدي الخامس، لتقابلني بمشروع ابتسامة سادسة متسلّطة! لم تكن مادتها هي المادة العسيرة

الوحيدة في تلك المرحلة، كنت كطالبة مجتهدة [على سلّم ما قبل التفوّق] أعمل من قلبي، وحيدة، من دون مساعدة لأنني اعتدت على ذلك.

لم أفكّر مرتين..

بل ربما ولا لمرة واحدة أيضاً، قبل أن أقْلِبَ طاولتها التي ترتّب عليها بطاقات الطالبات ممن استلمن منها إيماءة القبول ولم أكن ضمنهن، من دون سبب حقيقيّ أفهمه، قلبتُ الطاولة الخشبية الكبيرة [بأكفّي الصغيرة، طالبة هادئة كنت بضفيرتيّ الفرنسية المجدولة بالورد الأبيض]، فضاعت الأسماء وعناوين الكتب وأطراف البطاقات الملوّنة بمثلثات تعرّفها، ووسط صمت ودهشة المعلّمة الطويلين، كنت أردّد لأكثر من عشرين مرّة سؤالي الذي لم يتغيّر: ليشْ؟

وجدتها بعدها تضمّني لصدرها وتمسح على جديلتي الفرنسية، واعتذار الدنيا يصلني عبر تمْسيد يديها الاثنتين على ظهري، بينما أهمس لها في أذنها اليمنى ورأسي مستندة على كتفها، هل تقبلين أن تَظْلِمْ معلّمة ما ابنتك بهذا الشكل الهزليّ؟ لقد كتبت البطاقات لـ ألف وخمسمائة مرّة فعلياً من جرّاء الإعادة والتكرار، فهل تظنين بأنك تعلّميني شيئا؟!

[كنتُ أقدّم لنفسي الإجابة الحقيقية من دون أن أُدرك ذلك]

تركتها من دون المزيد من الكلام، وفي تصوّري أنها ستحيلني لمكتب الناظرة، لكن هذا لم يحدث، بقينا على مسافة آمنة من المودّة، وانتهت السنة الدراسية بتفوقي في مادتها. لقد تذكرت عبارتي في أذنها: هل تظنين بأنك تعلّميني شيئا؟

في الواقع، وبعد مرور كل تلك السنوات، وجدت أنها بسلوكها الضاغط عليّ قد علّمتني أكثر من مجرّد شيء، لقد تبادلنا التعلّم من الجانبين، لقد كنت حينها الشخصية الغاضبة التي تستمر في استجلاب مواقف شخصية بغيضة ومأساوية إلى أن تتمكّن من مواجهة غضبها/غضبي وإتاحة المجال لتدفّق الرحمة والمحبة، وهذا ما حدث في لحظة المواجهة بالغضب، ثم الرحمة بالاحتضان.

لقد تعلمنا نحن الاثنتين من ذاك الانفجار الغاضب، تيقّظتُ أنا وتنبّهت هي، فأزيلت القَصْديّة التي كانت قد رفضت جهدي.

تعلّمت ألاّ أترك ممحاة الغضب تمارس هجمتها عليّ ولا على محيطي، وتعلّمت بعدها كذلك بأن كل لقاءات البشر "قدريّة" ومرتّبة ومعدّة كما ينبغي لها أن تكون / تحدث وتتحقّق وهذه / تلك اللقاءات [المستمرة والعابرة] كلها تقدّم لنا المعاني الكامنة وراءها بوضوح ومباشرة أحياناً.. أو بدهشة عالية تُبقينا محتفظين بها عبر حواسنا جيداً، نستذكرها ونكرّرها ونعيدها مثل "سيناريو" مفجع أو حميم، وكأنها قد حدثت للتو.

نشرَحها على طاولات عقولنا، علّنا نستوعب الرسالة المبهمة/المختبئة بهيئة أحداث مرّة/حلوة.

25

بينما أدوّن هذا السرد الهادر بالفَتْق لمشاعري، وأنا في الأربعين، أستذكر تلك الرحلة [٢٠٠٣] حين كنت ما أزال في ٢٦ من عمري، ولا أدري إن كانت "مصادفة القدر" لمن يقابل مقعدي في القطار ذاك الشاب الإيطالي، الذي كان مسافراً من "روما" إلى "البندقية" ومنشغلاً في الكتابة على جهاز حاسوبه الشخصي، ويترك انشغالاته ليستثار من حروف الكتاب الذي أمسكُ به قراءةً؟

أشار بيده في محبة، وسلّم بالإيطالية، ثم جاء ردّي بالإنكليزية ليدلق سؤاله/ استئذانه:

سأطلبُ فنجان قهوة لي، فهل تسمحين لأن أطلب فنجانين؟

أومأتُ بنعم والشكر وأنا مبتسمة للنادل الذي كان حاضراً للخدمة على طاولتنا المشتركة على متن القطار.

انتشر عبق القهوة حين استدرك مستعجلاً، هل لي أن اعرف اللغة التي تقرئين بها؟

تبادلنا المعرفة بكلّ الود، أذهله أنني أقرأ بالعربية، وابتهج لأنه قادر على التحدّث معي بالإنكليزية، واستغرب لأننا ندرس لغة رديفة للغتنا الأم، لكن بهجته كبرت يوم علم بأنني "كاتبة"، ضحكت وأخبرته، مازلت مُبتدئة! أطلقَ شهقته عالياً معترفاً هو الآخر لي بأنه روائيّ.. مبتدئ؟ وضحكنا طويلاً؛ لأننا

نكتب بلغتين لا يحسن أي منا قراءتها [يا للأسف]!

تواعدنا لأن نسعى للترجمة.. متى ما اشتهرت أعمالنا ذات يوم.

كانت الرحلة بطول ثلاث ساعات ونصف الساعة، كلها حديث متشَعِّب ممتلئ بالمتعة، لماذا نفرح حين نجد رفيقاً بمقاييس نحبّها خلال ساعات مجتزئة من أيامنا/ مهدرة في التنقّلات والسفر؟

لقد كان هذا "الإيطالي/الكاتب" الرفيق المثالي لهكذا رحلة، انهمر وداداً مثل غيمة سَقَت حيرتي، حكيت له عن الكويت، وأخبرني أنه من مواليد "روما" ١٩٦٦، لكنه يهوى العزلة قليلاً، وأنه قرّر السفر والتواري في "البندقية" لمدة شهرين للتفرّغ والانتهاء من هذا العمل الجديد [كان يشير لجهاز الحاسوب].

كان الوداع لحظات صمت ضائعة في الخسارة، أخبرني بأننا قد نتلاقى في ساحة "سان ماركو" مصادفة، وسأدعوك لشرب ألذّ "كابوتشينو" على الإطلاق، ضممت كفّيَ بشبهِ صلاة، فالْتَمَع الفرح في عينيه. عند توقّف القطار للنزول دسّ بطاقته في كفّي، البطاقة حملت حرفين بالبنط الكبير يفصل بينها نقطة، وعنوانين ورقمين.

في تلك السنة [٢٠٠٣] سنة لقائي بهذا الروائي الإيطالي، كانت لحظة من تلك المفعمة باليقظة، لقد ترك في أذني ذبابة طنّانة، جعلتني أعيد النظر فيمن أقرأ لهم وفيمن أتابعهم من خارج الدائرة التي بها نعيش. لقد راقبت طويلاً تَحْديقة عينيه في نوافذ القطار المطلّة على اخْضرار لا ينتهي/متشابه/متشابك/ لا يُملّ.. لكنه محتفظ بوعيه وبفكرته ولا ينشغل إلاّ بسؤال لاحق لي: كيف تكتبين في العادة؟

ضحكت بصوتٍ عالٍ مندهشة من صعوبة السؤال!

قال: أعلم بأنّ هذا السؤال مجنون يوجّهه كاتب محتار لآخر أظنه أكثر خبرة، لكن.. حقيقة كيف يتم نسج كل هذه الكذبات تحت عنوان يلفت انتباه القارئ المسكين، الذي يدفع نقوداً للاستمتاع بهذه الكذبات المُصاغة على مَهل؟!

ضممتُ نفسي وأنا أخبره: "على شكل مقاطع متفرّقة للأحداث، أجمعها بعد ذلك لأنسج بينها بالمزيد من الكلام، لا يمكّنني أن أكتب عملاً بخطٍّ متّصل منذ البداية، كما يصل في النهاية للقارئ المسكين! "

ضحكنا طويلاً على تعبير "المسكين" متّفقين عليه تماما.

كان يشرب قهوته ويعترف: "أكتب خلال انشغالي التام بما هو ليس كتابة! في أوقات المرض والحزن والضيق، أبدأ من منتصف الشعور.. من قلب النكتة، ثم أنطلق نحو السّرد ككل".

كانت إنكليزيته مطعمّة بالروح الإيطالية النّزِقة، عيناه كشيفتان بالاعترافات، لم يكن خالٍ بطبيعة الحال من الحزن يومها، لكنه يضحك بصدق ويتحاور بمحبة، وشغف بمعرفة الآخر المختلف عنه، تأمّل كثيراً في الكتاب العربي الذي كان بين يديّ، ينظر للحروف برغبة بالتعرّف والاستيعاب، سألني:"هل سيكون سهلاً لو تعلّمت العربية يوما"؟!

ابتسمت وأنا أهزّ رأسي نفياً: "لن يكون سهلاً على الإطلاق".

قال: "سأصدّقك، لأنك كاتبة أيضا!"

تصافحنا ومضيت نازلة من القطار بخطوات خفيفة، وكأنني أدوس على غيمة. لكن حزناً وحيداً طاف في روحي بينما كنت أتلمّس بحر "البندقية" راكبة التاكسي البحري الذي سيأخذني نحو الفندق؛ لقد نزل هذا الروائي الإيطالي على كرسي مُدَولب، ولم يكن قادراً على المشي، لوّح لي من مسافة مبتسماً.. سريعاً أعدتُ التفكير بعينيه المليئتين بالحزن الكثيف، قبضتُ على جيبي أتلمّس بطاقته التي أهداني إياها، لم تكن هناك.

أكثر ما بقي في رأسي من تلك الحوارية التي استمرت لساعات ؛ هي اللغة الإيطالية .

أُتقن الإنكليزية، تلك التي درستها وتخصّصت بها في المراهقة [وما زلت أحسن استخدامها في كل مفصلات تعاملاتي التي تستدعي ذلك]، وهي النافذة الأهم على هذا الكون. ثم تدرّجت في الفرنسية لمستويات ستة.لذا، كان سهلاً إلى حدّ ما تفكيك الإيطالية خلال الزيارات المتكرّرة لبلد النكهات اللذيذة. فهي [الإيطالية] مزيج ساحر بين هاتين اللغتين إلاّ قليلاً، وكان منطقياً التعرّف بمفاتيح العبارات خصوصاً حين التمازج مع شعب يُحسن تبادل البهجة والحوارات مع الغرباء عنه، لكن العجز الغريب الذي وقف بيني وبين "التركية" [بيني وبين لغة الأجداد] ذاك الرفض العميق المبهم لمجرد الاستمرار بالتعلم والتلقّي!اللغة التركية متوحّدة بذاتها، لا يربطها بالحروف اللاتينية أساس، ولا رابط يسهّل استدعاءها في عقولنا التي تعلّمت الإنكليزية مبكراً، بينما الإيطالية كمثل العطر الـ يغمر الروح، وتعلّمها على مهل، يشبه تماماً رفيق الرحلة الذي اعترف لي طويلاً [بما أراد]، بينما هو ضاجّ بالضحك الخفيف المنهمر من بين عينيه، كمطر في بدايات أيلول الذي كنا فيه.

26

وأنا على حافة المنتصف؛ أغامر عبر دخولي للأربعين، تطوف بي الكثير من الأفكار المليونية التي تغمر رأسي ولا آخذها على محمل الرغبة، لعلّي أرجئها لأوقات أخرى خارج الوعي، أو ربما خلال الكتابة، أو حين تجيء اللحظة المقدّسة الملائمة لها.

إنني أؤمن بأن هناك دوماً وقتاً مناسباً/ صحيحاً/محدّداً/مرسوماً/دقيقاً/ مختاراً.. لحدوث ولادات كثيرة، ولادات من التحوّلات والأفكار القابلة للتحقّق والتكوّن والنهوض، وأن أي استعجال وإصرار على استجلابها بالإجبار والأنانية والفضول [قبل مواعيدها المرسومة] يفسدها إلى الأبد، بل وتضيع الفرص المتاحة لها لاحقا.

كما أن أفكارنا/مواقفنا من الأشياء/الناس/الكون؛ كلها ملهمة لأفعالنا الصادرة عنا، وتلك المرتدّة إلينا بلا شك، فاستعجال أي شيء لن يهدينا إلاّ المزيد من التأخير بهدف تعليم "الصّبر" والانتظار.

"الانتظار" حقيبتي في [هذه الحياة] وأمارسه بكامل الرضا وبقلب مفتوح على الوعود الآتية من البعيد المطمئن. لذا، أنا في روح عالية معظم الوقت، أنتظر من دنياي الخير كله ولو تبدّى للمحيطين بي أنها مجرّد خسارات كبيرة لا يمكنني إلاّ مجابهتها بالصبر، إنهم على خطأ؛ فتلك عطاءات الحياة/ كل حياة،

وهو ما نسميه فرصاً للنور والرؤية.

كنت دائماً [على مدى العشريّتين الأخيرتين وحتى الآن] أفقد فرصاً [كنت أراها ذهبية ولا تعوّض] في المواقع الوظيفية تحديداً، كنت أظنها [يوم كنت اعتمد على حواسي الخمس فقط] خسارات رغم أني أقدّم أعلى ما لديّ من عطاءات/ أفكار/ واشتغال حقيقيّ، وبرغم كل ذلك لم أترفّع وظيفياً كما استَحق [أو كما كنت أظن].

لقد رُشّحت في العام ٢٠٠٧ لمنصب مُعيد علمي في القسم الذي تخرّجت منه من جامعة الكويت، كان ذلك بعد سبع سنوات من الوظيفة الحكومية في مجال الثقافة. تلقيت اتصالاً من أستاذي الجامعي يطلبني شخصياً لشغل المنصب كـ معيد في قسم الإعلام. كنت مبتهجة بالعرض، غير أنه وبعد المرور بـ أربع مقابلات شخصية متدرّجة من أساتذة القسم والأقسام العلمية وعَمادة شؤون الطلبة، مقابلات كنتُ فيها "نجمة تملك ما يتجاوز المطلوب في الإعلان الرسمي" [هكذا أخبرتني عميدة الكلية بوجه متهلّل]، وبعد أيام من إخطاري بالقبول النهائي المُعتَمد، ضاعت الفرصة، بل ضُيّعَتْ كأنها لم تكن!

لقد ضاعت لأن هناك "فساداً عالياً" سَببه "مدير الجامعة "[آنذاك٢٠٠٧] ممن يحمل روحاً بدائية بلا شك، كان قد رسم بسلطته طريقاً لا شرعياً لابنته، لتنال فرصة وظيفية موازية لفرصتي المرتقبة، لكن في قسم آخر من الكلية، ولمزيد من المواربة الإدارية لتشنيع فعله، قام "مَعاليه" بإلغاء كل الترشيحات للفرص الوظيفية الثلاث، التي قد أُعلن عنها وقُبلنا بها فعلياً، ثم قام بـ دَسّ اسم ابنته في قسم اللغة الإنكليزية بــ مُسمّى مُعيد، حَصلَتْ بعدها على منحة [على نفقة الدولة] لاستكمال دراستها العليا، بالخداع.

كنتُ حزينة حينها.

وكانت الاعتذارات [الحقيقية]لأساتذتي في قسم الإعلام مُرمّمة لأوجاعي تلك، هَضَمْتُ فرصتي الـ ضَيّعها الفساد بعدها بكثير من الامتنان، لله وللكون وللبشر، إذ لولا ضياعها لما التقيت بعدها [بشهرين] برفيق قلبي/رحلتي، عبر دعوة إبداعية نظّمها مكان عملي الثقافي، كانت ستُفْقَدْ بلا شك لو أنني قُبِلتُ في جامعة الكويت!

ما من هبة تُنال كاملة من دون شقاء.

في ٢٠١٥، فقدتُ فرصة وظيفية أخرى، كانت وشيكة حدّ ختم ورقة واحدة فقط.

فقدتها [ممتنّة لذاك الفَقْد يا الله] لأن هناك من دَسّ سمّه في عقل ضائع في العبودية.

لم أتذمّر، لكني كنت مُندهشة من ترتيبات الخالق الجميل، فقد خُلقت حرّة فيما أفعل، ودوري المنذورة له في هذه الحياة يكمن في "الكلمات" وفنونها، عبرها أساهم في خلق عالم أفضل من دون أن تضيع طاقتي الإلهية بين أعمال تستنزف الرحمة والدّفق "الرسوليّ" الذي أهداني إياه الله كـ مكافأة ربّانية [معينة] في هذه الحياة، كل تلك الفرص الضائعة/الضالعة في الإشارات والتجارب الغنية بالتأمل، كانت تُحيي قلبي بمزيد من الرّأفة والتدريبات والراحة والفهم، لكن الكثير [غيري] كان دائم الركض خلف الأشياء الصغيرة التي تهمّهم، أشياء لا ترى، حقيقة لا أراها ولا أفهمها .

كنت دائماً أناجي الله.. فصَلاتي/دُعائي ينجيني.

ومع كل فَقْد كتجربة [يراها الناس خسارات] كنت أغيب في ترنيمة خاصة في هذا الكون، لأن السماء ترسل هداياها على أشكال متعدّدة من الحوادث، ليست كلها مفرحة بالتأكيد، فلا شيء يأتي بمقاساتنا المنتظرة/المعتمدة على حواسنا الخمس فقط، السماء ترسل محبّتها لمن يعي أكثر.

ونعم!

قد تستغرق منك الحياة الواحدة أكثر من ٤٠ سنة لكي تظهر أنت بهذا المستوى من الوعي ولو على أطرافه، ولعل هذا ما كنت أتهرّج/ أتدرّب عليه ومازلت.

قال لي صديق مازحا:

"ها قد وصلتِ إلى سنّ النبوّة بأقل الخسائر الممكنة"

ضحكتُ من تعليقه البدائي.

ضحكت لسببين، أولاهما أنني وصلت لما أنا عليه الآن [ما أسماه هو سنّ النبوّة] بعد جهاد مرير في التلقّي والفهم والنبش والمزاوجة والتقريب وإعادة الفَتْق والتحليل على مستويات مختلفة، أولها مع النفس وليس آخرها مع الأسرة أو المجتمع. ثانياً؛ لأني أؤمن بأن الإنسان الواعي قد تعب حقيقة على ذاته وبناء معرفته والارتفاع بها أكثر بمراحل عما فعله "الأنبياء" أصحاب "التكليفات" المرسومة والمنزلة والمقدّرة لأجلهم [كما تقول الروايات الدينية وكما يتداول المتديّنون].

خسائري الكثيرة [في أنظاركم] هي في الواقع أرباحي العالية من هذه الحياة، ودوري الصحيح فيها.

27

كان العام ٢٠٠٠ قد انتصف تماما.

فهل هبطت المعجزة؟

ليس هذا السؤال ما دقّ في قلبي مثل طبل بدائيّ الصنع، بل شعور تعاظم كأن تحسّ بأنك مقحم إجباراً/اعتياداً كي تكون ضمن دائرة كبيرة متسعة بلا خطط، وأنت ترّس ضمن غيرك [لا يهم حينها إن كنت فاعلاً أم لا، مستهتراً أم لا.. جاداً أم لا] وكم يفضلونك كترْسٍ مُثلوم كي تفتح لك أبواب الرضا، كلها.

ففي مثل هذه "الدائرة الثقافية" كن تابعاً [هذه أول الشروط غير المعلنة] ليس عليك أن تعمل، ولا بأس بغيابك المتكرّر ما دمت صامتاً، لا تنس توزيع سلامك على زملائك [التّروس المثْلومة] وابتساماتك الباردة الملحقة بسؤال لا ينتظر إجابة ليبادلوك بمثلّجات تواصلهم ابتسامات ميتة كذلك.

كان العام ٢٠٠٠ قد انتصف تماما.

صحوت من نومي ببطء العاطل عن العمل.

أُقلّب في مطبخ بيتنا الجريدة اليومية، همست أمي من بين دخان الشاي:

"اسمك نزل يا حلو"!

والحلو تعودُ عليّ أنا، مرتبكة بالتعرّف على مصيري الوظيفي، وجدتُ اسمي أسفلَ عنوان واسع قلّصته الجريدة "المجلس الوطني"، سؤالي كان حادًا:

"ما هو تحديداً"؟!

فهذا عنوان مقطوع مثل البشاوات الـ تأتي دوماً بأنصاف المعاني.اتصلت من فوري بصديقةِ حيرتي الأبدية [آنذاك]، "عنود" الاسم الحاضر للمهمّات شبه المستحيلة، وخلال ساعة من الاستفهام كانت تنتظرني بسيارتها وانطلقنا نفكّك غبش البِشارات.

في "ديوان الخدمة المدنية" العدد كان مَهولا.

اقتطعت/ اقتطفت رقماً جاوز المائتين ومضاعفاته من جهاز "ينظّم" دخول المراجعين، ملأتُ النموذج المعدّ لمن تم استدعائهم، وبلا صبر توجّهتُ إلى الشبّاك، سألت الشاب بثقة بينما أهزّ رأسي استفهاماً من وراء الزجاج:

"المجلس الوطني...؟"

أكمل هو العبارة بابتسامة استعارها من ممثّل وحركة يد أشبه بحركة مايسترو: "... للثقافة والفنون والآداب!"

"آآها" أطلقتها طويلة ودالّة بوجه صديقتي في الحيرة، أخبرتها:نعم، نعم.. هذا المكان هو المسئول عن تنظيم معارض الكتب وهو من يصدر مجلة "عالم المعرفة" العظيمة!

فرحةً كنتُ جدا.

فرحة كنتُ.

فرحة.

في يوم لاحق، وصلت بعد الاستدلال إلى مكان عملي المرتقب، في "الدبيرة"، ترافقني أمي، هل تراجع يومها منسوب الفرح [الذي كان]؟

هل تلك الوجوه الممسوخة [رغم الابتسامات الوادعة الملأى بالوعود] والتي التقيتها كانت نذير شُؤم متواصل [سيكون] لكني لم التقط الإشارات؟ [كنتُ بدائية إلى حدّ العمى] هناك رأيت [يومها] وجوهاً غابت عنها الرحمة، بدءاً من الدور الثالث [شؤون الموظفين]، عبوراً حتى الدور السادس [مكان مكتبي أول سنة من توظيفي وكان عبارة عن سطح مضاف اجتثّ لاحقاً بعد سنتين لمخالفته شروط السلامة] كلها وجوه كدّرتها الحياة بلا ريب.

ومنذ تلك السنة، منذ ذلك اليوم ١٦ مايو ٢٠٠٠ وحتى اليوم [٢٠١٨] أكثر من ١٨ عاماً أمضيتها/أمضيها في هذه المؤسسة المرموقة بالإهمال والتصدّع الإداريّ، المغمورة بفساد يؤذي الروح، روحي التي رفضت أن تكون مجرّد "ترس مَثلوم" ضمن من كسرهم الظلم وآذاهم الجور واهْتُضِمَت حقوقهم إداريا. لقد تنقّلتُ عبر سنوات الخدمة لما يزيد عن ستة مرّات بين المكاتب [غرف جديدة/قديمة، نقل وحزم وتضبيب] بينما وردت على الإدارة ما لا يطاق من نماذج بشرية، وعود كثيرة كلها فقاعات، صبر أطول مما كنت أظن، تجارب مرّة شاب منها قلبي [الذي كان ينسج الأمنيات على قدر الاجتهاد] ولكني فهمتُ كل ذلك لاحقاً، آمنت طويلاً [بعد التجارب] بأنني لابد من أن أتصادق مع اللعنة/الحقيبة التي وُلدت معي، أعيد فهمها بشكل مختلف/ شكل ماتع، بل وأن أفرح بها كتميمة تحرس طريقي.

سنوات قاربت الـ ١٨ عاما، أمضيتها [وما أزال] في الوظيفة الحكومية، لمؤسسة ورثَت النوم عن أصحاب الكهف في الحكاية الدينية الشهيرة، وخلال

كل تلك السنوات [مع كل تغيير إداريّ مرتقب] لا يتبدّل أي شيء إلاّ لما هو أسوأ، فالسؤال لا يتغيّر وهو الأزلي: "كم لبثنا"؟ وهو تماماً ما يطرح في كل موسم جديد تختص فيه مؤسّستنا الثقافية الأولى في البلد [المؤسسة التي كنتُ أحبها جداً في الواقع]. مع ذلك، فإن الترهّل في العمل يفقد شغفنا بالأشياء، فالوظيفة عبارة عن علاقة تبادلية من العطاء، أعطيتها الكثير لكنها حرمتني [بلا عدالة] من الكثير أيضا.

هذا ما كان.

تنقلت بين الكثير من المهمات والمناصب، بلا فائدة مرجوّة في التغيير نحو الإصلاح والإنتاج، فالنظام واحد، نظام ميت، ونوم "أصحاب الكهف" ما يزال مستمراً وفرشاتهم دفيئة بالطمأنينة [فلا أحد ينبش في الفساد إلاّ لمصلحة].

منذ منتصف عشريتي الثالثة، وحينما في الأربعين: الآن.

عيناي ووعيّ على التحرّر أكثر/ التخفّف أعلى، كانت نواياي وما تزال تنبع من الرحمة والفعل الأكثر أتساعا وتأثيراً لأكبر عدد من الناس ما استطعت إليهم [عبر كتاباتي] سبيلاً/ سبلاً، فإن من أهم ما يمكنني ممارسته بصدق وتخفّف هو التحرّر الوظيفي.

كنت قد تحدّثت عن مواقفي الخاصة من الفساد وما يجر وراءه من أذى.

ففي [٢٠١٢] تركتُ [وأنا بكامل وعيي وألَق حضوري المهني] منصبي/ موقعي الوظيفي كـ ردّ حادّ، حاسم/صادم لكلّ من كان حولي [آنذاك]، لكن هذا الترك راق جداً للمسئولين بكل تدرّجاتهم حينها، لم يكن مستغرباً هنا القبول السريع والمباشر والذي اعتمد رسمياً بتوقيع كبيرهم للتعجيل بإخراجي

من دائرة الرسمية التي كنت أشغلها كمنصب لمطبوعة بدأتها [مع زملاء منذ سنة ٢٠٠٠] نزاماً واختياراً للكويت عاصمة للثقافة العربية، تدرّجتُ من محرّر مبتدئ حتى مدير للتحرير؛ وكان للوصول ألف عَصا وضعت في عجلات مثابرتي ولم أكترث إلاّ بتقديم أجْود ما يمكن [ضمن أجواء عمل لوجستيّة هي أسوأ ما يمكن]، لقد تعرّفت وتراسلت وتواصلت مع أهم الأسماء العربية حول العالم ممن أثْرَت أسماؤهم ودراساتهم/مقالاتهم وترجماتهم الجريدة الفنية التي تحاكي نخب الفنانين والقرّاء على مسطرة واحدة.

لكنه الفســــــاد حين يُعمِل مِعْوَله في كل ما صُنع بمحبة عالية.

مُهِرَ طلبي بالاستقالة من مَنصِبي كمدير تحرير في الجريدة، نظراً للتدخّلات الكبيرة التي مورست فأربكت سير العمل، تلك التدخّلات كانت ممن جِيء بهم من دون صفة إدارية تنفيذية، لكنهم "مَعارفُ" المؤسسة. تمّ التوقيع بالموافقة على طلبي بالاستقالة بسرعةٍ خارقةٍ [على ميزان المعاملات الورقية في الدوائر الحكومية]، وكان ذلك طبيعياً جداً ومنتظراً جداً، فمن تراهُ يرغبُ بالاحتفاظ بـ شوكة مدبّبة تُؤذيه كلّ الوقت في خاصرته؟

كنتُ أنا تلكَ الشوكة.

إن الموظفة التي تأتي مُبكراً جداً منذ التحقتْ بهذه المؤسسة [الـ تحملُ اسماً عظيماً والمَواتُ يَسْكنها] ولا تَتركُ العمل إلاّ متأخراً، لا تَغيبُ إلاّ نادراً جداً جداً، وتَتجنبُ الأعذار المرضية حدّ اللاوجود لها! قد تَحرّرت منهم بمساعدتهم.

أُقصيت عن حضوري المسئول عن اعتماد مطبوعة فنية كانت تصدر بانتظام شهريّ ويكفيها/يكفيني أنها [مُنذ استقلت] لم تعد كذلك! لقد تحَررتُ منهم بمساعَدتهم، واكتفيتُ من وقتها بمعتزلي الخاص، للكتابة والتدوين، الاشتغال الأكثر فائدة ورحمة للناس ولي، من دون قيود [حتى وإنْ بدت الرقابة في وطني مجنونة في الخَنْق]، ففي الواقع لم يعُد الكاتب الكويتي بحرمانٍ مما يريد ومثله الكاتب العربي، فبمجرّد أن "مَنَعَتْ" الدولة عدداً ليس ببسيط من الكتب الثقافية كنا قد وجدناها بسرعة هائلة وقد انتشرت على الشبكة ومجاناً لمن يريد، والرقيب يتعامى ويَنْظُر بنصفِ عين وانتظار لقرار "دولة" جديد لسَحق الكتّاب بشكل بدائيّ جديد!

في يوم الذكرى الوظيفية الماضية ١٦ مايو [بعد ١٨ عاماً من الخدمة للدولة]؛ كتبتُ على صفحتي في "الفيس بوك":

"إنها السنة الثامنة عشرة لي في الوظيفة الحكومية وأنا مُجَمّدة، والحكومة تتظاهر بالعَمى"

علّقت صديقة عابرة قائلة:

"من كان دفعتك في التوظيف قد صار وصار.."!

أخبرتها:

"من قَبِل ليصير شيئاً في هكذا مُجتمع إداريّ عاهِر، فمؤكد بأنه قدّم تنازلاته الكثيرة وقاسَمَهمُ الفَساد، لا أرانا الله هذا اليوم، فمن ترّاه يُريد التعامل مع أكياسِ السُّخام ليتسخّم"؟

28

إنني [الآن ٢٠١٨] على الدرجة الأولى وظيفياً مع عدد من العلاوات التي أهدتها إليّ الدولة [بشكل روتينيَ]، لكن "العَزْل الوظيفي المعنوي" أكثر شرفاً من كلّ مناصب الدنيا، إنني من خلاله أُمارس دوري الحقيقي الذي نُذرتُ لأجله، أمارس الوداد على الورق، أبرزُ الحَق وأُعيد ترتيب مسارات حيوات البشر عبر الكتابة الحُرّة والقول الواضح، والدولة/ المؤسسة تمارس دورها [لأنَ لديها السلطة] في عَزلي، كمحاولة رخيصة للضغط عليّ لإعادتي للصواب الذي تَراه، تَمنَع الكتب، ومؤخَراً مُنعت مقالاتي من النَشر في الصحف الخاصة أيضاً [وصارت تُحال لمحامي المطبوعة للبتّ فيما أكتب]، بل أنا لستُ مُدرجة أساساً على لائحة "الشباب المبدع" التي أنشأت الدولة [نفسها] لهم وزارة ترعاهم وإبداعهم وتكرّمهم.

الدولة تُشعرك بأننا [ومن مثلي] مَنبوذ، أو هكذا تظنُّ أنها تَفعل.

لكني في الواقع أنظر نحو هذا كله بمرحٍ وامتنان، فإبقائي في "مَعزل" هو في الواقع اختياري الذي سَبقتُها إليه حين قررتُ انتشال روحي من القطيع اللاهث تحت عنوان "الثقافة"، فهناك دائماً وفي كل مكان "كُتّابٌ للبلاط" ولستُ منهم أبداً.

هذا الفرز الذي مارسته "الدولة" [وما تزال] عَبْرَ التهليل والإعلاءِ والدّعم [الماديّ والمعنويّ والإعلاميّ.. وأكثر] لــ "أبنائها البَرَرَة" ممن يحملون قلماً مذهَباً أهدتهم إياه "ذات رعاية"، مَكّنني/مَكّننا [رفيقي وأنا] من الحَفْرِ أعمق في مساوئها.

مكّننا من الانتباه العالي لنوايا زملاء "المهنة" ممن باعوا "الشُرف الإبداعي" مقابل رضا كامل منها، هم من أطلقت عليهم "سوزان سونتاغ" ((الكوليسترول الثقافي))!

لكن.. كيف تعرفُ بأن الدولة [مُمثّلة بمؤسّساتها المَعْنية بالثقافة وكل مسئوليها المنضوية أسماءهم تحتها] راضيةٌ عنك؟

سؤال جيّد!

تعرفُ ذلك حين تُفَضّل على مقاسات ولاءاتك جوائزها وعطاياها واحتفائها. حين تَسْتقطِبُكَ عبر مؤسساتها لتُسلّمك مَنصّاتها كي تقول اللاشيء، ثم تشكرها آخر الليلة، حين تطوفُ بكَ العالم سَفَراً "ثقافياً" بتكليفات "شَرَفيّة" ويحتلئ جوازك بأختام دخولٍ وخروجٍ لدولٍ لم تَعرفها قبلاً وينتفخُ جيبكَ بــ دنانير اليَوْميّات خلالها.

حين ينمو أرشيفُ صورك في الصّحف ويتوسّع وتستحيل فيها ابتساماتك بلاستيكية يغمرها طلبُ المزيد، فأنتَ حاضرٌ جداً بكل الخدمات المتوقّعة أو غير... لــ تَبييضِ وَجهِ "الدولة"، وحين تعودُ لا تَعرفُ نفسكَ القديمة ولا تتعرّفَ علينا [نحن المعزولين] ولو بالمصادفة، وتُنكر معرفتك بنا [رغم أننا من راجعنا نصّك الأول يوم كنت تتملّقنا وتنادينا أستاذ/ أستاذة].

والدولة؟

لن تعجزْ وهي الـ تَملُكُ مفاتيح الخير كـ سُلطة عن مُكافأتِكَ/كم التي نَعرفها والتي تُمرّر بالسرّ [لكنها مُعلنة في الواقع] عبر ترقيات العمل، واللّجان المتوالدة من بطون بعضها والتغاضي عن الغياب الوظيفيّ والدّروع التكريمية والسطوع الإعلامي، وصولاً حتى آخر المُدَغْدِغات؛ عَرْض صُوركم على أبراج الكويت لليلةٍ كاملةٍ احتفاءً بأبناء الدولة "النُّجباء"، فهؤلاء من نرعاهم.

بينما، عُقولنا ومَبادئنا مَن تَرعانا، وتغيّر خرائط أيامنا للخير والقوة والعطاء، لنمدَّ أيادينا للآخرين لمزيد من الرضا والقبول واحترام الذات بعيداً بعيداً بألف خطوة من الدَنَسِ وعرضِ الأرواح للبيع، إن الفقير لإنسانه هو فقط من يرغب دوماً بالمزيد من كل شيء يحملُ ثمناً، لكن من يقتفي آثار الفضيلة ينال الغبطة.

القاعدة الواضحة:

ارم نفسك في أحضان السلطة/ الدولة ولن تُقصّر في تَذليلك، قَبّلْ أكتاف "لابِسِي الحرير" ومَسّد جِباههم بالتملّق الإبداعي الرخيص ومارس الصمت طويلاً/ جداً / دائماً؛ كصيامِ نَذْرٍ لا يَنتهِ عن رؤية الحقيقة، كي تفوز بما تَحسَبُهُ أنتَ فوزا!

29

في الواقع لم تكن "مُصادفة" وأنا التي لا تؤمن بالمصادفات، بل بالإشارات وما ورائها، أن يَستجدّ "شَرْطٌ جديدٌ" ضمن بند الشروط للتّقدم لجائزة الدولة التشجيعية والتقديرية في الأعوام ما بعد [٢٠٠٨]، شرطٌ يَمنعُ المبدع الموظّف العامل ضمن المؤسسة الثقافية راعية الجائزة من التقدّم إليها، خصوصاً بعدما نال كل المبدعين "هناك" أنصبتهم من الرّضا والدنانير على مدى سنوات، بل هناك من تكرّر حصوله عليها من دون أدنى مساءلةٍ إداريةٍ ومن دون سَطرٍ واحد كُتِبَ على هيئة استفهام في الصحافة المحلية الثقافية!

لقد وُضع هذا "الشّرط/الحقد/الفخ" حينما لم يتبقَ سواي من "مبدعي" هذه المؤسسة في حينها.

بعد سنوات، أُزيل هذا البند/ الشرط كنوع جديد من "الفِخاخ" التي تزرعها رؤوس هذه المؤسسة من جديد، على اعتبار ابتهاجي وغيري والمسارعة للتقدّم ونيل مباركتهم وعَفْوَهُم، خططهم تنمو في الغرف المغلقة؟ لا.. أخبرني زميل؛ إنها تُحاك في مزارع تحتضن سهرات مرتّبة.

هل اكتفوا بالإعلان عن إلغاء الشرط؟ لا.. بل بدؤوا بإرسال عدد من "مُهرّجيهم" لإقناعي بالتقدّم للجائزة، كانت إجابتي دائماً قاطعة:

"تحياتي لمن أرسلك، أخبره بأن عروضه الفاسدة لا تناسبني إطلاقا".

في العام ٢٠١٢، الدورة التي بها كنت قد استقلتُ من منصبي.

فُتحَ باب المشاركات لـ باب مغلق أبدا، هو باب الفلسفة، تناقشنا طويلاً رفيقي وأنا حول إرسال مساهَمَتَهُ للجائزة من عدمها، كانت لَهُ [حينها] وجهة نظر مختلفة عنّي وهي أن الجائزة باسم الكويت، تحمل اسمها، وهي من حَقّنا كمواطنين مبدعين، هي في الواقع لأبناء الكويت، ولأننا أحرار دائماً فيما نقرّر، فقد اختار إرسال متطلّبات الترشّح بشكل عادي/ رسمي، بانتظار نتائج الجائزة التي تظهر في أواخر العام وتنشر في الصحف الرسمية.

إليكم ما حدث!

لقد رُفِعَ بابُ الفلسفةِ بأكمله من إعلان النتائج وكأنه لم يَكُنْ أساسا.

لقد اعتدنا حين لا يتقدّم أي شخص لباب متاح، فإن يوم إعلان النتائج يعلن عن "حَجْبِ" الجائزة، لكنه لم يَحْدُث في تاريخ الجائزة أن غُيِّبَ الباب عن الذكر تماماً، غير أن المعجزات ما زالت تَحدث؛ فبعد شهرٍ واحدٍ من الإعلان الرسمي للنتائج، تلقّى رفيقي اتصالاً شفّافاً من أستاذ جامعة من لبنان، اسم مرموق، كان عُضواً ضمن اللجان للجائزة، كان قد اطّلع [كما أخبرنا مُعرّفاً بنفسهِ] بحيادية تامة على كتاب الفلسفة الذي شارك به "عقيل"، وأخبرنا بحزنهِ العميق جداً لغيابِ باب الفلسفة وكأنه لم يكن، على الرغم من أنه [عُضو اللجنة] قد كتبَ تقريراً إعجازيا خارقاً في امتداح العمل واستحقاقه للجائزة طبعاً [قرأنا التقرير لاحقاً] وأخبرهُم هو حرفياً بأن هذا الشاب فيلسوف حقيقي وعلى الكويت أن تَفْخَر بهِ.

عبارة واحدة ردّ بها رفيقي على الأستاذ اللبناني عضو هيئة التحكيم لجائزة الدولة:

"يا دكتور (...) لقد استلمتُ جائزة أعلى الآن عبر تقريرك وهي في الواقع أكثر محبّة واسْتِقامة، رأيكَ الذي أرسلته لي سأعلّقه في بيتنا لأنه جائزتي الحَقّة"!

التقينا بعد سنة واحدة بهذا البروفيسور [الذي صار من بعد ظلم الدولة لنا صديقاً مقرّباً جداً]، الذي أخبرَنا على جلسة شاي طويلة في هواء الكويت بالتفاصيل كاملة، وأخْبَرنَا عن أسماءٍ من كانوا تحديداً وراء تَغْيِيبِ اسم "عَقيل" وغلقِ باب الفلسفة واستبعاده من الجائزة، واتفقنا نحن الثلاثة على أنها جائزة للـ "نُجَباء" فقط من أبناء الدولة.

30

وأنا أضعُ قدميَ على حافة الأربعين مُودّعةً ثلاثينياتي الغنيّة، أمارسُ انتظاراً رحيماً في معتزلي كي أنجو بنفسي أكثر نحو "التقاعد"، الاستقرار المشروع لإنهاء علاقتي الرسمية بـــ "الدولة"، أنتظرُ [وهي حقيبتي "الكازميّة" وبها أعيش وأستمتع] وأنا على يقينٍ من أنّ أكثر المُكرِهات إيلاماً هي عندما تَتقدّم أفكارك على عملك/ مكان عملك، لكنها الرسالة التي بها "نزلتُ" وأتمسّك جيداً بفهمها وقبولها.

إنما الغريب حقاً في تكليفي الربّاني هو؛ أنني دائماً ما أُحاطُ بزملاءِ عملٍ/ تطوّعٍ/ احترافٍ، تجمعهم النصف رغبة في الإنتاج، والربع يقين من الاجتهاد، يبحثون دائماً عن "رأس" يُمَنطق الأحداث/ الأشياء لهم ومن حولهم ويقود "التّيه"، الذي يلبسونه ويدلّهم على الخلاص عبر تنفيذ ما يُطلبُ منهم.

ومُدرائي- وما أدراكُم - كانوا دوماً ممن جاءَتْ بهم ضَربات الفساد ووكلات التّنفيع/ التَرفيع ورَميات نَرْد المُقامرات/التحديات والانتقامات، ومن ثم، خلال سنوات عملي الوظيفي كنت أُمارس أدوارهم "الإداريّة" الفعلية/ المفترضة/الداعمة لما أُقدّم، خصوصاً بعدما اكتشفتُ بأن هناك دائماً ضِفّةً مناهضة لما أقترحُ في وظيفتي لتبرز أسماؤهم وترسّخ مقاعدهم حتى بعد بلوغهم سنوات الاستغناء عنهم ولا يحدث.

طاف علىّ وَغيي ما يُقارب أربعة، منهم مُدراء مباشرين، بأمزجة متشابهة متشابكة [بلا اتفاق] وبشكل عجائبيّ رغم التباين الكبير في بيئاتهم الأصلية. لكن.. كيف لي عدم الانتباه لدور "الكارما؟" وتقديراتها في تكرار بعض المواقف على المدى البعيد؟

لقد فهمتُ الفكرة، فهمتُ الرسالة..

تناقَصَتْ المُصّادَمات مع المُدراء ومع الزملاء، لقد اخترت دوري الحقيقيّ، اخْترت الترقّي الداخلي واستكمال رسالتي عبر تدرّجها الروحاني وإعادة تأثيث "حقيبتي" الأزلية وهذا هو الأجدى.

31

إن ضرائِبَنا غالية الثمن.

لا يوجد مبدع حقيقي/أصيل يظل مُتمسكاً بمبادئه ويحميها من التشوّه والذّبول في طريق عطائه وتواصله إلاّ ويقدّم من عافيته/صحّته قرابينَ لربِّ الإبداع وإله الحرية وذلك في مراحل من حياته/جهاده في الكتابة والقول والتصريح والفعل.. قربان الصّحة، أو ضرائبنا غالية الثمن التي ندفعها من سلامتنا، هي أختام لابدّ منها!

تقسّمت تلك القرابين على سنوات لم تكن رحيمة بجسدي، أو لعلّي أنا مَن لم تكن رحيمة/ واعية لرسائل هذا الجسد الـ يدقّ أجراسَهُ/أمراضَهُ ليقول لنا سرّاً، أو أكثر من سِر [لم أكن قد بلغت الإدراك الكافي الذي يمكنني من معرفة السبب الروحاني للمرض في تلك الفترة].

في أولى تبعات اختياري للتحرّر، في العام ٢٠١١ تحديداً في الصيف، عانيتُ بشدّة من "دُوار" قَلَبَ الاستقرار النامي حديثاً في روحي/بيتي/قلبي، لكن هناك دائماً من نُطلق عليهم "هادِمُو اللذّات" يظهرون في اللحظة الأكثر صفاءً وسكوناً ورحمة، يتسبّبون في وجعك على غفلة! وبعد شهر كامل من الزيارات الطبية واختبارات للأذن وعيادات مركز التوازن في الجسم، شُخّصَتْ إصابتي بـ "فيرتيغو"، كان هو بمنزلة الضوضاء الداخلية والدّوار العنيف،

يشملها دوماً الرغبة الأكيدة / الوحيدة للسكون والصمت، غثيان وتقيُّؤ أحياناً، وميض ضوء ساطع فيما بين العينين وكلّ أفكاري تصبح على مستوى ميّت من الأهمية هو المستوى صِفر، فالرغبة بالتوازن فقط هي الجنة والنعيم الذي يَصْعُب عليّ بلوغه!

عقدتُ صداقة شبه إجبارية مع الدكتورة"منال"، ساحِرةُ تمارين التوازن ورفيقة الفهم لارتباك الأذن الداخلية، وتصاحبتُ مع دواءٍ يرفعُ الحيرة ويجعلُ روحي أكثر خِفّة وارتياحاً، على المدى الطويل بجرعات تفهمني وأتبارَى معها بحسب شعوري واتّزاني.

تنبّهت لاحقاً بأن "الأذن" [كمركز توازن] جرسُ إنذار هام جداً يخبرك بأنّكَ خائفٌ من شيء ما، تشعر بعدم الاستقرار على أرض صُلبةٍ تَحفظك، بأنك لا يُعجبك ما تَستمعُ إليه من تدخّلات في حياتك، حين توجعك أذنك، أو حين تُصابُ بالصَمَمِ المؤقّتِ نتيجة الْتهابها مثلاً، تعلمتُ مراجعة أفكاري/ مخاوفي/ ما يقلقني منذها، والسيطرة عليها.

مرحلة الاكتشاف هي مرحلة ضباب كثيف، عُمق مُبهم في أوّله، لكنه يحفّز على الغوص والتعرّف إليه، التعرّف إلينا في الواقع!

في صيف [٢٠١٣]، كان ذلك حقيقة بعد المعركة الشرسة التي خُضتها رفقة والدتي في أشهر مرضها/شفائها، قبلها كنتُ أيضاً قد خرجتُ من صِراع طويل مع الوظيفة، تَظْهَرُ نتائج أذَانَا بعد تَخفّفنا وتركنا لما كان يؤذينا، تجاربنا/ أسباب وجودنا على هذا الأرض، ربٌّ يشاء، لكن البشر يفعلون أيضا.

في تلك التجربة انقسمت الضرائب/القرابين الصحيّة على مراحل؛ آلامٌ في الكتف الأيمن كانت تُرافقني كل الوقت ولا أفهمها، ثم نبض عالٍ بدأ يدقّ في

رأسي مربوطاً بمنتصف القلب/ الرأس، شعورٌ غامرٌ لكنهُ يُعطل حُسْنَ واستحسان الحياة! هكذا شرحْتَهُ للطبيب، الذي ابتسم لي باندهاش وطلب مني أن أُكملَ الوصف!

أخبرته بأنه أيضاً شعور يشبه الركض المتسارع، لكن من دون حركة، كما يشبه الهضم المتعسّر في الفهم!

كنت أظنّه [وبعد صمته الطويل] أنه كان يراني من "الطّرفِ الميت" من عدسة نظارته، تلك الزاوية التي لا تقدّم سوى الغبش، منتظرةً منه جواباً / تشخيصاً يفتح نافذة الفهم [أنا التي أشعر بالقدسيّة والرحمة في حضرة الأطباء والمعالجين بالطبيعة، شعور بالوصول والطمأنينة والأمان الغامر وأنا معهم]، همس لي:

"أنت شاعِرَة"؟!

ازْدردتُ ريقي وما تكلّمت.

استأذَنَ بسحبِ ذراعي ليقيس الضغط، وفمهُ مبتسمٌ جدا.

صاح بلهفة وحزن مشتبكين بعد قراءتين:

"مبس! Join the club"

تمّ تشخيصي بعد أسبوعين من المتابعة الدقيقة بأنّ لديّ ضَغط دم مرتفع يستلزم مبدئياً "حبة دواء واحدة".

بعد ٣ أسابيع، زرته في عيادته، وبصوت خفيض أخبرته بأنني لست "تماماً" عَلى ما يرام، ٣٠٪ مني مُتعب، دعاني للجلوس أمامه ولم تغب ابتسامته المندهشة مني، أخبرني بأنه تنبّأ بعودتي قريباً، أعاد قياس ضغط دمي، أوْمَأ، أنتِ

مراقبٌ جيدٌ لجسدك.

وصفَ لي [مُنذها] نوعين/قرصين من الدواء، وشرح لي كثيراً عن الفوائد والمضار على حدّ سواء، وأسرَّ إليّ:

"هي الحبوب التي أتعالجُ بها أيضاً، فلا تقلقي ..."

سألني عن عملي، اهتماماتي، وكم أسعدَهُ أنني أحيكُ من الكلام قصصاً وروايات للناس، وذعني قائلاً: "عقبال الكتاب رَقم مئة"!

مزهوّة بسعادته كنت على "كاونتر" الصيدلية استلم الوصفة، انتشلني اسمي الذي نُوديَ بهِ على غَفلة، أجبتُ بـ نعم.

أعاد الصيدلي السؤال متشكّكاً: "أنتِ مَيس؟! أنت المريضة؟ أخبرته هي أنا، تفضّلْ، كان يُقلّبُ عُلَبَ الدواء مُتحسّراً، كم عمركِ؟ هذه أدوية تُصرف لمن تجاوزوا الخمسين!"

ابتسمت: "أنا كبيرة منذ ولدت في هذه الحياة يا دكتور، لا تهتم، وقُل لي مع أيّ من الحبّتين أبدأ يومي"؟.

ضحك من أنفه وقال: مع الكبيرة أيضا!

والحبوب الخافضة للضغط هي في الواقع مثبّطة للحيوية!

رغم ذلك، فأجسادنا مخازن قوة، هي كيانات صالحة للخير دائماً، تتماهى مع الشر وخدمته بسهولة، إذا ما انتبهنا لنوايانا.

وبعد قراءات فاحصة/دراسية [لسنوات مستمرة حتى الآن] تعلّمت بأننا نُصاب بضغطٍ مرتفعٍ لأننا من فصيلة البشر الديناميكية، وهؤلاء في حركةٍ معنويةٍ وفعليةٍ دائمة، في العمل وفي الحياة، يبتغونَ الأجْود ويعملون لخلقِ "الأحسن"

ولا يقبلون بأنصاف الحلول ولا أرباع النتائج المَرجوّة، بشرٌ يقفون على حافّةِ نزعاتهم الزاهية ويركضون في أماكنهم؛ [هكذا أخبرتني معالجتي الروحانية]. لذا، تصادقتُ مع تخفيض الحَماسة والديناميكية العالية خصوصاً فيما يخصّ "العمل الوظيفي"، ثم ما يخص "الحياة"، وعقدتُ اتفاقاً يومياً / ملازماً مع "حَبّتيّ الدواء" وعيادة "الأمراض المُزمنة" في مستوصف المنطقة كتفاً بكتف مع من ناهزت أعمارهم ما فوق الستين، مُنصتة على الدوام [في زيارة كل شهرين لاستلام جُرعة الدواء] لقصصهم وحكاياتهم المشاعة عن أبنائهم وحسراتهم.

كل تلك القرابين كانت وعمري لم ينتصف ثلاثينياً.

لكنني وبينما في نهايات الثلاثين، زارني ما يُعمِلُ أذاه ليس قُربَ القَلب، بل في النصف الأيمن من أعلى البطن / كالإبرة الساخنة، يناوره نغزٌ بالتوازي معه أشعره في ظهري، أومأ لي الطبيب الواصل حديثاً إلى الكويت [كما أخبرني هو بسعادة متعاظمة في عينيه]، همسَ بما يشبه الخشية، لعلّه التهاب في المرارة، سنعمل كشفاً دقيقاً.

تمدّدتُ بمساعدة الممرضة الحنونة، وكان هو واقفاً قرب أقدامي يتحدّث عن الكويت [اكتشافه الأحدث والأجمل] يمتدح النظافة والنظام، وتسعدني سعادته وأتفهّمها.. بعد الفحص السريريّ، وكثير من التحاليل والصور الطبية التي ألصَقَ عليها "عاجل جداً" لمساعدتي، تبيّن صِحّة تشخيصه، ناولني ورقة الوصفة الطبية وهو لا يريد لحوارنا أن ينتهي، تحدّثنا طويلاً وكان منبهراً بكلماتي بشكل وصلني واضحاً، ابتسامته لم تَفْتر ولم تَغِب، سألني: "ما هو عملك؟"

أجبته: "أنا أكتب يا دكتور.. روائية أنسج قصصاً لا تنتهي"

توسّعت ابتسامته، بدت لي أسنانه كلها وهو يقول: "يا سلام! أنا محظوظ بالتعرّف إليكِ، إذن"!

أوصلني لباب عيادته وهو يوصيني بالتعافي لأستمرّ في الكتابة فلا تتوقّف الحكايات.

كان يغمرني الفرح دوماً بسببهم، وكأن البهجة مُغذِية كلما خرجت من عيادة دكتور ما، لأن إجاباتي على أسئلتهم تُدهشهم بشكل ماتع، لقد كنتُ أجيبهم بصدق وبمحبة وبشكل عادي جداً، مع ذلك يفرحون بعباراتي للغاية.

لقد اعتدتُ من ٢٠١٢ [منذ مرض والدتي وشفائها] ألاّ أخشى الأطباء ولا أجهزتهم ولا تكهّناتهم ولا شكوكهم، لكني اعتدت على التوازي أن أُنصت بقلبي لما تخبرني به المعلّمة "لويزا هاي"[١] وأبحث عن الأسباب الحقيقية التي آذت أعضاء جسدي بحيث أطلَقَتْ آلامها جرساً للإنذار لأكفُّ عن سلوكٍ تسرّب من وعيي فأرْهَقَ/ دنّس روحي.

إنني أنتبه.

أفهم أسباب كل هذه "القرابين" التي نقدّمها على مذابح تعاظم المشاعر نحو الأشياء والأشخاص والأحداث على حدّ سواء، لقد كرّست سنوات من حياتي لدراسة "ما يرد المرض أن يخبرنا به" عبر إصاباتنا غير الواعية عادة، تعرّفت على طريق النور، وتلامست أكثر مع ما يفسّر المعاني الكامنة وراء هذا الثلاثي المرتبط ببعضه بقوة/ بقسوة: الحياة والمرض والموت، وكل ما بينهم من تفاصيل هي تجاربنا التي نبقى نحارب من أجلها، لن تفهم أبداً ما لم نعشه

---

(١) ١٩٢٦ـ٢٠١٧، كاتبة في المجال الروحاني الشافي للجسد.

بنفسك تماماً كمن يفسّر لك حُلماً أنت من رآه، هذا ضرب في الجنون.

علينا مُحاورة أجسادنا لفهمها، لأن أجسادنا تشحنُ أيامنا بالراحة لما يَحتملُ هذا العالم الغافي بالعجائب، قبل أن يبتدئ ما وراءه من معانٍ، هو تماماً حين نتأمله، طينٌ مَصبوبٌ بعناية فائقة على عضلات وأعصاب، مكسوّ برحمة الجلد الـ يُخفي عن وعْينا/ عُيوننا المجرّدة كل التفاصيل الدقيقة كي لا ندهش كل صباح مما نحن عليه من جهاد للبقاء والتكوّن.

صرتُ أبرعُ [منذ مدّة جيدة] في مخاطبة جسدي، أحاوره كرفيقٍ ملتصق بي كل الوقت، نحن في الواقع صِنْوان روحي المعنوية وهو بماديته الملموسة نشكّل "أنا"، لنستمرّ لابد من أن نكون على مستوى واحد من الشراكة الواعية لحراسة ما سيكون خلال "الرحلة" [كلّ رحلة] حتى انتهائها بسلام.

32

يوم وُلدتُ [في هذه الحياة] جئتُ حاملةً نتوءا صغيراً زائداً في شفتي السفلى؛ تمّت إزالته بغرفة العمليات الصغرى سريعاً، ولأنني من مواليد العام [١٩٧٧]، حَضَرتُ لهذه الدنيا [لمرةٍ جديدةٍ] بثقبٍ صغيرٍ جداً يقع في مُحيط أذني اليمنى [يولد بعض الناس بنسبٍ ضئيلة وهم يحملون ثقباً شبيهاً]، لكن لماذا مواليد العام ١٩٧٧ على الأغلب؟

راجت إشاعات في تلك الفترة [حكت لي والدتي] حول عُبور "مذنّب هالي" في ذلك العام تحديداً ليجتازنا نحو مدار "أورانوس"، وعُبوره المنتظر [آنذاك] قد يترك علاماته على مواليد تلك السنة خصوصاً ممن سيولدون في شهري سبتمبر/أيلول و أكتوبر/تشرين أول .

لكن هذا الثقب الذي وُلد معي فعلاً، واكتشفْتُهُ في المحيط الخارجي لأذني اليمنى صِدفة حينما كنت في الابتدائية [الثالث الابتدائي] يوم دَعكتُهُ لأنه أصابني بشعور حُكاكٍ غريبٍ وسالَ منه نتيجة للدّعك سائلٌ يميل لونُه للأبيض برائحة غريبة كانت نقطة أو نقطتين على الأكثر، ولأنني كنتُ في عمر الاستكشافات المذهلة [بالنسبة لي] سألتُ أمي عنه، أخبرتني عن حكاية/ إشاعة "مذنّب هالي" الذي عبرنا نحو "أورانوس" في توقيت مولدي [الجديد/ الأخير]، متمتمة بأنها تحمدُ الله لم يكُن ثقباً في قلبي لكانت فَقدتني!

اكتفيتُ وأنا ابنة ثمان سنوات بإجابة غامضة كبيرة كهذه.. ولم أكترث.

مع ذلك، كنتُ مفعمة بالإثارة، لأنني كنت أستخدم إجابة "ماما" تلك كجملةٍ مترافقة كلما تساءَلَ أحدٌ ما عن سرّ هذا الثقب المتطفِّل.

بعد هذا بسنوات طويلة، بعد أن التحقت بوظيفتي، منتصف العام ٢٠٠٠، التقيت بزميلة عابرة ضمن مشروع عمل، انتبهت هذه الزميلة للثقب المجاور لأذني اليمنى، سألتني من فورها:

"أنتِ من مواليد ١٩٧٧"؟؟

أومأتُ لها بنعم مندهشة، أردَفت هي: "سبتمبر أم أكتوبر"؟

علمتُ يومها بأنني [أخيراً] ألتقي بشخصية تفهمُ تلك الإشاعة/ الحقيقة/ الحكاية القديمة [لا فرق] ولم تسألني عن سبب وجوده، فمنذ سنوات طفولتي والسؤال يتكرّر، بعضهم "يَخجل" من طرح السؤال مباشرة، فيظل يُحدّق به/بي بصمت أكثر بشاعة من الاستفهام.

هذه النَّدبة/ العُقدة/ الغمّازة، أو الثقب المجاور لأذني اليمنى، يلتهب أحياناً بلا سبب أعرفه، ربما حين تتبدّل طبيعة الجسد بين مرض أو صَحْو مثلاً [انخفض عدد مرّات الْتهابه حين غيّرت نظامي الغذائي] وحين توافرت آليات البحث المتطوّرة، قرّرت التكريس للبحث حوله، لقد وجدتُ عدداً لا بأس به من "المُصابين بثقبٍ مجاورٍ للأذن"؛ المَدْموغين بهذه الأعجوبة الصغيرة جداً، إذ دارَتْ الكثير من الأساطير حولها، وهو عبارة عن "علامة ولادة فريدة من نوعها" وبأن من يحملها يشكل ٢٪ من سكّان الأرض، وهي في الواقع ثقوب وراثية تحدث خلال مراحل تطوّر الجنين المبكرة، لكن؛ ما دلالة هذا الشيء؟

لقد وثّقها "فان هايسنفر" في العام ١٨٦٤ لأول مرة؛ حين انتبه لها.

في الحقيقة تعايشتُ معها لدرجة محبّتها، وحينما قَصُرتُ شعري جداً باتت "نَدبتي" أكثر وضوحاً وظهوراً، غب أني حينما أُسألُ عنها الآن وأنا في الأربعين؛ "أجيبُ بأن هذه ميزة خالصة مهداة تحديداً لمواليد العام ١٩٧٧.."

لقد اكتشفتُ منذ بدأت بممارسة السّرد احترافاً، بأن الإنسان هو الكائن الشغوف أكثر بالحكايات التي لا تصدّق في العادة!

وُلدتُ أيضاً [في هذه الحياة] حاملة "الرّبو" إصابة حَتمية/أخيرة كانت السبب في "موتي" في الحياة السابقة [أخبرني معلّمي وتعرّفت على ذلك من جلسات الاستدعاء ولستُ أُجبر أحداً على التصديق] وذلك حينما عاصرت "مرض الطاعون" في ذروة تفشّيه في القرن الرابع عشر في بقعة من بلاد الله [ستجدون بعض الإشارات في مكان متقدّم من هذا السّرد].

وفي رئتيَّ بقي السعال ملازماً لي، يخنقُ مجرى التنفّس في سنوات عمري الأولى، كنتَ أسعلُ حتى يُصيبنّي الغثيان، وتنتثر النجوم اللامعة في سديم إغماضتي، لم يفلحْ "الفينتولين" الطبي إلاّ بالتهدئة الوَقْتيّة، لكن العارض الأصيل يتزايد ويسوء أكثر حين ينقلب الطقس للرطوبة، ولعلّ أجواء مدينتي "الأحمدي" كانت من مثيرات اشتعال صدري بالإنهاك.

مازلتُ أتذكر طبيبي المعالج "دكتور وضّاح" [رحمه الله] في مستشفى شركة النفط/الأحمدي، حين أجرى لي اختبارات لقياس كفاءة الرئة عبر النفخ في خرطوم بلاستيكي أبيض وطويل مَوْصول بقارئ يدويّ يُدوّن برأس قلم نبذبات التنفّس بدقة، كنت مأخوذة جداً برأس القلم الحبر المثبت على رأس القارئ الآلي وهو يترك حبره مثل شُعيرات نامية حديثاً، الأحمر الناعم جداً على

سطح ورقة رقيقة كثيراً، عيناي عليها كل الوقت/الفحص.

يومها أخبر الدكتور وضاح والدتي بأن هذا النوع من "الرّبو" يصيب الأطفال في سنواتهم الأولى وسينتهي ويختفي كمرض من تلقاء نفسه حين أبلغ سن العاشرة تقريباً، أسبابه غير معلومة طبياً حتى الآن [حتى ذلك الوقت ١٩٨٣].

لكن أسبابه معروفة من جهة أخرى..

فبعد قراءاتي/ دراستي الطويلة، اتضحت الصور بكثير من الغبش المتعلق بالصحة، وحتى خلال حواراتي مع صديقي "المُريد" وجدنا بأن هكذا إصابات تجيء مع الولادات تستمر خلال السنوات الطازجة الأولى، تعني آثاراً "كارْمية" انتقلت معنا [لشدة تمكنها منا آنذاك] من حيواتنا السابقة. لذا، فهي تغادرنا بعد فترة معينة من الاستقرار الروحاني في الجسد الجديد، كما أن معلّمي وأنا توصلنا عبر جلسات الاستدعاء لإصابتي الشديدة في الرئتين [سابقة] وهذا ما يفسّر سرعة/سهولة إصابتي بالالتهابات الصدرية لنقص [سابق] في كفاءتها.

إننا نولد [من جديد في كلّ مرة] محمّلة ذاكرتنا الحسيّة والجسديّة غالباً بما لا نتذكره من أحداث جرت علينا، إلاّ إذا بذلنا جهداً تأمّلياً عميقاً لرفع الانتباه والوعي بالمحيط.

في العام ٢٠٠٧ [كان ذلك خلال شهر رمضان] أصبتُ بحمّى شديدة لأول مرة تصل حرارتي لـ ٤٠ درجة، كنت أرتجف وأفقد الفهم والتواصل وأحيانا الرؤية! تطوّرت الأمور نحو الأسوأ حين وصف لي الطبيب في المستوصف مضاداً حيوياً لمدة أسبوع ولم يتغيّر أي شيء إلاّ المزيد من الالتهاب في الصدر والسّعال الذي أدى لخسارة صوتي نهائيا.

راجعت طبيباً آخر ليكتشف بأن الإصابة قد تطوّرت كثيراً، وأمر من فورِه بفتح قسم الأشعة الصدرية في يوم عطلة لأجلي، حين رأى النتيجة، نظر نحو أمي بقلق عارم، همس لها: نومُونْيا [الْتهاب رئوي حاد]!

وصف لي يومها ٣ أنواع من المضادات الأقوى، ولمدة ثلاث أيام مدعّمة بنوعين من الشراب لوقف السعال، كنت أتأمل صورة الأشعة وأتساءل ما ..ذا البياض المنتشر؟

قال: الْتهاب.

راجعته حسب الموعد بثلاث أيام لاحقة، إذ بدّل جدوله ليتناسب مع موعدي، حين فحصني بسماعته طويلاً طويلاً: طلب مني ارتداء قميصي، وضع كفّه على كتفي مثل أب زال قلقه والْتمعت عيناه قائلاً: "الحمد لله ع السلامة"!

ما عرفتُ أجيبه؛ كان صوتي ضائعاً لثلاثة أسابيع، تحشرجتُ وسعلتُ فقط، تمتم هو: "ستغادرك السعلة قريباً وسيعود صوتك جميلاً"!

هذا الرجل أنقذني من موت وشيك.

في جلسات وعي لاحقة خلال العام ٢٠١٠، التقيت بصديق يتحدّث عن الإصابات المرضية وما يقف خلفها من معانٍ روحانية مُستترة [لقد درست هذا العلم منذ ٢٠١٢ ومازلت] ذكرت له إصابتي في العام ٢٠٠٧ بالالْتهاب الرئوي العميت، نظر نحوي لمدة طويلة، سألني:

"هل كنتِ آنذاك في علاقة عاطفية غير محلولة أو منتهية بوضوح"؟

عدت بالذاكرة، وأجبته "نعم".

أكملَ هو : "لقد غفرتِ لشريكك في العلاقة آنذاك بعد حزن منه"؟

أعدتُ إجابتي "نعم".

قال: "حين نكون في مرحلة ما قبل الترقّي الروحاني شبه المتكامل، ونبدأ بممارسة الغفران العميق بعد شدّ شعوريّ، نمرض مرضاً صعباً قد يودي بنا للموت. تتدخل بعض التفاصيل لتحرّرنا منه. كأن نجد حباً جديداً مثلاً، أو أن نمارس تحوّلاً ذاتياً داخلياً مكافئاً في شدّته لما كان.. عموماً إصابات الرّئة انعكاس قوي للخوف من شيء ما، لعلّه الفَقْد في حالتك تلك".

كم أقلقتني تلك المعرفة، لأنها أيقظت بداخلي ذكريات خبيئة عن شيء لم يكن مُفرحاً من ماضٍ ليس لطيفاً على أية حال.

كنت حينها في منتهى الصدق بينما الطرف الآخر مرتبكاً بالرؤية والقرار، مرتبكاً بذاته، افترقنا بصمتٍ محمّل بالكثير من الأسئلة التي كانت بلا إجابات شافية. غفرتُ له ضعفه برغم ألمي منه ومن آخرين [وقتها]، لذلك تلقفني مرض صعب وجَد جسداً جاهزاً للتسمّم الروحاني العميق/المطهّر.

لم يكن ذلك الطرف هو "الوحيد" الذي دقّ باب الروح وتسبّب ولو وقتياً بإضاءة العينين بالنزق، سبقت تلك المرة أخرى في ٢٠٠٣، غريب كان، لكن لقاءً عاصفاً بالدهشة أحاط بنا [آنذاك] لأننا حين التقينا لم نفرح حقاً! بل رصّ كل منا أصِيص أحزانه على شرفة الآخر، قدّمنا أنفسنا كمغارات من أسَى، قدّم لي نفسه / اسمه، ومع صوته دقّت اليد الخشبية لـ "هَاوَن" والدتي في رأسي تنبيهاً، استللتُ فكرة جديدة من ذاكرة الأصوات عندي، صوت طفل بلهو ولست أعرفه، كان بارعاً في سرد أحزانه العظيمة النابتة عَرَضاً بمعرفتي به، واشتبكت المعاني/المشاعر لتُعاود اليد الخشبية دقّها الأعلى، غابت تلك اللحظة بمثيرات

الحواس وغابت رائحة الدخان من المحيط، غابت النظرة العميقة المفضية للاشي،، غاب حتى هواء ما بعد المطر ي تلك الليالي الساحرة.

سَخُفَتْ كل تلك "السّوالف" التي جمعت نثارها على مدى شهرين من غرس الرفض بكلمتين قدمتهما مع فنجان قهوة أخير : "لا نصلح لأن نكون"!

صحيح بأن القَنْد ذاب مع كل تلك القصائد التي نظمت في هدأة الليل، لكن تبقّت كل تلك الصلوات التي مارست عبرها الامتنان للخالق بخوض تلك المشاعر الغامرة/العابرة التي كانت، بقيت أمارس التوبة عن الفرح بصمت

سألتني صديقتي الصافية التي شاركتني ذلك الاشتعال/الانطفاء بوداد انقسم علينا: "هل فعلاً يمكننا أن ننسى التفاصيل وطعم اللحظات؟ أظنها تلتصق بملامحنا كلما استدعيناها"!؟

أجبتها: "تُعشْعِش في الروح، تلتمع في الصدر، تنعكس على الملامح عبر آثار الشامات التي على أجسادنا، لكن، من يحسن قراءة المعاني الـ يتركها أسوداد الخال"؟

بل حتى معلّمي لم يبخل عليّ ببَيان المعاني الغافية/ المعلنة للشامات، هي علامات الفرح الغامر، الحزن الحارق، كلها علامات لنتذكّر بأننا اشتعلنا بخفقة فرح، أو خضّة آه.. شامات روحي أعرفها جيداً، أحاول أن أرعَى بعضها بمزيد من الحب وأقبلها.

فكم من علامات جُلبت معنا [عَلَّمَت على أرواحنا/أجسادنا] كآثار من رحلاتنا السابقة؟

33

((يَنسى الفأس.. والشجرة تتذكر))

مثل أفريقي

أثق بأنني كنتُ شجرة وارفة في أول تخلّقي، في حياة ما، وقفت طويلاً جداً على جذعي/أقدامي، لذلك فأنا [الآن] أتعب سريعاً حين الوقوف المستمر، لأنني واقفة بشدة /صلابة/انتظار منذ تلك الحياة مروراً بكل الرحلات التي سبقت [الآن].

إنني كائن استَمْرأ الوقوف اللعين.

أقف حين أفكر عميقاً، أقف حين أبحث عن شيء، أقف حينما يشغلني ارتباك طارئ، أقف حين أعمل، أقف دائماً، أقف كل الوقت الذي يعمل به عقلي، أنهض من جلوس ساكنٍ كي أمارس التفكير. لقد أصابتني كثرة الوقوف/ التفكير بالدّوالي مبكراً!

لكن كل هذا الوقوف المتكرّر/شبه المستمر يهديني آلاماً أعمق من تلك المحسوسة في كعبيّ رجلي و ساقيي، أوجاعا لم أفهم إلاّ أنها ترجع لمنشأ أصيل، هو أنني في البدء كنتُ شجرة.

والشجرة تحتمل جداً، تُحسن الإنصات لكل المُتعاتِبين/ المتخاصمين، تُقيّم اعترافاتهم الباكية، أولئك المجروحة أخلاقهم و ما أكثرهم، فكل من ذكرتهم اعتادوا الجلوس تحت ظلّ الشجر الوارف للبدء بهذيانات لا تنتهي على مرّ الآهات.

لقد كنتُ شجرة ليست كالبقية، مخلوقة من صبرٍ واحتمال، روح عميقة، اعتادت الالتصاق بالأرض، والتحرّك في السماء، ليس عادياً بأنني [الآن] يكسوني شعور بالوداد الغامر حين أفترش الأرض وأتكئ على الشجر. ليس عادياً أن هناك شيء خفيّ يدفعني للوقوف حين يهطل المطر لينساب مدراراً على رأسي وجسدي.

لستُ شجرة عادية، لا.

شجرة عريضة الجذع بلا شك.

لأن الرغبة دافقة دوماً هي التي تنتابني*حين أتصادف وشجرة مُعمّرة بجذعٍ بنـــيّ اللون عريض دائري، بالغ الأصالة ومُجعّد الملمَس، فأضمّه لصدري، مواسية ذاتي [في الواقع] عميقاً في أبعد نقاط التكوّن.

إنني بفعلي ذاك، أُربّت على ذاتي، فأنتم لا تعلمون كم هو مُرهق أن تُخلق كـ شجرة، وأن تعيش منتصباً كل تلك السنوات الطويلة، وليست مصادفة أن يطلقوا عليّ [في هذه الحياة] اسم "ميس"؛ خشب صلب عنيد لشجرة جبلية غير متطلّبة للرعاية والماء.. لكن الفأس الذي قطّعني لأجزاء توزّعت بين الناس/ الحَيَوات نسي حتماً فعله، وتركني لأتذكّر!

١٣٥٣ ميلادي... بلدة ابرس [بلجيكا حاليا] القرن ١٤ ميلادي.

كانت المدينة غارقة في حِداد كبير، حِداد مجتمعيّ لا يخص عائلة بعينها، حدا لا مُنتَهٍ وعويل يشقّ شباكاً جديداً كل نهاية، حِدادنا [آنذاك] كان يتّسع/ يتوالد/ يكبر وينتشر، الطاعون مُبيد لا يرحم.

لم تكن حياتنا عادية أبدا، لقد كانت رقصاً ساخراً مع "الموت الأسود"، كما كنا نسميه.

الموت الفظيع الذي يأكل الناس والقساوسة يُعلنون الصلاة المستمرة والتراتيل لكفّ غضب الرب المتسلّط علينا، كانت هَجْمة مرض شرسة، تنهش بلا هوادة، ماذا أتذكر؟

كنت شابة يافعة أدعى "إيلا" لم أتجاوز الرابعة عشرة، تحكم أمي غلق الباب علينا كي لا يصلنا الخوف والموت. مع ذلك، كانت تدفعنا للصلاة في المعبد القريب، لقد كانت التضرّعات هي الحارس من دون أصابتنا به، لكن الجوع أشد والهزال يظهر القفص الصدريّ وعظامه، حتى من وراء أرديتنا النائبة، كنا نعيش في انتظار الموت.

وبينما نفعل ذلك كنا نصرخ نحو الله طالبين الصحة والمزيد من السنوات كي نحياها، حقّنا في الحُلم، لكنه لم يكن يستجيب، بل يبعث بالمزيد من الجثامين من الأعمار كافة، حتى ظننت بأنه هو الآخر قد قتله الطاعون!

ضَعف جسدي، هَبطت مقاومتي، بعدما أصيب أخي الأكبر باسوداد نهايات أصابعه، شيء يشبه الحبر بدأ بالانتشار انطلاقاً من سُلاميات الأصابع نحو الكفوف، كما أخبرني خلسة عن أمّنا، عن وجود تورّمات في جوانب

فخذيه، بينما كان يهذي من الحمّى.

حين علمت أمي قرّرت [بال قسوتنا] تركه يموت وحيداً/ بعيداً في زقاق خارج البيت..

لكني لحقت به، صَعُبَتْ مقاومتي يوم رأيت "الحبر الأسود" ينتشر على نهايات أصابعي كذلك.

غادرتُ عودةً لله.

١٥٦٤ ميلادي –ديز/ألمانيا القرن ١٦

على الضفة الأبعد من النهر الـ يقسم المدينة القديمة، تلك التي وطأتها أقدام البشرية منذ العصر الحجريّ، الحُكم الآن [آنذاك] لــ العائلة الملكية الهولندية.

كنتُ أنا "هانيس"؛ حارساً نحيلاً مكلّفاً بالانتباه العالي لسجن صخريّ صغير/ معزول في الجزء الغربي من التلّة المنخفضة المتدرّجة، والتي تتشكل من جبال حجر "الرينيش" تلك الـ تحتضن القلعة المبنية منذ القرن الحادي عشر.

كنتُ وحيداً في ذلك المكان، لم يكن أحد سواي والسُلطة التي جَنّدتني نعرف بوجود ذلك السجن المنعزل/المدمج ضمن محيط القلعة الملكية ذات الجدران النامية بالاخضرار البديع. كنتُ وحيداً تماماً، لي ثلاثة أصدقاء هم الجوع والصقيع والصمت!

في ذلك السجن كنتُ حارسا مُكلّفاً من دون رتبة حربية، لكني كنتُ مكلّفاً باحتجاز المحكومين بالتعفّن الطويل لأنهم مارسوا "العصيان والهَرْطقة"، لم أكن حقيقة أُدرك معنى التهمة أو مجموعة التهم تلك، لكني أتذكر جيداً بأنهم وعبر حواراتهم معاً؛ كانوا من أشجع الرجال، لقد كنت مَنهياً تماماً عن إدارة أي حوار معهم، لكنني في الواقع علاوة على ذلك كنت أتحاشى التحديق/ النظر في عيونهم، حتى لقد جعلتُ من ذاتي وحيداً، أتشاغَل برعاية ظَبْيٍ صغير حرَ اعتاد القفز من التلال المجاورة نحوي التماساً لدفء الموقد الذي أشعله ليلاً، بينما أُمرّن صوتي عبر التحدّث إليه بحوار مُفكّك أظنه كان يصل لمسامع السجناء في الداخل، كنت أطرح الكثير من الأسئلة على الظبي الصغير وأنا "هانيس" الجائع أبداً، المتجمّدة أطرافه والضائع بالصمت، أثق بأنهم ينصتون إلينا، لأسئلتي المطلقة في السكون.

في مساء ما، وصلني مرسال برداءٍ رسميّ، حاملاً نصّاً من عبارتين مقتضبتين:

"أعدُّوا السجناء فجراً لتنفيذ حكم الإعدام، سنتكفّل بجمع الأهالي عند تلك التلّة المنخفضة لحضور التنفيذ علناً"

لعلّ كل ما أتذكره هو النّبض المتسارع الذي ناور طويلاً بين رأسي وصدري، عيون الشبّان الواثقة بالحقيقة التي يمتلكونها ولا أعرفها مُذ رُبِطَتْ مصائرنا [هنا في ديز] ومُنِعْتُ من التحدث إليهم، كان دَوري مَحصوراً في حراستهم وتقديم الطعام الشّحيح لهم، ولأصدقكم الخوف، ليلاً حين أخشى أن يتملّكني النعاس كنتُ أنصتُ جيداً لأحاديثهم الطويلة، كم كانت لديهم من الخُطط المفرحة المعدّة ليوم خروجهم من هنا! هم لا يعرفون الآن بأن المجهول قد استدعاهم.

مُذ استلمت الرسالة الملكية، بقيت أفكّر بما سيكون عليه المشهد فجراً، ثلاثة وعشرون شاباً تشارك في نهشنا جميعاً القَمل والحكاك وتورّم الأطراف صقيعاً. يا إلهي لقد احتملوا كل ذلك الأذى لأنَ أملاً بعيداً كان يبرق لهم في العتمة.

لم تكن هذه الفاجعة فحسب.

كنت قد تلقَيت رصاصة غدر من منفّذي الإعدام العلني ولا أعرف السب

كم كنت حانقاً بينما أغادر عودة لله.

١٤٤٩ ميلادي جزيرة ثاسوس/اليونان - القرن ١٥

لقد كنت قبلها في دير كنسي، هنا أسمي "كايا" والذي يعني "النقيّة"، أخدم تَرهّباً وأرتّل الصلوات في أيام محدَدة، أرتدي لباساً طويل الأكمام بلون أبيض والصليب مُذهّباً يتدلى على صدري وغطاءً أبيض للرأس مسحوباً للوراء، عيناي شاحبتان بالموات البطيء الذي نحياه هنا على جزيرتنا المستقرة شمال بحر إيجه، الـ غنية بالزيتون والعسل والنبيذ. لقد كنا مستغرقين في رعاية دينية مشدّدة، فالسيدة المسئولة عنا: الدياكونسا وتعني "الخادمة/الشماسة" اسمها "أليثيا" ومعناه "الشافيَة"، شديدة الطباع وتُحسن مراقبتنا كما ينبغي، نحن الفتيات اليافعات.

كنتُ أقضي تلك الليالي الثقيلة والتي ما اخترتها بين الكتب، هو الخلاص الوحيد المسموح به هنا، وكل القراءات المتاحة هي ما تتعلّق بقصص الربّ وابنه يسوع. وكثير من الأوامر والكثير من المنهي عنه، نعيش فيما يصح وننبذ ما لا يصح، وتقديرات كل ذلك بيد الرهبان.

بداي في تلك الليالي حارتان متعرّقتان، وعيوني تضيع بين الحروف، عقلي يشدني لرغبة أعيق تحقّقها، كنتُ في غرفتي المربّعة بمقاس لا يتجاوز الـ ٣ متر تتصل بـــ ٣ أخرى، الأسقُف مُقوّسة تكاد تهبط على رؤوسنا، تجعل البعض ينحني في المشي، كنت أرتكز على الطاولة الخشبية في "مَخْبَستي" وأبدأ الصلاة منذ ١٢ ليلاً حتى ٣ فجراً، ننام قبلها منذ الثامنة مساء، لنواصل عملنا "الخدميّ" في الخامسة فجراً وهكذا.

فجر ذلك اليوم حين غفوت، كنت قد صحوت وبين يدي ورقة بتخطيط رسم شبه متقن، لفتاة يافعة عارية حتى أسفل ظهرها، مغمضة العينين يبدو ذلك من جانبها الأيمن، وشعرها.. يا لشعرها كالشلال النقي.. على رأسي تقف الدياكونسا "أليثيا" وفي يدها مجمرة البخور الباكر للقدّاس اليومي، عيناها تحتقنان بالغضب، نهضتُ وأنا أُتمتم بالتضرّعات، وأقطّع الورقة التي في يدي وأتخلص منها على نار المجْمَرة. تصاعد الدخان خانقاً وكلمتين من "الدياكونسا أليثيا":

لعلّك لن تكرِّريها؟!

أومأتُ برأسي: نعم. ودموعي تغسل وجهي!

لقد كنا نعيش في "دَيْر" على طرف "ثاسوس"، كنتُ من "الأبصالتس" [المُرَتّلين] حينها، وكان عليّ أن أفعل شيئين أساسيين، أقرأ جيداً من مكتبة الدَّيْر، لأعلّمَ الفتيات الصغيرات، وأن أُمرّن صوتي لقدّاس أيام الأربعاء الرسمي الذي يجمع أهل الجزيرة وأسرتي كذلك.

ولأن "الدياكونسا أليثيا" معاونة الكاهن قد رَسَمَتْ مؤخَراً بعد بلوغها الستين وهي أرملة، كخادمةٍ للكنيسة في الدير، فإن علينا الطاعة لها، ولم يكن مهماً إن كنتُ مخطئة أم مصيبة، فلم تكن هذه المسألة أبداً° هنا [هناك] فيما أفعل، الأهم الطاعة والانصياع بصمت.

لقد التحقت بالدير بعمر الثانية والعشرين، أسرتي متديّنة جداً، أبي تاجر جلود بسيط، نعيش كما ينبغي لأسرة مؤمنة أن تكون، لقد سمع أبي صوتي يوماً، فدفع بي نحو الدير لأقضي بقية سنواتي بلباس أبيض وعيونٍ باهتة بالانكسار، أردّد التراتيل لتمجيد يسوع وأمه العذراء.°

بقيت أحلم كلّ يوم بالانعتاق من هذا المحبس.

أرى خطط الهرب في مناماتي وأصحو مرتعبة من مجرّد استدعائها وتدوينها ليوم قد يجيء، وعوضاً عن ذلك أُقبّل الصليب المتدلي على صدري وأغيب في الصلاة والتضرّع.

في ١٤٦٢، حوصرنا في ديننا، قُتل الكثير من الناس حين ألحقت جزيرتنا الوادعة بالدولة العثمانية، ليتحوّل اسمها من "ثاسوس" إلى "طاشروز"، حينها، مرضتُ مرضاً شديداً، كنت حينها في الخامسة والثلاثين من عمري، انتظر بلوغ الأربعين لتتسم رَسامَتي كـ "دياكونسا" / شمّاسة مكرّسة، لأنني عذراء، تماماً مثل أم يسوع! مرضتُ في أذني لأنني رفضت الانصياع لحكم جديد/ قدر أكبر

بشاعة من قدري ودين جديد واسم جزيرة ليست لنا!

لم أكمل فترة انتظاري، ساءت حالتي لارتباك الحياة والصراعات التي لم تنته بالموت المجاني، ولا أدري إن كانت الرسالة الربّانية قد وصلت لأبي وإن كان قد تعلّم درسه الإلهي بعودتي نحو اللهقبل تحقيق حلمه الديني بواسطتي؟

١٥١٧ ميلادي -أشتموع/ فلسطين - القرن ١٦

عشت في مدينة الكهنة أشتموع، وكانت حينها قد دَخَلَتْ العهد العثماني، تلك البلدة التي تحمل اسماً يعني "الطاعة" في العربية وتنطق "سيمواع" في التوراة.

بلدة التين والعنب والزيتون، إنها قلب فلسطين بشكل ما، كنتُ "أرام" أبنة فلاح وسيم وأرمل، وبعمر المراهقة تمكنت من فهم مرمى صديقتي "ليا" [الكانت مشدودة الجسد مثل عود قرفة] فهي نهتم كثيراً لأمر والدي "غابي". كنا نجلس يومياً في حلقات كمزارعين وحصّادات، جماعات ملتفّة حول الوجبات الصغيرة الملوّنة من نتاج الأرض: طماطم وزيت وزيتون وخبز وبصل. كانت "ليا" تكتفي بقضم خيارة واحدة بينما عيناها معلّقتان على والدي كل الوقت، كنت أشعر بالخوف مما ستؤول إليه كل تلك النظرات العميقة بالاشتهاء.

أقلقُ على أبي، الذي ظل وحيداً مذ ماتت أمي بولادتي، لقد غادرت من دون أن تلتقي أبصارنا ولو لمرة واحدة، هكذا حكى لي بابا.

لكن المرض الغريب الذي التهم "ليا" [الكانت مشدودة الجسد مثل عود قرفة] والذي تسبب لها بفَقْدِ لأسنانها ثم شَعرها وكل تلك الفواجع التي أخبرتنا عنها دَايَة سيمواع. لقد كان مرضها مربكاً ولا يشبه آخر، مع ذلك كان هناك ما يدغدغني حين أنصت لنحيب جدتها عليها حين تراني.

لم يُصب بمرض "ليا" أحد سِواها.

كان ذلك مستغرباً، ففي وقت كهذا يحصدُ المرض آلافاً من البشر دفعة واحدة مخلفا العويل والسواد.

كيف انتهت رحلتي تلك؟

سقطتُ من أعلى المرج في يوم مطير جداً، زلّت قدمي اليمنى بالطين الزلق، كنت أحمل سلة حصادي وحيدة، صحتُ طويلاً في رحلة السقوط السريعة نحو الأسفل، رأيت وجه "ليا" يناديني، ثم حلّقت بخفّة بعدها نحو الله عائدة، حزن أبي طويلاً وبكاؤه كان يصلني لأربعين يوماً، شاقّة تلك النهاية.

١٧٥٠ ميلادي – ستراسبورغ/ شرق فرنسا – القرن ١٨

كنتُ هذه المرة مدام "بيبيانّي" والتي يعني اسمها "حياة" بالعربية؛ سيدة ستينية وحيدة يعيش رفقتها كلبها الحنون.

لقد شاهدتُ الكثير من الموتى وهم يتورّمون من الحمّى والطفح الجلديّ والنهايات كانت متشابهة آنذاك، فهذا هو "التيفوئيد" ينتقل بين البشر آتياً من جنوب فرنسا. عزلتُ نفسي في "ستراسبورغ" في حيّ على أطرافها، المدينة

الممتدّة على نهر "إيل"، هذا الوباء تسبّب في هزال المحاصيل الزراعية، لذلك كنت أزرع حقلي الصغير المطلّ على إشعاع الشمس وأحيا برعاية كلبي الذي يحرسني كل الوقت، أحصدُ خضرواتي وأغسلها جيداً بالتعاويذ، ثم أسدّ باب كوخي الصغير بحجر ثقيل كي يمنع أي متطفّل من الدخول عندي. لقد قاطعت الناس مُذْ تفشّى "التيفوس"، فقد جلب معه الموت ولم يكن مرضاً عابراً. كنت سيدة وحيدة أقرأ الطالع للناس كي أتمكّن من العيش، أبيعهم الوَهم على شكل إظهار الثقة في العينين ونسج الحكايات القابلة للتماهي مع محزناتهم، حين أطلب منهم التنفّس ببطء وآمرهم بإغماض عيونهم. كنت في الواقع، أقرأ الخطوط حول محاجرهم وأعلى جباههم وأقيس بخبرتي مقدار أحزانهم!

لم أمُتْ من "التيفوئيد" في تلك الحياة، بل مُتّ لأنني أوقعت على رجلي تلك الصخرة الضخمة التي أسدّ بها بابي كي لا يزاحمني في صحّتي/أماني أحد! لم يفلح كلبي المخلص في إنقاذي. نزفتُ وحيدة طويلاً حتى الموت. في الحقيقة، قتلتني أنانيتي وحبي لذاتي، عرفتُ ذلك جلياً حين عدت نحو الله.

لقد خُلقتُ لمرّات عديدة، مرّات توصّلت إليها بالاستدعاء التأملي العميق، ومرات أخرى لا أكاد أتعرّف إليّ فيها، بعضها ضبابيّ لدرجة عجيبة، كمثل الفتاة التي لم تتزوّج وكنت حينها في إقليم الهند، أعيش مع أخي وزوجته وأحمل الكتب، ومرة آخرى مُضبّبة حين كنت من مسيحيي الموصِل المبشّرين في "بَرطلّة"، الذين نزحوا نحو "ديار بكر" بسبب التسلط العثماني آنذاك، كنت أربعينية أحمل طفلي بين يديّ أنادي زوجي باسم "شعّان".. ومع كل تأمّل عميق لا أكاد أصل إلى المزيد.

الأكيد، بأنني تجوّلت طويلاً بين الحيوات الأرضية [وأنتم كذلك بلاشك]، بكل الإرهاق الذي توزّع عليّ وكل أنواع المعاناة المقدّرة لي بحيث أنني الآن ما عاد يدهشني إلاّ النادر.

لقد تركت كل تلك التجارب السابقة التي عرفتها والتي لم أتمكن من الوصول إليها؛ علاماتها وخبراتها وآلامها بل وحتى عُقَدي الخاصة على روحي الآنية [هنا] حين ولدت لمرة جديدة في العام ١٩٧٧ ميلادي - الكويت - القرن ٢٠.

ولدتُ حاملة اسمي الغريب [آنذاك]، "ميس". كان اسمي يشكّل معضلة غريبة فـ يُستفهم فوراً عنه بعد أن تحاصرني نظرات الاستنكار والسؤال الـ بأتي وراءها: "شنو"؟(١)

وجوه المعلّمات اللائي يقلبْن دفاتري في حركات بهلوانية لقراءة طابع الاسم الورقي بشفاه تنقلب في لحظة مثل جورب مستخدم، لأردِّد بهدوء:

"ميم ياء سين، مَيْس، ثلاثي ساكن الوسط ممنوع من الصرف، مشتقّ من أغنية فيروز الشهيرة ميس الريم.."

فيلحق إجابتي استفهام مستهجن: "يعني أهلك أطلقوا عليك اسم أغنية"؟!

ابتسمُ واسعاً، ويضحكني التردّي في الفهم.

لكن لم يكن أصعب موقفاً من تلك المعلّمة في المرحلة الثانوية والتي عجزت عن تفكيك حروف اسمي في دفتر الحضور والغياب إذ قالت:

---

(١) تعني "ماذا" باللهجة الكويتية.

"لا أدري ماذا... خالد العثمان"!

لعلّها [الآن] قد علمت من هي "اللا أدري ماذا" بعد كل تلك السنوات التي قضينها ومازلت في الكتابة والنور؟

لقد كان اسمي يجيء في كشوف المعلمات خلال مراحلي الدراسية كلها بعد أسماء مثل "منى" و "منيرة" أو "مَي" و "مها" إنْ وجدت، أبقى متحفّزة لمراقبة ملامح من تقرأ الأسماء لاصطياد اللحظة المقترنة باسمي وغرابته [حينها]. بعد سنوات طويلة، في العام ٢٠٠٨ تحديداً، في أول انتخابات برلمانية في الكويت شاركَت فيها المرأة، كنت أبحث في يوم التصويت عن اسمي ضمن قوائم الناخبات، تلك قوائم أكبر بمئات المرات من كشوفات المدرسة، ليجيء اسمي بعد اسم سيدة تدعى "ميسان"، تلك السّيدة كانت منتقبة عبَرتْ بسبّابتها المغطاة بالكفوف السوداء لتجد اسمها، عبرت رسم اسمها مطبوعاً لأجدني بعدها فوراً. ابتسمتُ لعينيها الظاهرتين، نطقنا معاً(لجنة ٩ فرعية)، قالت هي: طول عمري اسمي غريب ويروحي، لين لقيتك"(١)!

أخبرتها بأن الفرح يستجلب فرحاً آخر اً معه، نحن ننتخب اليوم بعد جهاد طويل، فلا مانع من الهدايا السماوية المبهجة بهذه المناسبة اللطيفة، أومأت لي، ثم سألتني: "كنتِ معهن في التظاهرات"؟!

"نعم"، أطلقتهُا بنشوة.

(١) تعني "حتى وجدتك" باللهجة الكويتية.

عدّلت وضع عباءتها وهي تتمتم: "قوّاكُنّ الله.. قوّاكن الله"

ثم تركتني بهدوء منسحبة.. للتصويت.

كنت أفكر لحظتها، رغم أنها "ميسان" كما نوّهت هي ضاحكة "أنت مفرد وأنا اثنان"، لكننا مختلفتان تماماً، ولا شيء في ذلك، مجتمع صحيّ كما أراه.

أحبُ اسمي، أحب التفرّد الذي يحمله، ويسعدني بأن قدري لم يلبسني اسماً آخراً "تبرُّكاً" بأي سيدة سبقتني في تسلسل العائلة، فالأقدار تتفاءل بالأسماء أيضا.

إن موارد الإنسان لا نهائية.

نتعكز دوماً على ما مررنا به وكان، وما سيكون، لقد دخلت إلى هذه التجربة [١٩٧٧ وحتى الآن] لخوض معرفة جديدة حتماً، معرفة لم أختبرها قبلها، وهذا التكليف جاء كنوع من المكافآت الربّانية بلا شك، بعد طول إجهاد في التعلّم الروحاني المتوزّع على مئات السنوات من "التعبّد/ التنسّك" لأكثر من حياة.

جئتُ كـ كاتبة، وعبرها تكون رسالتي، ففي الكتابة والوعي والفهم نحن نحاول السيطرة على البَعثرة الداخلية ونوقف قلق عقولنا بسفاسف اليوميّ والمعيش، لنُشغِلها [نُحسن استخدامها] بأمور أكثر أهمية لأنها مواضيع مشتركة نعيد فتقها بشكل شخصي أولاً، ومن ثم تشريحها طويلاً لأجل مشاركتها مع قرائنا ممن لا نعرفهم.

حين نكتب، نحن في الواقع نولّد أفكاراً في هذا الكون، نجعلها تنمو من دون حصار مريع [يحصل ذلك دائماً إذا ما أطلقنا آراءنا الحرّة تلك خلال نقاش عام] قد يفلح في وأدِها وتلاشيها وحرمان أنفسنا والآخرين من التعلّم والاستبصار العميق.

إنني حين شرعت بكتابة [تحرير] هذا الكتاب. فإنني حرّرت أول ٥٠ صفحة منه في جلسة واحدة انقسمت على ثلاث مراحل من ذلك اليوم. ثم توقّفت لمدة ٣ شهور، بينما العبارات وجنَيات أفكاري "تتشَعْلَق" في ياقات ملابسي وتختبئ تحت "إيشاربَاتي" تريد التحرز على الورق سريعاً [شأن كل الكتابات السردية التي اختبرتها سابقاً]، ثم وفي إجازة من العمل طويلة نسبياً كتبت المزيد من الصفحات التي ناهزت ١٥٤ خلال أسبوع، ثم مقتطفات غير متشابكة تماماً، ليشكل كل ذلك مائتين وبضع صفحات تقريبية في رأسي!

مع كل تلك المعاناة [المستمرة]، فإن الكاتب يرى في غليان فكرته المتوالدة بشكل خرافيّ تكليف مسيطر لا فكاك منه، ولا تخلّف عنه، هو عملنا المرسلة به أرواحنا عبر الخالق، مهرجان تعذيب [ولو كان لذيذاً] يبدأ من الشرارة الأولى الـ تَقْدَحها بسؤالك المجنون، وعبوراً لخيوط تنسج كحالة تجلٍّ في قدّاس أنت فيه الوحيد، انتهاءً بتسليم مفاتيح أرفك كلها لرفيق جديد [القارئ] يحمل انهمارك، يصوبّه نحو قلبه/عقله. و... ينتهي دورك هناك.

أن تكون كاتبا، يعني أن تبدأ بملامسة الوعي.

خلال رحلاتي الربانية تلك كنتُ مُنصاعةً لما يُهيّأ [هناك]، لم أتجرّأ لأطرح سؤالاً يفجّر الطريق المسدود باتجاه الوعي، كان مُقدَراً لي ذلك، لأن كل تحرُّك يجيء في وقته الملائم، كانت مسارات التجارب الأرضية كلها، عبارة عن لغز لا يفهم بالنسبة إلي، في هذه الحياة [في مرحلة ما] جاءني إدراك شديد الصفاء. لذا؛ فإن إيماني مختلف.

إيماني أعلى من التفاصيل، تلك الإشارات البدائية التي اختلقها عقل [إنسان بدائيّ] لا نعرفه، لكنه ظنّ واهماً في يوم من أيام الله بأنه يساعدنا كي لا نحيد، لكن السؤال خارج الدائرة هو بداية الوعي الصافي.

مؤمنة أنا بـ رب عظيم/ واسع الحنان والرأفة فقط، وكل ما يجئ بعد اسمه العالي، من قصص فهي "غيْب" على عقولنا، وسلوك ترديدها والانجراف ورائها بكل هذه البدائية التي لا تتناسب وعقولنا لإثبات فكرة "الله" فقط، تُفسدُ حتى لذّة الإيمان به.

كنتُ قد شعرتُ بالأسف العميق على طفولتي المستلبة بالقصص البدائية والتعاليم الحادّة، وأسماء "الله" التي ترهبنا. حانقة كنت على كل معلّم ورّثنا تلك الحكايات "الخام" التي تكرّرت [بتفاصيل أكثر أذى] في التوراة والإنجيل، ثم القرآن، بل وحتى في الكتاب الأقدَس [البهائي] وكل تلك القصص الـ يَتَلوّن بها الصوت حين روايتها لأنها حقيقة جاهزة الوصفة، ثابتة المرمى!

الأديان [كلها]، تلك التي تؤمنون بها، أو تلك التي يريحكم تكفيرها، كلها في سلّة واحدة [بالنسبة لي]، لأنها طرق مجرّد طرق للوصول المشترك [إنْ أحببتم] لنقطة تمكننا من العيش بسلام ونتعاون لائق لإنهاء رحلاتنا المؤقتة/المربوطة بالتعلّم الروحاني العميق، وتنفيذ الأعمال المناطة بكل شخص على حده.

35

في العشرية الثالثة بدأتُ بنزْعِ قشرتي.

في الواقع كنت في "جهاد" للتخلص من العوالق في حياتي، عوالق كثيرة بشرية ومادية وروحانية على حدّ سواء، فكل ما يسبب لنا ثقلاً على الروح ويعرقل العقل على اتخاذ القرار الحر [القرار الذي لا يقبله المجتمع في العادة] يجب طرده من حيواتنا.

لقد اقتربت [حينها] من الفعل اليومي المحسوس ذلك المرتبط بالأرض والطبيعة والغفران والتأمل، والتأنّي لاستجلاب الفهم ونضوج الفكرة حين تقلّب على أكثر من وجه، والالتزام بقول الحق و "السعي" نحو الحقيقة من دون تردّد أو خوف، بل حتى لو كلّفني ذلك مصادقة نباتاتي المستقرّة على شبّاكي!

لقد توصلت منذ العشرية الثالثة، بأن الابتعاد عن البشر "غَنيمة" حقيقية [كما يقول مثلنا الشعبي]، خصوصاً أولئك الذين يمارسون الحياة بصيغتها الأولى/ الفِطرية جداً، واحتكاكنا الطويل بهم يعطّل بشكل أساس ترقّينا الروحاني [رغم انه قد يعلّمنا سوياً ما لم نختبر كالصبر والتحمّل] ولأننا مهيأة أرواحنا لاستيعاب الآخرين الـ يساعدوننا على الترقّي المأمول ضمن تجارب حاضرة، فإننا بين فترة وأخرى نخضع لما يشبه "أوراق الاختبارات المعدّة بدقة" لأجلك/ لأجلي / لأجلنا جميعا، وفق المستوى الروحي.

كل "المصائب" [كما نصفها] والمشاكل والخضّات والرعب والمعضلات التي بلا حل [أو هكذا نظن] كل تلك الطرق المبتورة وكل الحزن والفقد؛ هي ضمن ورقة اختياراتنا الشخصية جداً [بعض الاختبارات تأخذ شكلاً جَمْعياً في حالات خاصة] بل وحتى الفرح والبهجة والتفوّق ومكافئات الدنيا، هي أيضا ضمن مقرّراتنا الروحانية، كلها عدسة مكبّرة متجسّدة في مواقف/ تجارب حياتية كي نرى بوضوح أكثر، وكي نصل للمعاني أفضل، نحن هنا في "الجنة/ النار"؛نعيشها، هكذا يؤمن من يستشعرون مسارات الحياة عبر أكثر من خمس حواس.

أما أصحاب الحواس الخمسة فقط، هم من يظنون بأن "السماء" من الممكن أن تنساهم، يظنّون ذلك، لأن وعيهم قاصِر بأدوارهم، ولأن لهم الظاهر/ الملموس/ المحسوس من الأحداث التي لا تأتِ متحقّقة على مقاسات انتظارهم، وهذا خطأ فادح.

فهل يحدث أن تنشغل عنّا السماء؟

لا يمكن، فهي تصنع خارطة للخلق، ولا تقطع كل تلك الخيوط الفضية المشبوكة بها [أقدارنا] لا تهجرنا المبهجات أبدا، لكننا من يخنقها، فنكبر الأزمة بيننا وبين تحقّقها، وقد يبتلعها النسيان/التأجيل/التحويل، لأنكم تصرّون في طلبها في وقت نظنونه المناسب، ولأنكم لستم قادرين على العطاء مقابل الأخذ، حين تتساءلون يوماً: متى يحين دور أيتام السماء يا الله؟!

سيجيء الجواب حتماً، لكن كونوا يقظين عبر أكثر من مجرّد خمس حواس.

لأخبركم شيئاً..

أعرف صديقاً كلما استضافت عليه التجارب في هذه الحياة صاح عبر تنهيدة صرتُ أحفظها: "لعن الله ذلك اليوم وذلك الفعل"

بعد مدّةٍ من التّقارب بيننا، تجرّأتُ وسألته، أي يومٍ وأيّ فعلٍ الذين تّلعنهما وتُلبِسهُما التّهمة؟

ضحك من أنفه مجيباً: "يوم تطفّل آدم والْتَهم التفاحة فنزلَ بِنا إلى أسفل سافلين"!

مرّ وقت طويل من الصمت بيننا قبل أن أكسره:

"آدم وحواء ليسا سوى ومزين لنقطة انطلاق التجربة الإنسانية الكبرى، هما رمز مشترك معنويّ وصريح لما نعيشه نحن، قصتنا كل لحظة [نحن البشر]، الشك والخوف في مقابل التعلّم والحكمة، هو قرار لا يشير لهما، أو لوجوديهما الحقيقي/ الفعلي كرجل وامرأة في مكان ما [يدعى جنة الفردوس] وبينهما شجرة تفاح وأفعى توَسْوس لهما وتبذر الشك، كل ذلك هو عبارة عن "سينوغرافيا" تؤسّس لمشهد يتناسب والتلقّي العقلي الذي يصل لمن يستخدم حواسه الخمسة فقط، تلك الحكاية الدينية وغيرها ليست سوى مختصرات عن كلّ تحدٍّ نحياه كبشر ونموذج كي نفهم/ نعي الفكرة الأشمل، ويبدو بأنه ما يزال هناك قصوراً في التلقّي وفي قبول التصوّرات المتوارثة ".

مُنْذها؛ توقّف الصديق عن لعن اليوم والفعل، وبعد مدّة كافية لاستيعاب ما أخبرته به، توقّف عن لقائي.

أبهجني على الأقل توقّفه عن اللعن، فالكلمات البذيئة/ الجارحة/ غير المقبولة والشتائم، كلها وقود البشاعات التي نحياها كل لحظة، الكلمة المُرّة تترك أثرها على اللسان طويلاً [وفي الفضاء المحيط المفتوح بيننا] وطاقتها مقيتة في السماء وعلى الأرض وبين البشر؛ ما لم تُحلّى/تُطهّر بكلمة أخرى تحدّ من أذاها.. وقبل القول، أي قول؛ راقبوا نواياكم.

تعلّمت منذ الصغر، يوم كنت ألتقط من المحيط معرفتي الأولية، بأن "النيّة" هي ناصية كل آتٍ لنا.

تلك العجوز العراقية النحيلة التي كانت تفترش الأرض في زاوية نميّزها في "سوق السالمية" بين عمودين لتبيع ما تيسّر من بضائعها النسائية الشعبية زهيدة الثمن، كنا نَمُرّ لَصقَها خلال تجوالنا في السّوق وكنتُ أنا ابنةَ ثمانِ سنوات رفقةَ أمي، لا يكفّ لسانها الذَلِقُ عن الترحيب والدعوة للشّراء بحيث تَستثيرُ عُيوننا لرؤية ما تحويه "بَسطتها" البائسة؛ علْك اللبان، ولِيفَة للاستحمام وكثير من التفاصيل التي تَهمّ النساء والنظافة الشخصية، تسألها النسوة العابرات بصوت عال:

"بكم هذا حَجُيّة"؟

تجيبهن شفاهة ويكون السعر زهيداً جداً، وأحياناً تشير بإظهار أصابعها المعروقة بالشقاء والوشم البدائي، وحين تبدأ النسوة بالهمس والتضاحك والاعتراض على السعر، لا ترد، بل تصمت طويلاً بما يشبه الحنق، وتغيير اتجاه جلستها لتجعل الشارع قبلتها.

تسألها إحداهن: "ها حَجُيّة ما رأيك"؟

ترد بعبارة واحدة: "اختلفت نيّاتكن ولن أبيع"

تلمّ بِضاعتها وتُغطيها. تبقى تتمتم بنصائح سيدة عاشت طويلاً في التعب:

"انتبهنّ لنواياكن يمّة، ترى النّية مَطيّة، تختلف نِيّتِك أبَدْ ما بِصِير خير"

تنسحب من الحوار ومن البيع ومن المحيط وتتوحّد مع سيجارتها الرخيصة روجها للحياة.

كنتُ وأنا ابنة ٨ سنوات أُبْهَرَ بصلابتها حقاً، تخَلِّيها عن البيع الذي تتعيش منه، لأنها صاحبة مبدأ تؤمن به عميقا.

لاحقاً، فطنت بأن الفكرة طاقة، تَكتسبُ شَكلها طِبقا للوعي بالأشياء [الوعي ليس له علاقة بالثقافة دائماً] وكل درجة من الوعي؛ نور.

النور يتدفّق بنا، نور الكون، وهنا يتضح كيف نشعر، كيف نفكّر وكيف نتصرّف، وما هي رغباتنا الحقيقية [الكامنة]، فهي النوايا قبل التحقّق.

كان من الطبيعي فيما قبل الوعي، أن أمارس الحياة بحواسي الخمسة فقط.

تعبتُ طويلاً قبل أن أعي مشكلاتي الكثيرة، سعيٌ حَثيثٌ [بخمسِ حواس فقط] ولا طائل.

لاحقا، ومع نزع قشرة البدائية في الفهم، علمتُ جيداً، بأن النوايا تَصنعُنا، نرسُمُ خطوط الحقيقة التي نعيشها، وقبل أن أتعلّم كل ذلك كنت ضمن آخرين كثر نظن بأننا لسنا المسئولون عن أعمالنا، ومن ثم نتائجها، وبأن هذا الكون لن يتفكك/يتلِف لأننا [جميعنا] نتصرّف دائماً وفق مبدأ الأخذ، ثم الأخذ ولا شيء غيره.

الإنسان عادة ما يستميت لحيازة كل ما يمتّعه، فيدفعُ بكل نواياه السّيئة [لأن التملك والرغبة الشديدة في الشيء ينزلنا لمراتب دنيا جداً من الروحانية] والتي هي المنافسة المدمّرة في الاقتناء والحيازة والـــ تميّز، وبين ذلك كله، يصبح من ينادي بالوعي والتعلّم والتخفّف والانتباه، مُملاً، مربكاً وخيالياً وخارجاً عن الطبيعة وآتٍ من عصور ما قبل التاريخ [هذا ما يُقال عنّا الآن]!

وعلى هذا المبدأ [ولو لم يعجب الكثيرين] نحاول استكمال الرحلة، فليس من المتأخر أبداً/ مطلقاً أن تسأل ذاتك: هل أنا مستعدّ لتغيير الحياة التي أحياها ولتغيير الداخل العميق؟

أعلم بأن "المؤمنين" لديهم تقديراتهم الشخصية جداً في وزن الصواب من الخطأ، المعقول من غيره، الطبيعي من السلوك من سواه. وللـ "مؤمنين" كذلك قياساتهم في الخير والشر، وهم يرون بأن الأبيض ناصع والأسود ظلام وما بينهما ليس سوى مضاع لا يحتمل التقييم، وهم يُتقنون الميل الحدّيّ بين الخير المطلق، أو الشر المنتقم، وحين يمارسون الخير يَفْجُرون بالإشارة لذواتهم أو محبّيهم، بينما يجلدون أنفسهم أو غيرهم طويلاً بالاعتراف والصّوم التّكفيريّ [الاستغفاري] وإرهاق المخيّلة الإنسانية حتى أقصاها/ أقساها ببشاعات الانتقام الإلهي منهم/ منا / من الكون.

مسكين من لم يُحسن بعد قراءة وفهم المغزى الفكريّ من "الرسالات والأديان" بأبسط ما يمكن.

36

كنت في العام ٢٠١٤ في كاتدرائية مهيبة، في بريطانيا، عمرها يقارب الـ ٢٤٠ عاماً [كما دُوّن على لوحة خشبية هناك] وكما حَكى لي القسّيس الذي استوقفه انتباهي الطويل وتأملي لأرضية الكاتدرائية الحجرية من جهة والخشبية من جهة المذبح، الجانب الحجري كان يحتوي على فتحات تنفث هواءً دافئاً للـ "مؤمنين" والزائرين على حد سواء، هذا القسّيس الذي خرج من وراء الساتر الخشبي [مكان الاعتراف بالخطايا] بعد انتهاء عدد من المعترفين بذنوب اقترفوها لديه، اللافت بأن سيدة عجوز تقارب التسعين، تقف ضامة ذراعيها بيعضيهما ومطرقة بعينها نحو الأرض خلال انتظارها لدورها على شباك الاعتراف، كانت الدموع تملأ عينيها الغائرتين بالقلق والعمر الطويل، كنت أتأملها بحزن، بماذا يمكن لسيدة ضعيفة جاوزت التسعين أن تعترف لكاهن في كاتدرائية يبلغ نصف عمرها "تكفيراً" عن أخطائها؟

كنت قد خرجت من الكنيسة بعد موسيقى الاوركسترا الأسبوعية هناك، بخلاصة أفكر بها، وهي أننا جميعا نُحسن ممارسة "الجَلْد الذاتي" إذا ما شعرنا بتقصيرنا "الديني"، لكننا نادراً [بل يكاد يكون معدوماً] أن نعاتب ذواتنا لتقصيرنا مع أنفسنا!

إعادة تربية/ تهذيب والاشتغال على الذات هي رسالتنا الحقيقية، إننا ننسى بأن النفس فِطرية/ بدائية التكوّن وتحتاج دائماً لمجهودات عظيمة وصراعات متتالية مريرة وتجارب لاستكمال النضج المأمول، كي نسمو قليلاً، ولا نحتاج لجلد ذات نمارسه كي نشعر بالخِفّة.

في سنوات ما قبل نَزْع القشرة عني: كنتُ أخاف الله جداً.

أجزعُ من مجرّد التفكير به كـ كيانٍ غير معرَّف إلاّ بعقاباته التي تنتظرها البشرية [كل تلك المآسي والتقوّلات التي كرّستها حصص الدين في المدرسة وكذلك ترهيب أهلنا منه] استحضرُ تلك الوسيلة الإرشادية الورَقيّة المرسومة، والتي تحمل صورتين شبه متطابقتين: أحداهما لفتاة عاصِية "دمية" ملفوفة في كفنها وتنام في قبر متخيّل ويعتصرها "الشُجاع الأقرع" [هكذا كان اسم الثعبان في حصص الدين الرسمية في المدرسة] ودائماً ما كنت أتساءل:

"كيف للثعبان ألاّ يكون أقرعاً"؟!

لأنها عاصية ولم تكن "مواظبة على صلاتها"، فإن مصيرها العَصْر حتى النزف! [بينما هي ميتة واقعاً].

كل تلك الدروس كانت غاية في البشاعة والترهيب، والتذبذب بين أن يقنعك المدرّس بحبّ الله أو الخوف منه، لأنه لا يستخدم في وصفه [كما النصّ الديني] إلاّ صفات كـــ الخالق الجبّار/ المنتقم/ شديد العقاب والذي [في الوقت نفسه] علينا كأطفال أن نحبّه حدّ التماهي معه وطاعته!

كنتُ صغيرة بقلبٍ يحبّ الاكتشاف والتعرّف على كونٍ بَدا لي [حينها] مغلّفاً بنايلون ينتظر النَّزْع للاقتراب من ملامحه الأصلية أكثر، قلبي صغير

ومناسب لعمري الذي توزّع على مراحل التلقّي الأولى [٥- ١٣] ولم يتدرّب بعد على الحياة ولم يلامس الأذى، فقط تعاطى مع الفَرَح الطازج الذي تهزّه هدية مزركشة و "عِيديّة"، أو وجبة طبخت بمحبّة، وفراش نظيف ملوّن بالشخصيات باعثة الأحلام ورغبات بسيطة متحقّقة لأي طفلة تعيش في أسرة مكتفية بما لديها.

لكني، شَقَقت ذلك "النايْلون" اللامرئي.

وصرتُ بعد عدّة تجارب موجعة في الروح، أعرف بأن الله عظيم لدرجة لا يعرفها إلاّ الهائمون في القناعة والرضا، الواثقون من أنه يتخالط تواصلاً خاصاً مع النوايا [والنوايا امتحانٌ لاهث] حين لا يشوبها "شرّ" أو "أسْوداد"، بأن "الخير" هو متّكأ الحافظين لعهده والموقنين برأفته، حيث لا خطّ للوصول [آخر السباق/العبور]، ولا طلقة تعلن البدء والانتهاء، حيث هو بقلب رحيم يتسع لتقلّبات "الإنس" وما يبطنون مهما تقلّبوا في الشكّ طويلاً، إنما هم يختبرون أدوارهم كما ينبغي لهم.

لقد نَفضتُ مخاوفي كلها [تلك التي رسّبها جهل معلّمات الطفولة] من "شَكل" الله [الذي يعرفونه ويروّجون له] إلى صورة "الله" [الذي وجدته ويقي يرشدني برعاية عالية]، فما عُدتُ تلك الطفلة التي تَخاف من يوم الأهوال العظمى [القيامة] ولا من عذابات النار. وبالمقابل لستُ أطمع/أطمح بالجنة التي وصفوها لنا [فهي من دفاتر الجهل ذاتها التي وصفت الله]، لقد تبدّلت مفاهيمي لمعنى "الله" وعلاقتنا به؛ نحن المؤمنة أرواحنا به والمتعلقة بـــ إرشاده فقط ولا شيء آخر.

37

في طفولتي؛ تنقّلتُ بين مدارس متعدّدة في أول مراحلي، الروضة وهي مرحلتين، انقَسَمَتْ حينها فعلاً إلى روضتين مختلفتين، كانت الأولى "روضة ابن حيّان" في الأحمدي [أُغلِقَتْ الروضة في العام ٢٠١٥ بأمر من وزارة التربية]، ثم "روضة بغداد" [في ٢٠١٦ تحوّلت لمقرّات لجمعيات نفع عام]، كلها كانت في المنطقة العاشرة[1]، لكن التجارب الأولى هي أمور بسيطة لكنها تحفظ جيداً في ذاكرة هذا الكائن الصغير المنتبه أبداً لكل المتناقضات من حوله!

بعدها، تَراوَحَ التحاقي بين مَدْرستين اثنتين أيضاً للمرحلة الابتدائية، "مدرسة ريْحانة"، ثم "مدرسة زينب بنت خزيمة". ولا شك بأن لكل اسم أذكره الآن ما يشتبك معه من ذكريات وصور تصاحب كلّ سنة منها، غير أن ما رسخ جيداً في الذاكرة هي "أبلة سكينة"، معلّمتي الأقرب/الأحب من "روضة بغداد"، المعلمة الشابة -آنذاك ـ والتي نتبادل هي وأنا محبّة عالية، صورتها حتى الآن معلّقة في إحدى دهاليز عقلي؛ وجهٌ دائريّ قمريّ، حجابها الذي يغطّي منطقة الذقن، "إيشاربها" كان عريضاً بخيوط لامعة وملوّنة [موضة سنوات ٨٢-٨٣] وتربط طرفه الأيمن مسحوباً لأسفل أذنها اليسرى لتضمن

(١) محافظة الأحمدي: تأسست عام ١٩٦٢ أكثر محافظة ذو كثافة سكانية للكويتيين.

تغطية رقبتها، أسنانها بارزة قليلاً وبطرف سنّ مثلومة من الزاوية، لكن عيناها تنسحبان بشدة حين تبتسم لي في أول لقاءات الصباح، بينما تتلقّفني فاتحة ذراعيها لي لتحملني، وأنا ألوّح مودّعة ماما.

في يوم ما، اختارتني "أبلة سكينة" لإنشاد أُهزوجة دينية/اجتماعية/شعبية، تُغنّى عادة من التراث الكويتي احتفالاً بمن ختَمَ حفظاً القرآن الكريم من الصغار، تشجيعاً لهم، دَسّتْ في يدي ورقة مكتوبة لأسلّمها أمي لكي تتكفّل بتلقيني الأنشودة المدوّنة فيها، عيناي مرتبكتان تطلبان المزيد من الفهم، فالمكتوب على الورقة لا أعرف قراءته، قالت لي:

"قولي لماما هذه الخَتْمة لازم تحفظينها".

ظهراً وصَلت ماما لاستلامي، بيدي الورقة وأمي تمسك بيدي الأخرى، تبادلنا حديثاً سريعاً ثم نَزَلَتْ "أبلة سكينة" لتجاورني الارتفاع قائلة: "فَلْتُعطِ الورقة لماما"، وقرصَت خَدّي المُحْمَر بحرارة الطقس، مَرَرتُ الورقة لماما، في البيت كان الغناء مستمراً ومشتركاً لما تسمى "التّحْميدة":

"الحمدُ للهِ الذي هَدانا، آمين، للدينِ والإسلامِ اجتبانا، آمين..."

استدعيت هذا التذكّر، لأقول بأنني قبل أن أقترب من دائرة الانتباه، كنتُ أضجرُ من هكذا ترتيب قدري، والذي كان دوماً ما يبدو لي أنه يعاكسني ويناكفني ويختارني للأذى [ما أحب] ولا شيء غيره.

في الواقع نحنُ [قبل الفهم] نكونُ في حالةٍ مستمرةٍ من الدفاع الشديد عن النفس، حاملين مُسَلّماتنا [بلا أدنى تفكير] وإرثنا الثقيل جداً لنكمل مسيراً غامضاً، ممتلئاً بالدعوات والتضرّعات التي لا يمكنها [بأي شكل من الأشكال

الإعجازية] أن تتحقَّق ليس لأنها مستحيلة، إنما لأننا من نبعدُ أنفسنا عنها بـ لا وعينا وطلباتنا الموجّه نحو الله والحياة والكون [فيما نحن واقعاً لا نستحقها أبداً].

مع هذا المسير الذي نشتبك فيه كلّ حياتنا الأرضية ونظلّ عبر توارث الفكرة/ الأفكار [بشكل تشوّهات أرواحنا ولا معقوليتها] من جماعتنا الأولى/ الأسرة/أهلنا ومحيطنا الذي يفتقر لطرح السؤال [عادة] ويمارس علينا المنع والترهيب والتوجيه، ويأمرنا بنَفْض "شيطان" الأفكار المنطلقة من "نفثة شك". أو طلقة استفهام أوّلي في الهواء المشاع، فإننا نظلّ حبيسي رغبات ليست لنا، لا تلائمنا، لم تكتب لنا، نعاند كل شيء لأجل رغبات أخرى زُرعت في رؤوسنا والْتصَقت في قائمة أمنياتنا، فنبقى في حالة تحفّز تام لكل ما يجيء مخبّأً [تجيء الأشياء المخبّية ونراها معاكسة لتعلّمنا أشياء وتضعنا على درب الانتباه والوعي السليمين لتحقيق سلامة آتية في خوض ما تبقى من الحياة] ونكون في حالة استنكار لكل ما يأتينا على هيئة "مشكلات صغيرة" يعظّمها عدم قبولنا لها وفهمها.

كنتُ تماماً الشخصية أعلاه في العشريتين الأوليتين، بشاعة الارتباك والحنق كانت تغلّفني، سنواتي العشرة الأولى والثانية كانت مسلسلاً لا مفهوماً [في حينها] من معاكسات لما أشتهي وأتمنى!

كنتُ برفضي [اللاواعي] والمعتمد على حواسي الخمس السطحية جداً، أجتذب المزيد منها لحياتي مما يبقيني مندهشة/مذهولة/مرهقة ومكتئبة وحانقة جداً معظم الوقت، مشكلات صغيرة وتافهة [كما أستدعيها الآن] بلا معنى، لكنها دالّة جداً.

كنت أستغرب أن يُصرّ أستاذي في الجامعة "قسم الإعلام" ويُعاندني ليَحْصِرَ وظيفتي التطبيقية في شيئين، إما أن أكون مصوَراً، أو فنّي إضاءة؛ وهما ما يحتاجان فرداً ببنية طويلة نسبياً، وما سيترتّب عليه من نتائج غير مرضية في اختباراتي، أو أن يتم اختياري وأنا التلميذة الخجولة جداً لأكون المسئولة عن "قَرع الجرس" بين حصص المدرسة الابتدائية، الأمر الذي يستلزم دخولي لغرفة ناظرة المدرسة القاسية آنذاك! أو ما الداعي لاختياري لتجويد القرآن في برنامج الإذاعة المدرسية في المرحلة المتوسطة، أو أن "أُستخدَم" كنموذج حيّ لتعليم الزميلات التلميذات الخطوات الصحيحة للوضوء؟ أو إنشاد "الحمد لله الذي هدانا، للدين والإسلام اجتبانا" وأنا شخصية خجولة، لكنني ضاجّة بالأسئلة المتشابكة/المقلقة عن الدين تحديداً. أو أن يطلبني "للزواج" شخص ملتزم دينياً من بلد آخر، ويحرص على ارتدائي الحجاب قبل السفر للكويت للرؤية الشرعية، حيث [يمكنه آنذاك] يَقبل أو يرفض بعد ذلك؟ أو أن أكون أصدق "الصديقات" لزملائي الشبّان بمختلف مراحل الجامعة [أرتّب وأصوغ لهم كلام المودّة لمن يحبون] بينما لا أعرف من دَقّة قلب المراهقة إلاّ اسمها ووصفها وشعورها [آنذاك] الذي تتركه على ملامح صديقاتي/ أصدقائي العشّاق!

كنت قد تجاوزت السنوات الـ يفترض أنها مجنونة بدَقّات القلوب [التي نسميها مراهقة الآن] وبعدها سنواتي في الدراسة الجامعية، وهي أول احتكاك طبيعي/ مشروع /واقٍ وحقيقيّ مع النصف الممنوع عنّا مجتمعياً، والذي تتكفّل عاداتنا/تقاليدنا بـ إبعاده عنا وتشويهه، كذلك خوف أهلنا من هكذا علاقات، الرُهاب الذي يقيّده نبذ الاكتشاف والتعرّف والاقتراب وانعدام الثقة [في واقع الأمر]، مع ذلك لم تكن "مُصادَقة" الجنس الآخر [الذكور] صعبة عليّ أنا

[كما تظن كثير من الفتيات]، لأنني ببساطة عشتُ في عائلة ساهمت [طبيعياً] في تقريبنا من بعضنا البعض، نحن وأقراننا من الذكور كنا في لقاءات أسبوعية منذ الطفولة حتى مرحلة المراهقة والشباب، حواراتنا كلها تشبه تلك التي تدور بين الإخوة في البيوت وكلّ يوم، كذلك علاقات مع الصبية/الأولاد/الذكور/ الشباب من أبناء الأسرة الصديقة التي شاركتنا السكن في مدينتنا "الأحمدي"، إذ كانت الجلسات دائماً عائلية مشتركة لا يشوبها تلصّص أو دناءة ما. فقد اعتدنا في بيتنا على الاختلاط الطبيعي/الإنساني بالجنس الآخر. لذا، يوم قفزتُ بمراهقتي لممرّات ومباني الجامعة، لم يقلقني سوى مستقبلي الدراسي، ولم تلامسني الحيرة في كيفية التعاطي مع الزملاء الشباب، بل كنت أعرف التعامل معهم منذ طفولتي.

لقد كانت صداقات سنوات الجامعة كثيرة، بعضها ممتد حتى هذه اللحظة، ونتابع بعيون فرحة ما وصل إليه زملاؤنا من مراكز في العمل والمنجزات على اختلافها، أفخر كثيراً بذلك وأشير إليهم بأصدقائي الذين شاركوني وِداد تلك السنوات [١٩٩٥-١٩٩٩]، لقد تغيّر الوقت، وتبدّلت كل تلك المشاعر، حتى آراؤنا ونظرتنا تجاه الأشياء والبشر، لكننا [على الأقل] لم نُبدّل نظرتنا نحو بعضنا، أو هكذا أشعر، ففي اللحظة التي تلتقي فيها القلوب، نعود أبناء تلك الجامعة وزملاء/أصدقاء مشاعر تلك السنوات بلا منطقية للأمور.

قبل ذلك النضج، عشنا كما غيرنا شقاوة المرحلة الثانوية [١٩٩٤-١٩٩١]، فكرة النضج الأولي التي كانت عبر التحاقنا بمنهج تعليميّ كان في الأوج آنذاك يسمى "نظام المقرّرات" الثانوي، هذا النموذج المصغّر المطابق تماماً لنظام الدراسة الجامعية، التي سنتأهّل لها كخطوة لاحقة، دراستنا تلك

مكنتنا من النضج والانتباه العاليين.

ليس ذلك فقط، بل أيضاً حكايات الفتيات/الزميلات [المراهقات] والاعترافات [لم تكن تخلو من الكذبات الصغيرة]، التي تتبادلها قلوبهم المُرَفْرفة بقلوب الحب الطائرة على دفاترهن، تلك التجارب البدائية من الوَلَه، التي تشبه مدّ أرجلهن لمنبع ماء بارد جداً، يودَدْن لو لامَسنه بأطراف أقدامهن بتلذّذ المغامرة المتخيّلة، تلك الـ نَجمع بين الاكتشاف وعدم الرغبة بالبلل الكامل!

كنت ألمس اختلافي عنهن.

لم يشغلني التعرّف على عالم "الحب الأول" أبداً [لسبب كنت أجهله]، في تلك الأيام كانت عدد من رفيقات الدراسة قد انتزعت كلّ منهن "آخَر" من شارع الحياة/ الجيرة/ العائلة والمعارف.. كنتُ مفجوعة باختيار زميلة قرّرت التخلي عن "بعثتها" الجامعية المجّانية الممنوحة من الدولة لها، منحة لا تُعطى إلاّ للمتفوّقات وكانت منهن، فقط لتبقى قُرب "حبيبها" الذي تعرّفت عليه/ تعلّقت به منذ السنة الثانوية الأولى؛ حبيبها الذي خذلها لاحقاً ونال/استكمل "بعثته" الدراسية في الطب وسافر نحو "اسكتلندا" وغاب عنها بعد بكاء مُرّ في المطار، ولم تعرف عنه شيئاً بعد ذلك.

لم تنتهِ أيّ من علاقات "فتيات الثانوية" العاطفية نهايات سعيدة أبداً [كما تخيّلن] إطلاقا، بل فتَحْن لاحقاً شبابيك يأسهن لأيّ "عرض بالزواج" قد يمرّ بهن، تزوّجن أولئك الذكور ممن تزوّجهن أمهاتهن، وانتهت ليالي السّهر والتنهّدات. كنتُ دائماً أنصت لقصصهن السابحة بالأمنيات المتخيّلة وأحلام الأميرات، ويا للسذاجة، ينقشن حروفهن الأولى لصق حروف أحبابهنّ، ويظنّ

بدائيّ بأن ارتباطاً أبدياً قد عُقِدَ بهذا الحبر المسكوب على أطراف دفاترهنّ الملوّنة بالرغبات المختبئة بالعلم.

كل ذلك تسرّب من بين أيامهنّ، ذهبت الأحلام مع إيماءة الرأس بـ "نعم"، تلك الموافقة الصامتة المسطّحة الشعور، أجبرتهن على خوض حياة مبكرة/ متسارعة وجديدة مع "حَرْف" لم يشتبك بحروفهن، لكنهن أنجبن أطفالاً لم يكونوا أزهار حب ونتاج شغف، بل نتاجاً لزواج مرتّب أضاف على سنواتهن سنوات وهمية.

حياتي [آنذاك] كانت منشغلة بالآتي علماً.

وذلك القلق المستمر في العيون منحني موضوعاً أكثر أهمية للانتباه والترقّب والتخطيط والنظر نحوه طويلاً، سنوات أربع آتية [الجامعية] هي المتبقّيات كـ حِمْلٍ ينتظر إنزاله عن ظهري، ومن ثم التفرّغ للاستمتاع بانقضاء الرحلة الطويلة، فمن كانت تطمح بالزواج والأبناء ذلك الحين، بينما نحن [فعلياً] ما نزال في فورة الانطلاق لخارج قشر بيضة محمولة برفق ورعاية عنيفتين لكنهما مُحكمتين!

كنتُ حينها لا أفكر إلاّ بي.

بالمستقبل الـ يتراءى لي "هناك"، ومراحل متتالية تستحق أن تُعاش، لا أن تتعيّش على فرحي بها.

وكم "كان" يؤلمني أن يبترَ خطّ حياة أحدهم "موتاً" من دون أن يتمكن من المرور بتلك التفاصيل الماتعة!

أتذكر بأن أمي قد حكت لي يوماً، عن طفولتها، حين كان يُحزنها أن يَموت أحدهم لتعلّق ببراءة طفلة تُنصت للكبار:

"حرام! مات من دون أن يعرف مصير فلسطين"!

ماذا لو علمت أمي الآن تحديداً بأنه لم يعد شيء يهمّني لأعرف مصيره ونهاياته؟

وبأن الشعور المتكثّف [حالياً] وأنا ألامس الأربعين هو الاكتفاء من هذه الحياة؟

وبأن الدهشات قد غابت إلاّ قليلا؟

حين كنتُ في عشريتي الثانية [١٩٩٧- ٢٠٠٥] مُتّكئة على أخفّ مراحل العمر، المكلّلة بالنشاط والصحة والانطلاق والمرح، وشغف كثير للاكتشاف المنتظر، لعلّي كنت قد استهلكت طاقتي الذهنية كلها في الاشتغال على الذات، ولأنني ولدت [في هذه الحياة ١٩٧٧] وحيدة/ بلا أخت أنثى، تعلّمتُ منذ عمر مبكر أن اعتمد على عقلي في القرارات والتفكير والاختيار، كنت [وما زلت] أدير حوارات مع نفسي، كذلك صادقت والدتي جيداً، تصادقنا رغم أننا مختلفتان تماماً، في آرائنا، نظراتنا للأمور والحياة، لكننا نشترك جيداً في شعور الوحدة.

قضت أمي سنوات طويلة امتدت منذ دراستي الجامعية [١٩٩٥] حتى العام [٢٠١٠]، وهي مدة طويلة جداً بالنسبة لـ أُمّ لديها ابنة واحدة لتقلق بشأنها كـ حال كلّ الأمهات العربيات المكرّسات لانتظار ما لا يجيء، أُمّ تريد أن ترى ذلك اليوم السحري الذي سيجلب السّعد لقلبها بزواج ابنتها/ زواجي أنا.

الفكرة أعجزتها عن التعامل معي/ مع وضعي المريب [كما كانت تراه آنذاك]، نحن نتحدث عن عشرة سنوات [في حينها يوم استلمت وظيفتي حتى ٢٠١٠] متكاملة التقلّبات والأحداث والاحتفالات المتتالية لتزويج معظم شباب وفتيات العائلة، وكل احتفال/دعوة كانت تفتح جرح قلبها الذي [لا

تَبرع] في مداراته بالحب والرعاية الغامرَيْن، توزعهما بلا طلب أو مقابل.

لقد كنت [ما زلت] أقرؤها/عينيها، كتفيها الهابطين حين أدخل للبيت ظهراً بعد انتهاء العمل، أو حتى ليلاً بعد عودتي من تجمّع كتابيّ مع الأصدقاء.. أسألها وأنا مبتسمة بفداحة لاستنطاقها :

"خير"؟

تجيء أمنياتها عبر عينيها وابتسامتها التي أعشق، بتمثيل لا تجيده أبداً [لأنها حقيقية]:

"العُقبى لك، ابنة عمّتك خُطبت.." أو "ابن عمّك سيَعقد قِرانه بعد يومين"

كانت كلماتي/ ردّي/ عباراتي واحدة دائماً:

"يا سلام.. بالتوفيق"

ويغرّد عصفور صغير في قلبي، لأنهم لا يتزوّجون باختياراتهم، بل أمهاتهن من تفعلن، لست مثلهم مُذ وُلدت؛ فكيف تكون السقطة حادّة في يوم ما، كي أرضي أمي فقط؟!

يمكنني مُصارحتكم الآن بأنني كنت قد شَرُفْتُ بالحضور لزواجات جميع فتيات وشبان العائلة الكريمة، على مدى السنوات العشر تلك، بل أيضا لاعبتُ أبناءَهم واستمتعتُ بصدقِ قناعتي حول "ترتيبات" أمهاتهم لتلك الزيجات التي تنضحُ بالارتباك والحزن والسريّة المفضوحة [بالنسبة للجميع ولا أحد يتحدّث عن ذلك].

كنتُ في كل صَفْعة تهزّ استقرار تلك الأسر الصغيرة المتكونة حديثاً ولم يمضِ على زواجها إلاّ سنوات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، أُحدّق في عيني

أمي اللتين أحزنهما [ما أسمته] استقرار أبناء العائلة بالزواج [قَبْلي]، وأعيد إخبارها بأن نظرية فاشلة تلك، نظرية البطيخة و [شَرْط السّكين]!

تهزّ رأسها بإيماءة موافقة، لكن "مَأتم" زواج جديد يعيدنا هي وأنا إلى "المربع الأول" من حزنها واستغرابي من حسرتها، وحوارات صامتة تنتظر التفجّر بالأعاجيب.

كنتُ مخلوقة عجيبة دائماً في تصرّفاتي في نظر أمي [هكذا أثق]، بل في نظر الناس، أغلب الناس.

على مدى السنوات، كان طبيعياً جداً أن أعبر و تعبرني عيون المعجبين من الزملاء والأصدقاء والمعارف، وأن أخوض في علاقات معرفة واقتراب واحتكاك بالآخر كمثل أي فتاة ناضجة وبوعي كافٍ لما تعنيه هكذا علاقات [ليست عابرة تماماً]، ولعلّ علاقات الصداقة هي الأبقى، والتي أعانتني على فهم الرجال بشكل [أظنه] جيد.

في كل تعرّف لـ غريب مسار حياتي، أو لزميل، أو لأي طامح للتعاطي الإنساني معي، تلمّساً لما يثير مشاعري حباً مثلاً حتى الارتباط، كنت في الواقع أعيد قراءة شعوري ونضج قلبي، حتى لو كان ذلك عبر علاقة أخوض فيها بحرص تام، ثم أنهيها لأنها لم تكن مناسبة فأحوّلها لمسار آخر كـ صداقة لطيفة وكفى.

معظم الإناث، كفتيات أو بعض السيدات، نشأنَ في مجتمعاتنا الأبويّة وبداخلهن خوف/ رُهاب متوارث من الرجال، بل عداء خفي وظاهر ضدّ ذواتهن من دون وعي بذلك [ما لم ينتبهن]، فمجتمعاتنا تربّي سلالة من نسوة سَهلات الانقياد إذا ما تعلّق الأمر بالرجل ومكانته، يستَحِلْنَ "حَريم" ضعيفات /

بكَاءات/ يقدّمن أنفسهن قرابينَ للخلاص من سلطة الأب نحو سلطة مشروعة [جديدة] في أنظارهن وهي "الزوج"، هذا الإرث القاسي الذي يسحبهن من شعورهن وكأن العواطف ليست جوهراً أساساً إنْ استقرّت هي؛ جاء كل شيء مبهج بعدها.

لقد تعلّمن من مصدر واحد، ممن سبقنهن تعباً، وورّثْنَ بدائية التعاطي مع ما تستلزمه أيامهنّ، يغيب عنهن رأس مثلث الأولويات الروحانية للأسف، الحب.

كيف يمكننا تعلّم ذلك بينما تغيب عنا جميعا/ عن أهلنا/ مجتمعنا/ عقولنا والناس، المتسرّبة أيامهم عبر ممارسة المُسلّم به من فهم متوارث بعدم فتْق السؤال، تغيب عنهم ثلاثية الحياة الأصيلة؛ الحب، العطاء والحق.

أظن بأن أبي هو من فتح وعيي الصغير على الحق.

فعل ذلك عبر ممارساته، لقد علّمني الكثير بشخصيته من دون قصد منه، لقد عَلّق عمّي الراحل يوماً منتقداً سلوكي الحازم: "أنتِ حادّة مثْل أبوك"!

نعم، لأبي شخصية صارمة وجادّة، لكنه واعٍ لما وراء الحزم تجاه الأحداث وعلى أساسها يتّخذ مواقفه من الأشياء والناس وتنتهي مواقفه لاختيار سلوك صحيح ولائق كنتائج.

في الواقع، أبي لم يكن على تماسّ مباشر جداً في تربيتنا حين كنا صغاراً، بمعنى أنه لم يكن يوجّه رسائله التربوية مباشرة لهدف تعليمنا المدروس لكل ما هو مقبول أو مستهجن، ففي العشرية الأولى من عمري كان أبي غائباً/ منشغلاً معظم الوقت في عمله، يخرج من البيت تمام ٦ صباحاً [يصطحبني أحياناً

للمدرسة خلال هذه الساعة المبكرة جداً] ليعود للبيت حوالي ٧ مساء، وخلال تلك الفترة الطويلة من اليوم نتوزّع نحن ما بين المدرسة لـ ٦ ساعات ثم البيت رفقة ماما دائماً لمدة ٦ ساعات أخرى حتى يعود هو.

خلال الساعات الـ ٦ الثانية، نكون قد تناولنا وجبة الغداء وتحدّثنا كثيراً مع أمي حول منجزاتنا خلال صفوف الدراسة ونظل منشغلين في الانتهاء من حلّ واجباتنا المدرسية الكثيرة [آنذاك] حتى يجيء والدي من عمله مع تعليمات/ تنبيهات محذّرة من أمي بالتزام الصمت والهدوء، لأن بابا متعب من العمل.

يدخل أبي بجسدٍ مُرهق، يتناول طعاماً دافئاً بعناية أمي، ثم يتمدّد بنصف استلقاء صامتاً جداً، قد يتخلّل راحته كوباً من الشاي وصحيفة لم يتمكن من قراءتها صباحاً، يمضي أسبوع تلو الآخر، ولا يفصل التعب عن التعب إلاّ يوم إجازة تبدأ من منتصف نهار الخميس [عصراً زيارتنا الأسبوعية لبيت جدّي لأبي] ثم يوم الجمعة/ اليوم الميّت على الدوام، تُملأُ فيه الثلاجات طعاماً طازجاً يكفينا لأسبوع، أو يزيد، ويُشوَى فيه السمك لوجبة غداء لأسرة صغيرة اعتادت تكريس يوم ميت لأكثر ملذّات الله حضوراً ممكناً، وحين تغرب الشمس [الساعة التي تُرَحّل اليوم حتى نهاياته]، نكون قد حضّرنا جدول يوم الغد/حقائب مدراسنا لأسبوع جديد وضبطنا مع تصاعد روائح بخور السادسة عصراً، عقرب المنبّهات على الخامسة والنصف فجراً، لاستيقاظ مبكّر.

أعترف بأن الحوارات الطويلة كانت مفقودة مع والدي [في تلك السنوات المبكرة من عمري] لأنه كان في ذروة انشغاله واستهلاكه لطاقته النهارية في عمله/وظيفته التي يُقدّسها دوماً، فوالدي من أولئك البشر الذين يعشقون التحدّي في أعمالهم، بل ويُتقنون التفكير لتجاوز المعضلات ويحسنون التنفيذ في

العمل، لعلّه كان يأخذ أخبارنا من والدتي، ويراقبنا في تلك الساعات الأخيرة من اليوم قبل أن نندسّ في الفراش استعداداً ليوم جديد.

لكن، متى بدأت الحوارات المشتركة الجادة بيني وبين أبي؟

في الاحتلال [١٩٩٠]، وما قبلها قليلاً.

كنتُ في الثانية عشرة من عمري، وفي يوم جمعة [يوم ميت آخر] وكان هو بمزاج رائق وقد وجد بين يديّ كرّاس عريض الورق ومجموعة أقلام ملوّنة، قال لنا: "تعالوا لنخطّط مستقبلكم"!

تحلّقنا يومها حول بابا، أخوتي؛ وليد [١٥ عاماً]، زيد [٥ أعوام] وأنا [١٢ عاماً]، نحدّق بتخطيط يده على ورق الكرّاس الأبيض، بدأ بتدوين سنوات ميلادنا نحن الثلاثة، وانطلق بعَدّاد السنوات بالتزامن مع المراحل الدراسية المفترضة، كنتُ أراقب خطوط يده المستقيمة بالجمال والثقة وأبتهجُ أكثر بعدّاد السنوات/المراحل/العمر المتوازي بالانطلاق العددي التصاعدي.. كنا حينها في [١٩٨٩]، على طاولة المطبخ الدفيء، تحوم والدتي حولنا مثل فراشة تُحيي المكان بصوتها والراديو الذي يرافق ساعاتها في تحضير الوجبات [ورثتُ عادة الراديو عنها في مطبخي الخاص]، كان الوقت الضحى، بعدما انتهى/انتهينا من استشراف مستقبلنا والتخطيط له ورقياً، وقد وصل حتى العام ٢٠٠٠، قال أبي:

"احتفظي بهذا الجدول، لنرى أين ستكونون من مخطّطنا"

لكننا حين غبنا عن التوازي في السنوات والمراحل في ١٩٩٠ [الاحتلال العراقي]، أيقنتُ بأننا مهما كنا على تماسٍّ مع الوعي بالقادم، فنحن في غياب عمّا لا نعرف حقيقة.

في الاحتلال، كنا أسرة صغيرة تحاول كل الوقت الحفاظ على تماسكها، وكان أبي قريباً جداً حتى في الحوارات وانقطاعاتها وتبادل المخاوف والمقلقات التي تنز من تحت جلودنا، وكنتُ دائماً ما أقرأ ملامحه جيداً، وعبرها أزنُ قلبي واطمئنانه من عدمه.

لم أسأله يوماً [خلال القلق] ما رأيك؟ أو كيف ترى القادم؟ كنتُ أحدّق في عينيه وسلوكه فقط.

كانت تلك الأيام [الاحتلال] هي أيام الله التي كبرتُ بها، أيام الهَباء كما أسميها، نُمارس الانتظار لـ لا ندري ماذا تحديداً، طفلة تكبرُ في وقتٍ حَرِجٍ بالحرمان من كل شيء [كان وفيرا قبلها]، وقت مكرّس للتجربة العنيفة/ الكثيفة، أزجي الوقت بالمراقبة الشخصية و القراءة الشخصية وممارسة الحياة "داخل البيت"، وبتفكيك معاني الخطابات المتتالية على الشاشات والإذاعات، تعلّمتُ معجماً جديداً خاصّاً بالحرب، مع ذلك؛ كنتُ تماماً كغيري ممَن "صَمَدوا" على هذه الأرض، نبحث عن نهايات للوصول الرحيم، لقد غُلِّقَتْ علينا الرأفة وسُرِقَ منا النعيم، مع ذلك؛ كان تعلّمي/يقظتي تمضي على مهل، مثل تخمّر بطيء لكنه مُنضِج، تخمّر ينتج طعماً أصيلاً.

ففي تلك الفترة المتقطّعة من أيام الله، الساقطة من حسابات الحياة، إذ كنا نمارس التمسّك بالمستطاع لكي نقفز باتجاه أجندة الخالق من جديد، للعودة لأيام الصفاء التي كانت وبُترت من منتصفها.

لأن التواريخ مازالت مدوّنة على صفحات روحي؛ كنتُ [بعدها وحتى اللحظة في الواقع] كلما التقطت عيناي تاريخاً موصولاً في [١٩٩٠-١٩٩١] لحدثٍ شخصيّ لصديق، أو عابر تزوّج، أو انفصل، أو إنسان بدأ بعلاقة حب،

أو اشترى أو بَاع، كل من كان يمارس الحياة على فرحها خلال أيام الجَمْر التي كنا نحترق بدخانها، فإنني أصمت بشكل جنائزيّ وأتخندق في الحزن عميقاً، لأنني بعقل طفلة كنتُها [آنذاك] ظننت بأن الدنيا كلها قد توقفتْ عن إنجاب الفرح وبأن الشهور صارت عقيمة لأننا فقط نغيب عن خرائط الدنيا، وجداول التحرّكات الحرّة. كان الانتظار يشدّنا من ياقات انسخت كثيراً بالصبر والسّخام، وكل ذلك لم يمنعني عن التعلّم.

لنعبر كل تلك الحرائق، ولنستدعي سوياً لحظة معينة جمعتني بأبي.

في بيت جدي [١٩٩١] ـ بعد تحرير الكويت مباشرة، كنت في الثالثة عشرة تماماً، صرتها منذ مدّة، وأتذكر المشهد جيداً، أرتدي "تايور" محاكاً من الصوف الناعم، باللون الأخضر الجيشي، التنّورة تصل لمنتصف الساق، والبلوزة بكمّين يصلان حتى منتصف الساعد [لقد كنت في أول تباشير التفتّح] يزينهما خطّ بنفسجي واضح.

جالسة بلا صوت [كما كنت في طفولتي ومراهقتي دائماً] في بيت جدّي المتوفى، البيت الذي صار بيت الجدّة منذ [١٩٨٧]، إنه اجتماعنا الأسبوعي الذي يبدأ عصر الخميس حتى قبل العاشرة بقليل، الْتفتَ أحد أعمامي الخمسة [لدي ٥ أعمام و ٦ عمّات] نحو أمي التي كانت تجلس لصقي تماماً، همس لها بحاجبين معقودين على قلق عالٍ وشيء من الارتباك:

"ميس كبرت، صار وقت الحجاب"

انتشر صمت مشتبك بالدهشة، تلاقت أعيننا أمي وأنا، نظرتْ نحوي وكأنها تُعيد التأكد من تفتّحي، فرفعتُ أنا رأسي موجّهة بصري نحو عمّي، كانت نظرتي حانقة.

لقد ارتعبت من مجرّد التفكير بأن يفرض عمّ لي رأيه فيما يخصني، أتذكر بأن أمي أجابته بأنها أمي وهي لم تتحجّب بعد، فكيف لها أن تفرض الحجاب عليّ؟كان جوابه حاضراً في جيب "دِشْداشَتِه":

"هي ابنتنا نحن، أنت زوجة أخي وهو المسئول عنك"

أبي كان جالساً في طرف الصالة البعيد/ القريب، هناك، حوّلت نظري نحوه بشبه استنجاد، كان متشاغلاً بالبحث في محفظته لكنه منصتٌ تماماً للحوار، حين التقت عيوننا هو وأنا غَمَزَ لي بطريقته التي أعرفها، غمزة طمأنينة بثّها نحوي أن "لا تقلقي".

لحظتها فهمت المعنى.

فهمت معنى أن يهديك الله عطاياه على شكل أب يَسْندك بـــ وعي، ويترك لك فرصة الاختيار في كل شيء.

تحوّل الحديث [معضلة ارتدائي للحجاب] بين أبي وعمّي، كلمتان من أبي وجهنا نحو عمّي:

"هذه ابنتي، وأنا المسئول عنها، ولا أسمح لأيّ كان التدخّل في اختياراتها الشخصية"

ومنذ تلك المواجهة، لم يفتح هذا الموضوع، ولا أي موضوع آخر يخصّنا نحن "أبناء خالد" في العائلة، وبقيت كل خياراتنا بأيدينا، وبمباركة أبي وأمي ولا أحد غيرهما.

لكن على ما يبدو لم يكن الأمر مجرّد التزام بالـ دين، لأن الأنثى تعد كمصدر ارتباك دائم في مجتمعاتنا!

هنّ الشهوة حتى أقصاها، وهنّ العار حتى الموت، لأننا نحيا في مجتمعات أبويّة/ ذكوريّة غريبة الأطوار وتحتاج للأنثى جداً رغم ذلك، وتمقتها جدّ العمل على إخفائها عن الأعين كذلك. لذا، أرى الرجال [معظمهم] يتصرفون بارتباك شديد وقلق واسع واهتمام بالغ واتهام دائم لــ أي أنثى.

لقد كنت وبقيت الأنثى الوحيدة غير المُحجبة في العائلة، ومازلت المرأة الوحيدة المتمسّكة برأيي الخاص في هذا الشأن، ولا تهمني اختيارات الآخر وما يرتدي، ففي نهاية الأمور التّقيمات لا يمكن أن تخضع إلاّ لمعيار واحد مشترك/ مشتبك ضمن مجموعة متصلة [بالنسبة لي] وهي الأخلاق الطيبة، أو عكسها والسلوك السليم، أو الشائن والنوايا الحسنة من عدمها، ولا يهمني كذلك رضا الآخرين عني ولا يعنيني إعجابهم بقناعاتي من عدمه، لكن يهمني جداً بأن يكفّون بشاعاتهم عني ولا يجعلوني مادتهم على وجبات النميمة والتقييم.

هكذا تعلّمت من أبي.

في الثمانينيات، كانت الكويت حقاً على مشارف اللون الداكن من أجواء جديدة، على العتبات الأولى المغبرة بالمنع والتحريم والخنق وتغييب الفرح، ذلك الذي استوطن أيامنا حتى أقصاه في التسعينيات، لكننا قبلها كنا نتمسّك بآخر المبهجات ونعيد توزيعها علينا بالتساوي وبالسرّ أحيانا.

علاقتي بـ بابا حين أستذكرها، تأخذني نحو اتجاه غامر بالاكتشاف المتعلّق بالمذاقات، فأبي الذي تستهويه ما تقدمه الفنادق من أمسيات رزينة بالموسيقى والغناء لم يحرمنا من خوض تجربتنا الحسّية رغم أننا كنا ما نزال في

أول مراهقتنا، واستمر ذلك حتى لامسنا عشرينياتنا، فالكويت الدولة [آنذاك] تحتفل بالمناسبات المفرحة كلها منذ السبعينيات حتى السنوات الأولى من التسعينيات [قبل أن يغطي سماءنا الجَرَاد الأسود بالتحريم] بسهرات منظمة ورائقة حول المَسابح في الفنادق الشهيرة، حفلات عديدة غنّى بها ملحم بركات و سميحة القُرشي وراغب علامة كنا قد حضرناها، وكذلك أمسيات أعياد الميلاد، وأعياد المسلمين و رأس السنة الميلادية، كل تلك التي كانت تتنافس فيما بينها في "سامْ" و "أبراج الكويت" و "الريجنيسي" و "لؤلؤة المرزوق" و "المطعم الدوّار" وغيرهم، كل تلك المبهجات التي اصطحَبَنا إليها أبي ومنها نمت الذائقة الفنية بالفرح والجمال والسلطنة، نحن لم يهدر وقتنا في "المراهقة" بحضور المسارح التجارية مثلاً [انتشرت العروض الهابطة منذها]، لقد نهانا أبي عنها حين وصفها بكلمة واحدة: "تَهريج"!

فكفَفْنا عن المطالبة بالحضور لتلك الخدعات الملوّنة بلفظ مسرح، كان أبي يقترح علينا أماسٍ موسيقية كلاسيكية بدلاً عنها، حاول ونجح في إبعادنا عن التعلّق بالأجواء الاستهلاكية التي دمّرت الذائقة العامة حتى اليوم!

حينما كبرت، فهمت جيداً سبب منعه لنا.

شكرتُه ومازلت أفعل، وإن بدوتُ أمام الكثيرين كغريبة أطوار.. وصعبة الذائقة!

علاقتي بوالدي مختلفة عما كنت أعرف عن الصديقات وآبائهن، فمنذ فترة مبكرة كان الأب ليس حاضراً في أحاديث الزميلات في المدرسة سوى في موضع واحد، وعبارة تنقسم على أمرين:

"أبوي ما يرضى"! أو "أبوي غَصَّبْ علينا"!

تتبع العبارتين شهقة رُهاب، وتعبير يكاد يتشابه يلبس وجوههن وقتها، عيون زائغة بالترويع المستدعى من ذاكرة قريبة، وفَم مزموم على قهر متراكم غير واضح الأسباب!

بينما في رأسي تضيء صورة والدي في رداء البيت يقرأ كتاباً، أو يشاهد برنامجاً على التلفزيون، ولا أرتعب منه.

كانت لديّ صديقة في المرحلة المتوسطة لديها من الخيالات ما يملأ كتباً وحكايات.

في نهار ما أشارت إليّ من بعيد [في فسحة المدرسة] أنْ تعاليَ لأُريكِ شيئاً هنا/ هناك.

كانت قد دعتني للمشي باتجاه حظيرة المدرسة التي تحوي أرانب بيضاء ودجاجات وديك [في الثمانينيات كانت الحضيرة جزء تربويّ هام في المدارس] وكانت في أعلاها حديدة بارزة [مزراب] لتمرير المطر نحو الأرض.. وبمساعدة مجموعة من متراصّة الطابوق العريض المُهمَل [جعلت منهم سلّما] تسلّقَت مثل جرذ سمين نحو الأعلى حتى استطاعت ملامسة المزراب الحديدي الصدئ، نظرَت نحوي/للأسفل، كنت على الأرض لم أزل وابتسمتْ لي. كان فمها بسنّ أمامية مثلومة بشبه مثلث، وكنتُ أنتظر ما بعد تلك الابتسامة وما بعد ذلك الصعود البهلواني؛ باستغراب تام!

قالت بصوتها الأجش: "سأرمي بنفسي من فوق"! صحتُ بها: لا! ليش!"

لم أكمل صيحتي، انزلق المزراب الصدئ بيدها وأوقعها على الطابوق الساخن بالحرارة.

نزف أنفها وتورّمت عينها اليمنى فوراً. اصطبغت بالأرجواني تلك الحواف حول محجرها.. عند الممرضة في المدرسة سألتها الناظرة:

"لم تشعلقتِ هكذا؟ أنت بنت والبنات لا يقمنَ بهذا الفعل"؟!

لم تُجبْ "صِيتَه". كان هذا اسمها.

خرجَتْ الناظرة وبقينا ننتظر تقرير الممرضة لوحدنا. سألتُها من جديد: لماذا فعلت ذلك؟!

قالت لي: "إذا جاء المحقّق سأخبره بأن أبي من ضربني. وآذى عيني. أريده أن يُسجن".

انسحبتُ من غرفة التمريض بهدوء. وعيوني شاخصة بالدهشة، مَن يمكنه أن يفكر بكراهية أبيه بهذا الشكل؟

حين كبرت/ كبرنا. فهمت بأن العلاقات [أيّاً كانت] لم تكن على مستوى متوازٍ من العطاء والمودّة. لا يمكنها أن تستمر تحت مسمياتها الأصلية.

"صيتة" تكره أبيها.

لأنه كان دوماً يتمنى لو أنها جاءت صبيا، ويُعايرها كل الوقت بجنسها "الأنثوي" الناقص، الجنس عديم الفائدة!

منذها [في المدرسة] صرتُ أتحاشى الذهاب مشياً نحو حظيرة الدواجن، فمنظر "صيته" صار معلّقاً هناك دائماً، وسنّها الأمامي المثلوم يلتمع بوجهي قبل السقوط!

بعد سنوات طويلة، علمت [ليست صدفة] بأن "صيتة" التلميذة التي كان يسعى القمل في جدائل شعرها وتعاقبها المعلّمة لعدم نظافتها، درست التمريض، وهي الوحيدة التي ترعى والدها طبّياً ومعنوياً بعد وفاة شقيقها ووالدتها في حادث سير على الطريق الرابط بين السعودية والكويت، لقد تزوّجت "صيته" وأنجبت ثلاثة من الذكور، وما عادت تعيش في منطقة "الصباحية" لأن زوجها أهداها بيتاً في "الديرة" كمهر لها، يشاركهما البيت والدها العاجز!

أسرارنا القدرية معلّقة / مرتبطة جدا إما فيما نحبه جدا أو ما نكرهه أبدا.

الانتباه لما نُبطِن من مشاعرنا، سيسّهل انسياب حيواتنا أكثر، يجعلها أكثر ليناً ورأفة بنا، ولا يجبرنا على ما يعاكس رغباتنا.

لقد كذبت "صيته" يوم كانت طفلة، كي تقتص من عذابات والدها وأذاه لها، لكن كذبتها البائسة المعفّرة بالدم لم تخدمها، بل ردّت عليها السنوات حقدها عليه وألزمتها به، مقعداً/عاجزاً/ محتاجاً جداً لرعايتها هي تحديداً! كذبت "صيته" يومها وما نسيت أنا كذبتها تلك.

طالما وجّهت هذا السؤال بيني وبين نفسي، لماذا نكذب؟

مذ كنت أتلّمس هذه الدنيا على أطراف حواسي المندهشة بالجديد/ الغريب، كنت أعجب من سلوك التحايل والالتفاف على الحقائق، فَنَ كان يمارسه قبلنا "الكبار" كـ مُداراة لأمر ما، عن شخص ما أو أكثر، يا ترى ما الذي يدفعنا نحو جعل أرواحنا مشدودة بالقلق ومشوّهة بنا ومسحورة بممارسة الكذب وتغييب الحقيقة؟

بقينا بأخلاق طاهرة حتى سقطت أول سن "لبنية" من أفواهنا. يقول رفيقي: "تسقط السن، فيفقد الطفل براءته حتى النهاية". وأنا أتفق مع تجربة!

نحن حين نفعل، فإننا نمارس السحر، تصوروا أننا نغطي قرص الشمس الساطع بقماش ذائب بالانساخ؟ ونظن أننا نجحنا في إخفاء الكثير عن الآخر الذي نقلق بشأنه كل الوقت، كل العمر وبلا سبب مقنع عدا الخوف.

حين نكذب، فنحن نكذب على الله، على أنفسنا إذ نحمل من روح الله. على عقولنا التي [يفترض] تحمينا من كدر المُقبلات/المثقلات بسوء النوايا من أيام تخصّنا وعلينا المضي بها كما ينبغي. إننا حين نصوغ كذباتنا اللامنتهية، فإننا نستخدم عقولنا [أعظم عطايا الله] في الشر، فكيف يمكننا الصمود بنقاء نريده؟

لكننا نخاف، والخوف منشأ كل شر، والشرور تتوالد من كثرة الخوف.

حين كنت في العاشرة من عمري، كنا نلهو في غرفة صغيرة تقع في الطرف من بيت جدي لأبي، "الغرفة الحمراء" كما كنا نطلق عليها، لعبنا يومها طويلاً، أخي الأصغر وابنة عمتي وتوأمها [كانا يصغراني بـ ٤ سنوات]، على الطرف الثاني من مكان اللعب / الغرفة المربّعة كانت تجلس "العاملة" التي ترعاهما وبين يديها مجلة تقرأ فيها.

دخلت عمّتي/والدتهما فجأة، لم تعجبها كمية الفوضى التي خلّفناها من لهونا المستمر منذ ساعات، وساءها أن تجد الشبّاك مفتوحاً يهدر هواء المكيّف البارد للخارج، صاحت بنا جميعاً. ارتبك المشهد، كنا أطفالاً نجنّ باللهو ولا نعبأ بشيء سواه، عاتبت عمّتي ابنتها، ولأن الأخيرة كانت بنوايا خربية وتريد من العاملة الخروج من الغرفة لسبب لا أفهمه، ادّعت عليها من فورها وأمام عمتي

وبفم وسع ـ نكذب أنها قد ضربتها، بل وجرحت يدها، ولم تتأخر في أن تُظهر نعمتي مكان الجرح!

[كان جرحاً قديماً يكاد يختفي، كانت قد أخبرتني الصغيرة بأنه أثر لإصابة سو رهد تنعبي منذ أسبوع اللعب الماضي]، كانت عمّتي صعبة المزاج وعصبية ـسوت. وكنتُ قد امتلأتُ بالغضب فجأة لادّعائها على العاملة المسكينة. حدّرت عمّتي وسألتني من فورها وهي تحدّق في عيني:

"هل آذتها فعلاً"؟

هززتُ رأسي بـــ لا واضحة/واثقة، قلت مُضيفة: "نحن نلهو في الغرفة منذ ساعات والمسكينة لم تتحرّك من مكانها ولم تنطق بكلمة"!

صفعة عظيمة رنّت على خدّ ابنتها. وللحقيقة لم تؤذني تلك الصفعة التي نالتها. كنت فرحة بقول الحق.

الغريب بأنني كنتُ دوماً في السنوات اللاحقة، الشخص الذي يستجوب ويُسأل عن الحقيقة كشاهد موثوق! لقد كنت أُسأل أحياناً حتى من دون سابق معرفة.

[١٩٩٥] كنا في الجامعة، وادّعى بعض زملاء الشعبة الدراسية في قسم الإعلام [في الفصل الأول كنا نشترك بجدول موحّد] بأن امتحاناً لمادة صعبة سيكون فوراً بعد المحاضرة الحالية [اللغة الإنكليزية]، فكان الطلب ودياً موجّهاً من الزملاء للمعلّمة الأمريكية كي تسمح للجميع بالمغادرة قبل موعد انتهاء المحاضرات بعشر دقائق.

لم تهضم "مِسْ ماريان" رجاءهم لسبب ما، نظرتُ نحوي وسألتني فجأة: "هل هذا صحيح"؟

أجبتها: "كوني على ثقة بأنها الحقيقة".

ابتسمت لي، ورفعت ملفّها وأشارت للجميع بالانطلاق للمكتبة للبدء بالمراجعة متمنية لنا التوفيق!

كم أبهجني أن أكون مصدر ثقة للغرباء وغيرهم.

وصار أن استمرت هذه الحالة [الغريبة] العالية من الثقة، ثقة الآخرين التي تشذّني من ياقتي، بحيث صرت قِبلَةً للشاكية قلوبهم، والمتأزّمة أرواحهم من غياب حلول الدنيا عن مشاكلهم، أحياناً تكون كلماتنا لبعضنا مثل ضماد يغطي الجروح.

في الواقع، الثقة تشبه معطفاً ثقيلاً، يضاعف ثقلك، يزيد من تريّثك الذي تمارسه، لكنه يمنحك الآمان أيضاً، يهديك ما يشبه الاقتراب من اليقين، كثير من النضج الـ يجعلك ترفض مجرّد التورّط بجدال أحمق، أو فكرة رعناء، أو الاهتمام بالزائفين، أو الخيبة بصداقة باردة، لكنك معها [الثقة] تسند ظهرك بارتياح وتزاول إنسانيتك ولا تهاب من قول الحقيقة وأنت تنظر جيداً/ عميقاً في عيون الآخرين/ السائلين.

الثقة الـ تمنحك إياها رعاية الله ومحبته ليست وليدة صدفة [لا مكان للصدف] والثقة هي ملامسة المقدّس في الروح، فحين يلوذ بك الآخر المتعب، وقد ارتبك عقله من البحث عن حل ضائع/ ضالع في التّيه، إنما قد سمح لك بتلمّس خطوط الحياة في كفّه وقرّبك من أعمق درجات روحه قَداسَة.

فلا مجال للخذلان أبداً، ولا للكشف لثالثٍ، غريب.

دائرة القربى، ليست دائماً بائسة، أحيانا كثيرة توفر لنا فرصة لممارسة المحبة وعِبَرِها، و "الثقة" شاهد هنا كمفردة تطوي تحتها الكثير من الأسرار الـ يدلقها أحبابي، بل وأحيانا [أعدائي] رغماً عنهم، عن أَنَفَةٍ وعزّة يعتمرونها ادعاءً، ومن أسرتي الصغيرة [لا أستثني أحداً]، ثم بعضاً من عائلتي الأكبر، ثم الأصدقاء، فالرفقاء، ثم دائرة الوَدودَة أرواحهم، ثم تنتهي ولا تنتهي "الثقة"، واحتفظ جيداً بما بين عقلي وقلبي، وأتذكر جيداً النصيحة/الحل، وأسمح للمعضلات بالتسرّب نحو النسيان.

كي أقبض على معطف "الثقة" ولا أتركه يحول ولا تضيع المَلَكَة.

إنني [ولعلّي أكون كذلك فعلاً] أنتبه للرحمة حين تهبط، وحسنُ تدبير العقل حين يومض، وأستعيذُ بالمحبة التي تهديها إلينا [جميعنا] التجارب؛ خيرها وشرّها.

39

في القرية الريفية كنتُ أعيش، في مدينة بعيدة عن العاصمة، أنيقة ومُقتطعة من "إنكلترا" قُدِّر لي أن أنشأ. ولدتُ هذه المرة [١٩٧٧] في "الأحمدي"، مدينة النفط المكتفية بذاتها، المكان الذي علّمني أول مراحل التلقي، ومكنني من الاستزادة بالتجارب، ففي سبعينيات القرن الماضي، كانت "الأحمدي" هي النموذج المصغّر لمدينة يتقاطع أهلها مع الغرباء الذين كانوا عَصَبةً رافداً أصيلاً في تكوينها كأجمل ما كانت عليه [وحتى الآن نسبياً]، فتخطيط الشوارع الـ تأخذك نحو المعمار البريطاني المميز، السكون والرأفة، كانت هي المدينة الـ تخدمك في كل شيء كي لا تؤذيك المسافات البعيدة، الـ تربطك بالمنتصف/ بالقلب/ بالعاصمة.

الأحمدي [آنذاك] كانت المدينة المكافأة التي قُدّمت لأبناء الكويت من المشتغلة/ المشتعلة أكفّهم/عقولهم باستخراج "الأسود الثمين" وتحويله لخيرات تعمّر الوطن وتُعليه.

"أنا من الأحمدي"!

هكذا أُجيب من يسأل عن انتمائي وجذوري ونشأتي، لقد فتحتُ عينيّ على مدينة مختلفة، كل شيء فيها ملوّن، عامرة بالهدوء والرحمة، انتقل سكونها لروحي مبكراً، البيت الصغير الذي يعتمر قبعة كبيرة من قرميد أحمر، البيت الذي يتشابه ويتكرّر في المحيط وتتوالد مثله خطوطاً هي الأحياء التي نتشارك العيش بها، تلك الممرات المشتبكة بسلسة أشجار "الصَفصاف" الكثّة العالية الـ تهَسْهس للريح كأنها أجراس بعيدة.

كانت تلك البيوت كافية لكل تلك الأسر الناشئة للتو، أرباب الأسر تلك نزعوا قشرتهم البدائية، وتعلّموا خارج الكويت مبكراً، كما أن خليط الثقافات السكاني الـ يتشارك في الحياة والعمل كان قد كوّن رغماً عن الجميع ثقافتنا الباكرة وكرّس بأن "الآخر" ليس عدوّك وليس مختلفاً، بل وأنت لست مميزاً أبداً لأنك "كويتي".

تلك المدينة الـ تأثرت بالمحيط العروبي/ الأجنبي، ولهجات لبنان وفلسطين ومصر والعراق وباكستان والهند وغيرها، لم تكن إلاّ نوافذ جديدة، فرصاً إلهية للتعلّم المستمر والصداقات التي عَقدَت في الوعي مكانها.

لقد جمعتنا المدينة الرقيقة الملامح، المزينة بالورود كالأعلام، المتحضّرة بمقدار خطوتين ونصف عن الكويت العاصمة [آنذاك] في سنواتي الطريّة الـ صارت على بُعد ٤٠ عاما من التذكّر.

كان في "الأحمدي" نادٍ يجتمع فيه المقيمين على أرضها، هو "نادي الحَبَارى" الـ يفتتح مُبهجاته لأمسيات يومية باللقاءات والموسيقى والاسترخاء،

رحلاتنا لـ Beach House، المنزل البحري الـ يرتاح على أطراف جنوبها يطل على الشاطئ العامر بالحرية. مَن مِن نساء الأحمدي يمكنها نسيان اللبناني "نهاد" وصالونه النسائي الأشهر في المنطقة؟ لقد خضتُ تجربتي الأولى في تصفيف الشعر عنده يوم تزوّج عمّي أوائل الثمانينيات، أصابعه الذهبية وذائقته العالية، تشهد بذلك كل النساء اللواتي يخرجن من تحت مقصه/سشواره، مليئة جيوبهن بالحكايات المتبادلة على فناجين القهوة، ثم حُرمنَ من كل ذلك [مُنعَ الرجال بعد سنوات من ممارسة مهنة الكوافير النسائي بقرار حكومي].

ذكرياتي مع "الأحمدي" كثيرة.

فالأماكن ليست تلك التي نسكنها فقط، بل ممارسة الحياة فيها هو ما يَسكننا حقا.

السوق الصغير هناك، ذلك الممتد بنصف استدارة وبواجهات إسمنتية مُزرَقّة لونها مُهادن، محل "خسينوه" للألعاب، والمرور الأسبوعي للاطمئنان على "صندوق البريد" والعودة بحزْمة مراسلات، ومشوارنا الأهم "للمكتبة"، وابتسامة السيدة الهندية التي اعتادت طلب المجلات والكتب الأجنبية من مصادرها لـ أبي، كم كانت تلك السيدة ودودة بشكل لا يُنسى، للمكتبة عبق مختلط، مزيج النشادر بالفُلّ الأبيض الطازج الـ تُضفّر به السيدة الهندية شعرها الليلي. تقع المكتبة آخر السوق، متطرّفة لما قبل المسجد الصغير المرصعة مئذنته بالفسيفساء والمعيّنات الزرقاء، إنني أتذكر كل ذلك وكأنني أحتضن على الصور المتوالدة في شريط صار بعيدا.

لقد وُلدتُ في هذه الحياة في "مستشفى الأحمدي" [مستشفى شركة نفط الكويت] المكان الذي احتوى أمراض الطفولة والصِّبا، قبل أن يجبرني القانون على تركه لأنني بلغت السن المقرّر/ الحد المسموح.

لقد عاشت مدينة قلبي/الأحمدي فترات انتعاش رائقة منذ بداياتها الأولى، حتى منتصف الثمانينيات، بعدها خَبَا كل شيء جميل وملوّن فيها، غادرها أغلب سكانها من المهندسين الكويتيين وانتقلوا للعاصمة، بينما غادرها المقيمون نحو بلدانهم مع احتلال التسعين لاحقاً، تغيّرت نكهة الفرح في المدينة البارعة في رسم الاحتفالات والكرنفالات، المدينة الصغيرة الـ كانت متنفساً في عطلات نهايات الأسبوع لسكان العاصمة، هي مدينة تفتّح الوعي الأول بالنسبة لي.

كانت هي "بيتنا"، قبل أن أتنقّل لبيوت ثانية في مناطق أخرى، احتضنت متفرّقات السنوات خلال عشرياتي الثلاث وصولاً حتى الآن، [أسكن البيت رقم ٥ حالياً]، والكويت، يتبدّل جلدها كل لحظة، يتبدّل شكلها و تختلف شوارعها بقرارات أصحاب الحُظوة والمادة!

كنتُ دائماً ما أرى الكويت بعيون تعرّفتُ عليها من نقطة تخصصها^ تشبهها، هي "الأحمدي"، المدينة الجامعة لكل الحياة، لكنني كنت كلما خرجتُ بعيداً عن تلك الدائرة كلما وَجَدتُها مكاناً لم يعد آمناً للعناق!

"إنّ البلاد، بلادنا صارت تضيق على الحب"!هكذا همستُ منزعجة لرفيق قلبي في أيام رَفْرَفة القلبين الأولى، رأيت بأن أحداً لن يتركنا لنمارس المحبة كما ينبغي لها، ولا في أي مكان حتى.

[٢٠٠٧- ٢٠٠٩] كيف كنا هو وأنا نرى الكويت؟

إنها بلادٌ تُقاسمنا الضياع، والسؤال والدهشة مما نستحيل إليه، النهارات فيها بلا خطط أكيدة تفضي للرحمة، إنها تعطينا [رغماً عنها] من حقائقها مزدوجاً في كل مرة، وجهين للمعرفة مع قبول بقلب متّسع للتعدُد، ولا ندري عن أي الوجوه نحتمي ولأيّها نُقبِلْ؟

أترانا فعلاً أبناء هذه الأرض المُتخَمة بالرحمات والتحيات والسلام؟

أم أننا واقعاً ننتمي لانعكاس بعيد بالغبش من خلفنا يلوح إرثاً لا يلمسه إلاّ المستبصر بالرؤى؟

هذه الكويت كحضن أمّ دافئة كل الوقت بالشفقة المضاعفة/ المضاعة نحو غيرنا، بارعة في الرعاية المهدرة بضيق حيلتها، لقد اعتدت/اعتدنا قبولها، هكذا.

[٢٠١٠ حتى الآن]

لكن الكويت لم تعد كما كانت.

نظرة عميقة / فاحصة/ فاضحة، لهذه البلاد وشوارعها المستحدثة/ المستنسخة عن غيرها، يُظهِر ضخامة مزيج الحديد بالزجاج القاسي الـ ينبت فجأة من روح الاستهلاك وجشع المَوْصُولة عقولهم بالغنى المتسارع، كلها وأكثر، تخبرنا بأن عمليات منظمة من "قلعٍ وردْمٍ وتَشْييد" تمارس ضدّ ذاكرتنا الطريّة بالحنين وبلا "وجع قلب"، وبلا بُعد نظرٍ يُحكمُ القبض على "المحو" الممنهج لكلّ مرئيّ/تاريخيّ بدء بالطين وعلا لَبِنة لَبِنة، ثم استوى حداثياً إلاّ قليلا..

لقد تعاظم شعوري/ شعورنا بالغربة.

لسنا نتعرّف بهذه المساحات الممتدة لمكاني/ مكاننا والمشاهدات المحيطة ما عادت تدفّئنا ولا تفتق الأرواح عن آهةٍ حيّة بالعلامات/ الدلالات الــ تقيّدنا إليها بـ حبل لا يُرى لكنه يُحس، فمع كل مِغول هَدْم، يحفر ويجتث في أرضنا، إنما يقتلع الذكرى منها/ من دفاترنا العتيقة، كيف لكائن أن يصب الأسمنت ليطمر/ يغيّب طرق الفرح في أذهاننا؟

هل انتبهتم يوماً إلى أن العمارات القديمة [طراز الستينيات والسبعينيات] الضخمة؛ المبرومة بالمرمر الصقيل، والمسقوفة ممراتها كما ينبغي لبلدٍ تحرقها

الشمس كل السنة أن تُصمّم، قد اقتلعت تماماً واستبدلت بناطحات سحاب ليس في سمائنا؟ عَصَبها الزجاج الساطع، ملتفّة بهندسةٍ مواربة تشبه الزمن الذي يخونها باحتراف؟

هل تصوّرتم بأن "سينما السيارات" التي احتضنت أمسياتنا العابقة بأبخرة الشاي من "ترمس" ملوّن بالورود الحمراء، ليال ضاجّة بسماعات جانبية وفتحة لتلطيف القيظ، و"شطائر" أمهاتنا المصنوعة برأفة، المشاهد التي حفظنا منها أسماء نجوم الشاشة، كل تلك الصور التي حين استذكارها ترسم حتماً ابتسامة حنين على شفاهكم، قد أطفأت شاشتها للأبد بقرارٍ لا واعٍ؟

كثرٌ مَن اجتمعوا لإيذاء ذاكرة الطفولة خاصتنا.

بالبخور والنّفاق وورق كثير جداً، صَدّقوا بأختامهم وعبثوا بأمكنة الكويت وأسماء شوارعها، بروائح الأزقة الـ تبدّلت، والأسواق التي لمعت، غابت الأرصفة التي تعرفنا، مات الحضور الواعي بالمثير والأصيل، وصرنا نشتاقه، فنعود لكُتب مصوّرة، والمؤلم بأن حفل الشطب الذي لا ينتهي يُبارك بأعذار تطعن الأرواح بمسمّيات "التحديث"، وهذا الشيء قتل أماكننا الحبيبة، مشاريع "الدُّغس على الذاكرة" مستمرة، "سوق السالمية" و "مكتبة العائلة"، الممرات المتوزّعة/المتوازية على الجانبين، "صيدلية صحارى" التي بها ثقبت أذني مراهقة وأتذكر تلك التجربة التي بقي أبي وخوفه يؤجّلانها، وددتُ أخبره بأن الإحساس بالألم يكبر معنا يا أبي ولا يتلاشى!

انتهت أسطورة "المخازن الكبرى"، والجودة الإنكليزية التي تباهَيْنا بها طويلا!

ضاع "دوّار الجامعة"/ البوابة الرئيسة لـ كلية "الشويخ"، بعدما شُقّت أضخم جسور السيارات التي وردت على سنواتي، بدّلت خارطة المكان واللهفات البعيدة، قلبت حتى تربة [حديقتنا السرية] في "العديلية". لقد اجتثت منها الأشجار الوارفة، أشجاري ذوات الجذوع العريضة [شقيقات روحي] تلك التي حَمَتْنا طويلاً من عيون العابرين.

قضى الاستهلاك على البساطة والرضا.

تصوّروا أن يتبدّل تماماً المطعم القابل بوصفه الأوليّ في "جمعية الشامية" [وكْر كتابة بياناتنا الساخطة وتنسيق تظاهراتنا المعارضة ٢٠٠٧-٢٠٠٩] لتضيع طاولتنا المخصّصة الـ تحجزها لنا قلوب العاملين من الفقراء للمودّة!

لقد ضيّعوا الخرائط الحيّة من رؤوسنا، استبدلت بخرائط استدلال الكترونية مربوطة بكل عمليات القلع والردم والإنشاء المقيتة.. إنني أحاول رغم ذلك أن أستعيد الكويت التي كانت، أستعيدها كفعل استعادة لذواتنا الـ شتّتها البلدوزرات الشَّرِهة للمال. إنني أستذكر البنيان الرحيم الذي فتح وعْينا عليه، ذلك الذي لا يتجاوز الطابقين لتتسع عيوننا على الرؤية الأفقية للطبيعة المتاحة الـ تقلّصت كثيراً يوم زحف الزجاج المدّعم بإسمنت جائر وكثير من الضيق نحو الأعلى.. الأعلى.. والأعلى فقط.

نحن شعوب [ومنها تخرج الحكومات] لا نعي المعاني الكامنة وراء الاحتفاظ بنماذج من إرثنا المشترك، إرث معنوي/روحاني ومادي، بل أننا [ويا للأسى] نُحسن التفريط بالذاكرة الجَمْعية في سبيل الهشاشة والتقليد، كل تلك العوارض هي رسائل مرض لا بد من تشخيصه وتحديده واستئصالِ "غدّته" البغيضة! فهذا ليس شأناً خاصاً ولا يتعلّق برغبة واحدة، هو تاريخنا الذي

تشاركنا على هذه الأرض منذ التعرّف الأول بيننا، هواؤنا المختلط بالعلاقات الودودة والفكاهة المحبّبة وخفّة الظل المقبولة كل الوقت والمؤازرة الحاضرة/ الحاضنة وحسن الظن وسوئه والدهشات التي تكبر بالفهم أو عدمه، والمباركات حين تنتثر بين الناس، وحين يرحمنا رغماً عن بشاعتنا، ربّ الناس.

إننا شعب مختلف، ليس لأننا نعيش على "رأس الخليج" مكاناً، وفي بقعة مثلّثة الشكل تتكئ على أول لسانها المائي المخضر بالطحالب والمختلف على تسميته، وليس لأننا [مجبورين] بالجِيرَة الثُلاثية لكل أولئك الهادرين بالعنف المتعدّد المنابع، وليس لأننا قلّة متنوّعة التكوين والتكوّن نقبل بعضنا ونمتزج جداً وسعدنا ذلك، وليس لأننا بلد "خير وفير" يهدي صُرَر العطايا كيفما اتفق، ولكن لأننا في الواقع في مرمى الأطماع دائماً، ولأننا مرصودين لخرائط تقترح كل الوقت "الإزاحة والضَم" والتهديد يتربص بنا على مرّ الحروب وسوء النوايا.

ولأن الإبقاء ولو على نماذج من تاريخنا المنظور مستمرة / قائمة، هو شكل من المقاومة لأي رغبة خارجية نزّاعة للسوء.

في العشريات الأخيرة لي، صرتُ أرى الكويت؛ مدينة تمدّدت رغماً عنها، تشبه سيدة بكرّش تمدّد لأنها أنجبت عشرة أطفال، تمدّدت معها كل الملهيات التي تفتن وقتياً كل ذوق، إنها البلدة الصغيرة التي فاضت بكل ما يخطر برغبات الساكن/ السائح والعابر، ممن يفضّل قضاء أيام الشتاء فيها، فنحن أرض لا تصلح للحب إلاّ بموسم البرد، فصَيْفُنا جحيم يخصّنا وحدنا، يناسب "كويتيتنا" ونحن من يعاشره ويجيد التعاطي مع "لَواهِيه"!

صرت قادرة على استيعاب نظرات وهمية لمن كانوا بعمرنا الآن [٤٠]، بينما يستذكرون أماكن غابت عن التخيّل. لذا، حين يلبسنا الحزن، رفيقي وأنا، نمارس التّيه مشياً متعمداً في أزقّة "المباركية"[١] نستعيد أشباحاً حنونة لما أزهقته الصفقات ونغذّي مخزون الحكايات التي لم تروَ بعد.

كثيرة هي أجزاء روحي التي تناثرت، وكثيرون هم رفقاء حنيني الذين يندبون فقدهم لأماكن أصيلة، فهل من لقاح ضدّ الفقد، ضدّ الاكتئاب، ضدّ الذاكرة حين تعصف بنا.. وتضيق؟

(١) هو سوق كويتي يقع في منطقة القبلة وهو سوق تراثي وسمي نسبة إلى الشيخ مبارك الصباح، ويتميز السوق بتصميمه الذي احتفظ بملامحه القديمة. وهو من المعالم التراثيه لدوله الكويت.

40

بينما كنتُ أدوّن باسترسال هذا السّرد، هل كنتُ على قلق من نسيان المخزون الحكائيّ المكدّس في الذاكرة؟

هل كان عليّ أن أتوتّر لو انقطع الخيط الملوّن بالأحداث الذي شمّع مراكز التلقي كي لا تعبث بها ذكريات/انطباعات/آراء الغرباء الممكن ألتقيهم؟

واقعاً، لم يقلقني ذلك ولو للحظة.

لأني كنت حين أنتهي من جزء ثقيل بالتدوين والكتابة والتفريغ، أبقى في حالة شبه مدروسة من التحديق في السقف، أي سقف أكون تحته، السقف نعمة ومهرب، السقف لوحة بياض قابلة لاحتضانٍ رهيب للفكرة وتفجّرها وكتابتها.. فأن تكتب، يعني أن تكتئب، أن تمشي حافي القدمين في طريق زلق، يرميك نحو المغامرة المجهولة، حتى أنني كلما انتهيت من عمل سرديّ جديد، تصاعد منسوب القلق من رأسي كدخان لا يرى، أتعامى عن التّيه الذي مارسته والحَكي الذي أفرغته وغيّبني لفترات بين تحديث في السقوف، البيت والمقاهي والمستشفيات وغيرها مما لا أتذكر الآن! لقد تورّم الإصبع الأوسط في التدوين الذي لا يوقفه إلاّ أوجاع رقبتي وخَدَر ذراعي اليمنى من بثّ الاعترافات والأحزان وأنصاف الابتسامات وضحكات مبتورة بالتندّر، ونكات عالقة على جيوب "السُّوالف" وحلول لتفصيلات غابت عنها الحقائق وقهر

مترامي المساحات، وشحن كثير لمساع تسير باتجاه الفرج، أغلق العبارات المنتهية بنقطة، وانتظر طويلاً قبل رصّ كلمة "انتهى في تاريخ كذا"، والخوف، أبخرة تتصاعد من وجناتي هذه المرة!

قلمي هذا حقيقي، بحبر أزرق ينزّ منه الأزرق دائماً، وهو حين البدء بالكتابة يفقد صلته الأصلية ليمسَخ لما يشبه الخنجر الصغير، مدبّب جداً، نصله حامي، يخوض في الجراح القديمة كلها، ينكأ ما يمرّ به ولا يتجاوز، يحطّ على الصفحات البيضاء، فيُدميها بالأزرق.

حبري في الكتابة غامق جداً / حانق أبداً.

وحضوره يظل لما بعد الورق.

أتلهى بتأمل العنوان الجديد، الاسم المتمدّد على الصفحة الأولى، أنادي عليه بصوت مسموع، أختبر ودادي تجاهه، أردّده بيني وبين خوفي منه وعليه، حتى يشملني شعور أحادي التوجّه وكأنني أنام على متن موجَة واحدة لا تتأثر بالمحيط الهادر، وأضم خصلات السكينة الـ كانت منتثرة، وأغمض عيني عن الدنيا.

سألتُ معلّمتي "آنيتا" في مرّة بعيدة: "كيف هو التسرّب للموت"؟

أجابتني: "كمن يغمض عينيه عن بشاعات العالم ويحتضن السكينة لتغمرهُ حتى أذنيه"

مع ذلك، فإن الموت/ المغادرة تعدّ وصفة الحزن الجاهزة منذ بدء الخليقة التي تئن وتتمخّض كل الوقت.. وللأبد. الموت تجربة "تعاش" في الواقع على مستويات هرميّة من الأوجاع، كنتُ صغيرة وبعيون مفتوحة/ مفتونة بالـ يأتي بغتة حتى ولو كان موتا!

لقد كانت وفاة/ مغادرة جدي "عبد القادر" أُولى اختبارات الفقْد في حياتي هذه، فرصات القلوب اللاحقة كانت تتطابق في الصدمة، غير أن كل منها علّمتني/ علّمَتْ بداخلي، جعلتني أختبر شعوراً جديداً/جديراً بغمس اللحظات حتى أقصاها بأحاسيس متوالدة من بعضها، حزمة من حنقٍ وغضبٍ واختناقٍ وعجزٍ تام!

لقد تشاركت وجدّي "عبد القادر" حياة قصيرة مذ بدأت ملامح الوعي تتبلور كطفلة قبل أن يغادرنا [١٩٨٧]، أكملتُ حينها تسع سنوات، وعلاقتي به ليستْ أكثر من شذرات عائمة هي كل رصيد ذاكرتي، لكن الصور الأبرز كانت صفة الهدوء الــ كان يسكن عينيه الــ "عسليّتين"، الــ تحملان في الوقت ذاته نظرة جادة يستدعيها دلالة على عدم رضاه في وقت ما، كانت النظرة كافية/ صارمة وحاضرة جداً.

كنتُ أنا الطفلة التي تمارس براءتها أمام التلفزيون نهاراً، حين رأيت أمي تشهق وتسحّ دموعاً لأنه فارق الحياة بعد مرض كان مؤشراً صريحاً لاقتراب النهاية، لقد تعلّمت منذ تلك التجربة بأن امتلاء الرئتين بالماء يعني العدّ العكسي للحظة يجف بها كل شيء، إلاّ الدمع.

بكَتْهُ أمي كثيراً، بكَتْهُ طويلا.

كان يحبّها جداً، وهي "الكنّة" الوحيدة التي يمتعه التحدّث إليها عبر الهاتف بنهارات أبويّة المزاج، أتذكّر بأن وجه أبي غمره حزن عميق، بعدها وفي بيت الجد العتيق وفي غرفة ضيّقة في عُمق الممر، أُغلقتْ علينا أجواء السّواد والعويل، أرادوا إبقاءنا خارج منظومة الفَقْد، يحسبون أننا لا نفهم معنى أن يموت إنسان نعرفه.

كنا في تلك الغرفة المعزولة نلهو بلعب تمثيليّ لأيام ثلاث، قلّدنا الكثير من مشاهد الموت الذي يأتي عادة بعد المرض [كما ظنناه دائماً] وأدّينا طُقوس البكاء والعويل بصوت خفيض، مُستمتعات بارتداء العبايات السوداء التي تَرَكَتْ بقربنا. لقد كنتُ كبيرة كفاية لأعِي معنى أن يموت الكبير، وأن يَموت المريض وبأن كل شيء سينتهي بعد انقضاء الأيام الثلاث من الدمع والآهات وتمسيد الرّكب جزعا بالفَقْد، لأن مواضيع [أكثر أهمية] ستفتح بعدها، المواضيع الوحيدة القادرة على تجفيف الدمع، الأنصبة والجنون المنتظر أبداً، والذي [ويا للبشاعة] لا يرافقه حزن ولو طفيف، بل كثير من التركيز المدمّر في العيون والقلق العالي وأطنان من التذمّر.

ألم أخبركم بأنني كنتُ [وهي إحدى لعناتي] أستخدم حواسي كلها ويزيد لفهم شيء/ أشياء من هذا الكون وسكّانه الموبوءة عقولهم بالأخذ الدائم؟

الموت لم يتوقف.

منجل الاستدعاءات بدأ يحشّ أيام الفرح من أجندتي، دورات من الفَقْد والجزع تتوالى، تقطف ولا تشبع أسماءَ من تشاركت معهم الأيام والتجارب والدنيا، وكم [كانت] تجفلني فكرة الذهاب بلا عودة ممكنة، لكني تعلّمت لاحقاً بأن "الموت" الذي يخيفنا جميعاً، الموت الذي نظنّ بأننا نعرفه ليس بهذا السوء الذي تعتقدونه.

لقد وجدتُ بعد حوارات مطوّلة مع رفقاء [خيمة الشك الدائمة] يتبادلون الأفكار حول ماهية الأشياء والمعاني وتكوّنها، بأن الموت، ليس سيئ الرائحة كما نظن جميعنا، أقول وجدتُ [ولعلها ليست الحقيقة المطلقة، فالحقيقة سراب محض، وهذا ينطبق على كل الإيمانيات التي تتقاتلون من أجل إثباتها

وتثبيتها تحت مسمّيات عقائدية]، وجدت بأن الموت ليس موجعاً ولا مخيفاً، وهو لا يجعلنا وحيدين في عالم موحش، بل أنه استدعاء يجيء في وقت محدّد يوم ننتهي من تكليفاتنا الأرضية، أو حين نحيد جداً عن مسارات مطلوب منا الانتهاء منها.

الموت، وداع على أملِ عودة ثانية لا بدّ منها، تحدّد لفترة لها ظروفها الخاصة.

[أُدرك تماماً أن تفسيرات كهذه لا تناسبكم إطلاقاً، ولعلّها تلوي أعناقكم وتجعلكم تزفرون ضيقاً، لكنه "مَحْكي ذاتي" قد يعيدنا جميعاً لمكمن شحن/ شحذ الأذهان بالسؤال الذي غاب طويلا] لعلّ أشد ما يحزنني في ما وراء الموت كـ مصاب، هو الفقد، وهو بلا شك ما يؤذي أرواحنا حين تحاصرنا الذكريات، لقد اختبرت هذا الشجن حين غادرت زميلة رافقتني زمنا في دراستي الجامعية، هو الاعتياد على وجود كيان ضمن تفصيلات يومك يشاركك كل شيء لحظي، حزنت عميقا، كنت ما أزال طرية/ بدائية بالتجربة، كان الرباعي المشترك [الحزن والشجن والفقد والغصة] بحضور عنيف في كل مرة، وقد كرّت مسبحة الفقد والمفقودين، ولامست الأوجاع خطوط طول حزني وخطوط عرض جزعي من كل ذلك التهديف العشوائي المباغت، أغرق في كبسولة الاكتئاب لأسابيع، لكن كل ذلك تقلّص بفعل الوعي بمعنى "الموت"، ليأخذ مدة رحيمة بالروح.

نحن في الواقع أنانيون، نمارس سخطنا على أنفسنا بشكل معاكس، فالموت/ المغادرة، يحرمنا من إعادة الوصل والتواصل به، هذا كل شيء.

فقدتُ أجدادي [الرجال] صغيرة.

لم أستمتع بوجودهما حولي في أهمّ سنواتي الطريّة بالتعلّم والاكتشاف والاكتساب، لم أتحجّج بالشوق إليهما لأهرب من مراجعة دروسي مثلاً. لم يكونا حولي لمباركة جهدي يوم حصولي على شهادتي الجامعية في الإعلام [ولم يحضر أي فرد من أسرتي كذلك]، لم يقرأ أحدهما أسمي مكتوباً ضمن قوائم المعيّنين الجدد في الجهات الحكومية حين حزت استقلالي المادي، لم نمضِ فترات العصر والشاي ورنين "الاستكانات" وهسيس "السّوالف" والمغامرات التي توزّعت بينهما على أكثر من بلد.

أجدادي ليسو من نجد.

دعوا "نجد" وما حولها للمجروحين في أعماق امتداداتهم، يتشدّقون بها، لكل أولئك المُنْحَنِية ظهورهم ثقلاً بألقاب لا تشكّل قيمة حقيقية لحاملها، لسنا من نجد، كما لسنا من العراق، نحن امتداد بعيد من "ماردين" التركية، جنوب شرق الأناضول، هكذا أخبرنا جدّي "عبد القادر" وهكذا تُقدّمنا ملامحنا، وللأسماء دلالاتها، وحين نحمل/ نرث اسماً معيّناً فهو علامتك التي لا تحتمل التحريف، وإلاّ أضحى الناس أكاذيبَ تتوالد، تتبعها الضحكات المكتومة.

كيف يمكن للعاقل أن يفخر بكونه نتاجاً "بيولوجياً" لأي اثنين ارتبطا بارتجافة ماء مثمرة؟ تصوّروا بأننا لسنا سوى نتاج لرغبات مشتركة بين الإله وبين المخلوق؟ نحن استجابات لمشيئة ربّانية محضة، فلا تعطوا ما يحفظ "ألقابكم" أكثر مما يستحقه.

يقول آلاف منكم:

"إنني أنجب طفلاً/ ولداً ليخلّد اسمي"

هذا تعبير يخرق طبلة المنطق في أذني ويربك وعيي، إنها البدائية في أبشع صورها والتي أقبلها من المفطورين على الوجه الأولي من التخلّق، وهم الأكثر، لكن أن يردّدها من لامس الشك ولو على أطرافه، فهذا المضحك حقا.

أنك حين تبتسم لمنطوقهم/ منطقهم ولا تعلّق [فالأمر يخضع لقناعات شخصية]، يستعير كل منهم عبارته الأثيرة من كتابه المقدس، يظنها ستعدّل مسارات تفكيري [المعوَجّة بالثقافة].

إنّ الناس [تعساء] ينجبون المزيد من الخيبات لهذه الأرض، ما لم ينتبهوا، والانتباه فاتورته عالية جداً، بل باهظة الثمن، لا تُمكّنهم من ممارسة آثامهم المشروعة.

أعرف الكثيرات، الكثيرات جداً، يتلهّينَ بالإنجاب المتكرّر، لأنهن بلا حياة حقيقية، يهربن من أوجاعهن الروحية بالتورّط [من دون وعي] بالمزيد من المؤذيات، لكنها نوع أكثر ألفة بالنسبة لهن، لا يعلمن بأنهن ينشئن أطفالاً مجروحين بأحزانهن الشخصية، يقذفن بالمزيد من الممسوخة أعماقهم بالآه، المثقلة رؤوسهم بالعُقَد.

41

مُذْ تَزَوَّجنا؛ رفيقي وأنا.. والسؤالُ يُطارد الدقائق مثل شَبحٍ هزيلِ الحُضور لا يُفصح تماماً عمّا يريد، لا يقولها بحقيقة صادحة بالمعنى فـ أتمكّن من إعطاء إجابتي الـ صادمة بما ورائها. حين قرّرنا الزواج، وتمت "شَرْعَنة" العلاقة التي ابتدأت واقعاً حين وجد قلبينا بعضيهما، وبشاهدين اثنين كُتِبتْ تلك الورقة/العقد، لكن قرارنا الحُرّ كان قد سبقها زمناً، ولأننا حين اتخذنا عقدنا الثنائي المكلّل بالرأفة والمودّة كنا أحراراً في ذلك الاختيار الذي كان يرمي نحو العيش سوياً والتشارك في المزيد من العمل الموجّه للبشر/ للدنيا/ للكون. نحاول في شكل ثنائيّ زَحزَحة "ثقْل الحقائب" المرسلة بهيئتنا، ننفض سوياً التعب عن وجه الكون، والعبور بعيداً عن أطنان بائدة من وصايا المجتمع [الذي ما يزال يظن أنه قادر على إملائها علينا]، فلا يسأل أحدكم هذا السؤال بينما يجاهد حفظ كرامتـــه بيرم عينيه شَفَقَـــة [مفتعلة جداً] علينا، ولا يرفع أحدكم يديه دعاءً نحو "أربابكم" لأجلنا، لأنكم تبدون مضحكين باقتناعكم بأنكم من أصحاب الحظوة وبرجاء مستجاب.

ليتك [أيا كُنت] أن تنتبه جيداً جداً لشَعْري الأسود الـ خالطه الشَّيب مبكراً، أنني قد اختبرت الحياة طويلاً ليس عبر سنواتي فقط، وإنما بالتجارب التي تركت لي مجالاً أكثر اتساعاً بالرؤية، فلا يتطوّع أحدكم بتقديم نصائحه المجانية والتي تعرّيكم باللاحجّة دائما.

لقد أنجب العالم [وما يزال] فائضاً من البشرية في كل لحظة، يحضرون بالفِطرة البدائية ومن دون خطّة، من دون تربية و من دون وعي [أغلب الأحيان] ومن يَجيء وفق ترتيب؛ إنما يأتي محمّلاً بالقلق والشك، لسنا [رفيقي وأنا] المسؤولين عن إعمار الكون وتزويده بالبشر، لكن دورنا حتماً هو المشاركة ضمن ملايين ممن يعمّرون العقول بالفكرة والكلمة والمزيد من دبابيس الشك، ذاك هو سبيل عطاءاتنا في هذه الحياة [وعدد مما سبقها].

ولأسرّ لكم؛واقعاً، من ينظر نحوك بشيء من "النقص" ويُظهر لك رغبته "باكتمالك" حين الإنجاب؛ هو لا يريد لك الفرح لأبداً بـ أبناء مفترضين، قدر ما هو يودّ توريطك/إشراكك بمآسٍ يعيشها، وبـــ حياة مستلبة منه بالرعاية القصوى لمن جاء بهم إلى الحياة.

لكنني/ لكننا على أول الأربعين، وخيارنا المشترك متحقّق منذ أكثر من ٨ سنوات، كيف نراه؟

لقد أنجبنا في الواقع ما هو مخلّد ولا يَمْسَسه فناء أو أذى، فـ عشرةٌ وعشرةٌ من الكتب تعني أننا وصلنا للسُلّمةِ الآمنة من درج الصعود [التكوّن] والمشاركة الكونية، ثم أنني حين أنادي رفيقي بـــ ابن قلبي، فإنني أمارس ما هو أعلى من الأمومة العادية، وهو حين يناديني بـــ ابنة روحي؛ فهو يعطيني أضعافاً من أبوّته.

لأسترعي انتباهكم قليلاً!

نحن نمارس [حتى قبل أن نلتقي] المناهضة العلنية [عبر سلوكنا أولاً] بعناد شديد واقتناع أشد ومثابرة ضدّ كل ما تكرّسه بيئتنا الخصبة لموات الحرية والاختيار، فلا يعنينا أبداً [كلما أوغلنا بالتجربة] "ما تطلبه الجماهير"، فكيف لوعيٍ جاهدنا لتطريزه غُرْزة غُرْزة أن يقبل أن أكون شبيهاً لآخر/آخرين، أعبد

سوء التجارب تحت مسمَّيات تقبلونها، وتبسط هذيان الإعادة والتكرار، كيف يمكن أن تكون "والديك" مثلاً؟ أو نموذجا جديداً من أترابك وأقرانك؟

هل يعقل أن أُعيد إنتاج ذاتي متّكئة على صُوَر قديمة؟ ماذا عن "نفض" الوعي الذي كان؟

إننا حين اتخذنا قرارنا بأن يكون "الكتاب" هو الجدار العازل الذي نتّكئ عليه ويسندنا [عوضاً عن الأبناء]، هو ما يمكننا من تأمّل الدنيا والتعلّم عبره، خط التعلّم لا منته بطبيعة الحال، تسلّمنا التجربة لما هو أكثر صعوبة، وهذا ما يساهم في "كَحْت" البدائيّة المتجذّرة في أرواحنا. إن التجربة الصعبة، هي معاشرة الناس، التعاطي معهم وكَبْح جماح دهشاتنا وتوترها.

سألتني صديقتي؛ حلاّقة شعري الأرمينية في يوم:

"شعرك مليان شِيب.. حرام"!

أجبتها [ولا أدري كيف تمكنت من ترتيب العبارة ورأسي مبلّل بالماء]: "لأنني وبقبول تام، أصادف بشراً غَريبو التخلّق كل الوقت، بشر يسرحون بين البقية ولا يأبه أياً منهم بماذا يقترف، فتخيّلي تأثرنا بالأسئلة الهاربة من رؤوس لا تُحقن فيها الشكوك وتنام كل الوقت بالمسلّمات والثقة؟ نَشيب مؤكّد، نَشيب ولا يحزننا هذا البياض، لأنه علامة عظيمة على الاقتراب من شبه الوصول.."

انتثر صمت وصوت مقصّ الشعر وحيد كـ عبارتي.

كلّما علِمَ أحد ما بأنني "كاتبة" تلتمعُ عيناه بنظرة لا أصل لتفسيرٍ واضح يجمعها في عبارة واحدة، لكن يصلني عبر أفعالهم ضرورة أن أكون لذلك قالباً واحداً يجتمع فيه عالم نفس ومريد وعالم للآثار ومهندس، جرّاح وبَيْطري،

مُبصَرة ونصف إله! إننا مساكين، نحمل لقباً ثقيلاً كل الوقت، صفة تضعنا بين المجاز والحقيقة حتى آخرها، ثم نغيب [في نوبات متفرقة ومتواصلة أحيان كثيرة] في الحزن والكتابة/الكآبة.

يُنتظَر منا أن نكون المخلِّصين المختبئة أجسادهم بأرْدِية بشر.

من قال لكم بأن الكتّاب يتناولون دائماً المعضلات الكبيرة والمسائل المعلّقة ومظلوميات البشر نحو حلول أكيدة؟ نحن نَنْكأ جراحاً مشتركة، نشحذ صدوركم بالأمل الذي لن يزهره إلاّكُمْ، نحن الفقراء للراحة العقلية إنما نمارس حيواتنا بأبسط مما تتخيلون، نجاهد [بالمعنى الحَرْفيّ للمفردة] لـ مساعدة أنفسنا أولاً، وربما غيرنا.

مُذ احترت / اخترت هذا الطريق المفضي للشحن العاطفي كل الوقت، صار لدي قلب هش؛ يحملني تارة وأحمله كثيراً، رغم ذلك أتظاهر باللامبالاة أحياناً كي أنجو بنفسي من هدر المشاعر وانحشاري بين المعاني، أحترس من انفجار صبري بكاءً وإعلان مَلَلي التام والحقيقي من الاستمرار بحملِ اللعنة الـتي بها كُلِّفت وما عدتُ قادرة على التملّص منها.

رفيق روحي كمثل النهر، يغسل عني كل شيء، يمسح عني أدران اليوم ووعثاء الشوارع التي أتيه بها بحثاً عن مفردات أنْحَتها، يخفّف أحزان البدء الذي لا يفضي إلاّ للمَحو وارتباك المعاني، ويغمرني بسحر الفلسفة التي تشذّب انشداه عقلي بالعاطفة.

42

يوم التقينا، هو وأنا، تيقّنت من "الوصول" إلى بعضنا، لقد وصلنا ولم نتأخر، علمتُ أنه حَليفي/ نِصْفُ الفُولَةِ في "كارْما" العشق المتعدّد/اللقاءات المتكرّرة، تلك التي عبرناها سوياً منذ آلاف السنوات، تطوفُ بنا الذكرى شذرات مُقحَمة في وسائط تأملية خاصة، لكن [يا للأسف] يغيب عنا الكثير منها كذلك.

ومنذ تلك اللحظة العابرة للقلق، كيف وقع رفيقي في ارتباط كاتبة؟

إنه لاشك نجح منذ أول محاورة في إدهاشي التام، كنتُ استمتع بفكّ شفرات كثيرة في أحاديثنا المقتنصة بالاقتراب، فلم يكن رفيقي عابراً عادياً أبداً، ولم يتحوّل بعد كل تلك السنوات لآخَر لم أتعرّف إليه، "عقيل" دخل حياتي [التقينا لمرة جديدة] بدهشة متجذّرة تهزّ القلب وما يزال يفعل، عبرنا سوياً أصعب ما كان، تسلّقنا السور العالي ولم نبقَ نتساءل على حافّة الظل: "ماذا لو"؟

إننا ببساطة، لم نخشَ أحداً، فالحب ينتهي في ساعة الخشية، وهذا ما لم يكن.

لقد أنبتْنا الساعات كلها بعيداً عن الخوف، بل في "عهد الله"؛ ربنا الذي نعرفه ويعرفنا جيدا.

جئتُ [إلى هذه الحياة] كرضيعةٍ صغيرةٍ بحجم كفَّين مضمومتين بوزن ٢ كيلو وبضعة غرامات، وخلالهما تُطلق عليه الأمهات "فَحْص الأربعين"، ضَحَكَ الطَّبيب من أنفه حينما قاس طول جسدي الصغير مصرِّحاً لوالدتي بأن تستعد لمعرفة أنني سأكون فتاة "قصيرة القامة"، تشاركت أمي الضحك معه، وانتهى كل شيء.

لذلك لم يفاجئها حين بدوت أقصر قليلاً من أترابي في المدرسة والثانوية، بل وحتى الجامعة، كانت دائماً تردَّد على مسامعي تعليق طبيب "فحص الأربعين" باللغة الإنكليزية. على الرغم من ذلك، لا أتذكر بأني كنت أكترثُ لقصَر قامتي، كنت دائماً مكتفية بثقتي بشكل لافت، فلم أحاول مطلقاً تعويض الطول عبر انتعال "الكعب العالي"، كنت كلما كبرت أقتنع أكثر بأننا نرث أشكالنا/ ملامحنا وتكوّنات أعضائنا من التراكيب الجينيّة لأهلنا التي لا نعرف أغلبها وامتداداتها.

كل ذلك [بالنسبة لي] ليس مهماً على الإطلاق، المهم هو ماذا سنقدّم وكيف سنجعل من أنفسنا؟

تقول أمي، بأن جدّتي "بدرية" [والدتها] كانت تبكي في مساء ما، بينما كنتُ أنا ما أزال في بطن أمي أسبح في سائلٍ يحميني إلاّ قليلاً من جنون الخارج، كان أنفُ جدّتي منتفخاً/ مُحمرّاً ومستديراً [طبقا لرواية أمي] بسبب بكائها المتواصل حزناً على ما لا أعرف، تمتمت لحظتها أمي خشية وخوفاً من أن أرث [أنا جنيـــــنها آنذاك] أنف والدتها [جدتي]!

المضحك، بأننا نحن دوماً من نقترف الحماقات لنندم عليها لاحقاً ولا نتوب ولا نتعلّم.

لقد ورثت فعلاً أنف جدّتي، لكن أنفي مزيج من أنفين إثنين: جدتي "بدرية" وأبي كذلك، ولأصارحكم بأني أحب أنفي كثيراً، إذ لا عيب ظاهر فيه، إلاّ أفكار أهلنا المضطربة.

متى التقيت بـ جدّتي "بدرية" أول مرة؟

لقد قدّر لي أن أحيا بلا جناح القُربى "الثاني"، وفي البُعد عنهم نشأت وتكوّنتُ ضمن نطاق/ رعاية أهل والدي. فأخوالي/خالاتي وجدّتي وجدّي لأمي ليسوا من هذه الأرض، فهمت من حكايات "ماما"، أول الوعي في طفولتي، بأنهم يسكنون في وطنهم الأصلي، لصقنا/ شمالنا. تحديداً وعلى وجه الدقة الجغرافية "العراق".

ولأننا كأطفال نكبر مع توالي المعلومات "المتاحة" [فقط لنا] وتصبّ في وعينا مباشرة من منبعها الأساس [ليس صادقاً دائماً وليس محايداً كل الوقت] هم أهلنا/ والدينا، فهمت بأن لي أهل غير ما أعرفهم من جهة والدي، وبعد زيارتين يتيمتين سَفَراً لِلقائهم والتعرف بهواءٍ لا أعرفه [كنت بعمر ٨ سنوات] كونهم عائلتي الثانية، عائلة أمي، الذي تأخر تعرّفي إليهم بسبب الحرب [١٩٨٨- ١٩٨٠]، لقد كنتُ مبتهجة لأنه صار بإمكاني إخبار القصص والحكايات لصديقات المدرسة عن خالاتي/ أخوالي كما يفعلن هنّ كل الوقت، لقد كانت علاقاتي الأولى مقتصرة على محيط بيت جدّي "عبد القادر" وأعمامي بحكم القُرب/ الانصهار الأسبوعي المستمر في وطنٍ واحدٍ يجمعنا ويعنينا.

هل كانت تلك الزيارات كافية لأتعرّف جيداً بعائلة جدّي "جواد"؟

السفر ما كان متاحاً قبلها، فسنوات ضاعت في الحرب [العراقية - الإيرانية] كانت تأتينا بالمفجعات دوماً، واتصالات الاطمئنان التي تطلبها أمي

عبر البدّالة الرسمية للكويت، التي تحوّل المكالمات الخارجية لبيتنا الصغير، كانت تنتهي دائماً بالدموع.

دمع الفراق الذي طال، دمع الفَقْد/الموت الذي بدأ يزحف لكل الأسر العراقية [والإيرانية] بلا رحمة، تلك الحرب خلّفَتْ نصف مليون قتيل من الجهتين، وأعداد مهولة من المعاقين والمكسورة خرائط آمالهم، وكثر ممن أضاعوا بوصلة الإيمان بكل المقدّسات. لقد "استشهد" خالي الأصغر "عقيل"؛ خالي الذي لم أجتَمع به أبداً، وهو بعمر "٢١ عامًا"، وقد كان من ضمن النصف مليون، اسماً ومجموعة "نياشين"، ثم لا شيء آخر.

حُزن أمي وقتها كان كارثياً.

غادرتنا سفراً لأهلي/ أهلها هناك، وما سافرنا معها.

غَبش غطّى تلك المرحلة من حياتي الطريّة بالخوف على أمي وأساها المتعاظم واختلاف منظر عينيها [حين عادت لنا] واللتين ما عدت أتعرّف إليها من دون كحل أسود يميزهما.

جدّتي "بدرية" التي التقيتها يوم كنت صغيرة، ومن بعد "استشهاده" صارت سيدة تركن لأحزانها وتردّد "النّعاوي" شعراً شعبياً يخصّها وحدها، دموعها على استعداد كي تسيل في أية سَهوة تمرّ بها.

انتهت الحرب في ١٩٨٨، زرنا العراق/بغداد لمرة ثانية [كانت الأخيرة قبل ٢٠١٥]، مبهجة زيارتنا تلك كما كان يفترض، فقد كان احتفالنا بزفاف خالتي الصغرى، دعوة لرشّ السّكّر على ملح أحزانهم.

وككل العراقيين في ليالي الصيف الساخنة تشارَكنا معهم تجربة النوم على سطح البيت، الهواء طيّب في الأعلى، ومراقبة السماء والضحكات المكتومة / المسروقة من انتباه جدّنا، الصارمة تعليماته. لقد كنت دائماً ما أراقب جدّتي "بدرية" وهي تمسح الغبار اللامرئي عن صورة خالي "الشهيد"، الصورة الكبيرة المعلّقة بعد باب السطح باتجاه النزول للبيت، تصبّح عليه، تخبره بأننا هنا: "أختك وأبناؤها جاؤوا من الكويت لمدة أسبوعين، يشاركوننا زفاف أختك"، وبعدها تجرُّ آهةً حارقة تُغرقني معها في الشَجن المضاعف، بينما تُطلق شِعرَها الذي تنظمه من خيوط سخطها؛أتذكر بعضه [بعيوني الحِزنْ يِقْرَونَه الـ يُواسُون، والـفُوق الحزن لو تدري شَخجيلَك...]، ولم تسعفني سنواتي المنتبهة لحفظ ما جاء بعدها، تلهّيت بالنظر لعيني خالي "الشهيد"، تصوّرتها سعيدة طافحة بالارتياح.

في [٢٠١٥] كنا نعيش على خطّ ما يشبه الطمأنينة.

حتى تعامَدَت القدريَة مع نهايات السنة، وصَحا رفيقي وشيء بلا رأفة ينبّش عينه اليسرى.

عند الطبيب المختص أخبره بأن التهاباً شديداً في عَصَب العين البصري قد لحق بها، ما استدعى تدخُلاً سريعاً / مُمتدّاً من جرعات مكثّفة من "كورتيزون" وريدياً، وكإجراءات لاحقة/لاهثة، تم تحويلنا لمزيدٍ من الكشف والتأنّي، أُخبِرنا يومها بأنها "انْتكاسة" عَصَبيّة أتلفت جزءاً كبيراً من العَصَب البصري للعين اليسرى وأن التَطْبيب يحتاج إلى مراحل علاجية [دقيقة ومؤلمة وصعبة تلك التي مَرَرنا بها آنذاك وما نزال]، لم تكن أولها جلسات لغسيل/ تنقية الدم من تلك الأجسام المضادّة التي ارتبك فهمها لسببٍ ما، جلسات تجاوزت العشر،

ولم تكن آخرها جرعات وريديّة قاسية من مصْل علاجيّ/ وقائيّ يحفظ جسده من انتكاسات شبيهة قد تُصيبه.

وعبر حديث أخويّ بيننا وبين الطبيب، خلال جلسات العلاج الوريديّ [تمتد لأكثر من ست ساعات] سألَنا إذا ما كنّا في الكويت خلال فترة الاحتلال العراقي في ١٩٩٠؟

كان جوابنا ثنائياً بـــ نعم.

هزّ رأسه لحُسنِ قراءته لتوقّعاته، قال:

"ظهرت هذه الإصابات لأمراض عديدة مبهمة ومعروفة، عرفنا بعضها باسم أمراض حرب الخليج ٩١/٩٠، وبحسب بحوثنا الميدانية، فإن أكثر من أصيبوا بها هم من قضوا طفولتهم/مراهقتهم هنا في الكويت خلال تلك الفترة، فمخلّفاتُ الأسلحة وحرائق الآبار النفطية، بل وحتى روائح الموت وتفاقم مشاعر الخوف، أضلاع أربعة لإصابات عصبية".

زفَرت قلّة حيلتنا، كنت أزفر حنقي متذكّرة كل تلك الأيام/الأحداث المؤذية التي خضناها [وما نزال ندفع مقابلها] مذ حاصرتنا "القبّعات الحُمر" متسلّلة أسفل سياج الطمأنينة، صحونا في نهار غابت عنه الحرية، لم نكن نحن أنفسنا الذين نمْنا بأي شكل من الأشكال، لقد مسخنا لـــ تعب وسواد.

لم أكن أتذكر جيداً [ربما لأني لا أريد التذكر] متى انهارت خطوط دفاعنا النفسي في الفاجعة؟ أو متى تداعت حُزَم الآمال الواسعة التي كنّا نخزّنها بين أهدابنا خشية عليها من السرقة، أو التلف اللذين طالا كل شيء، لكن سنواتي الطريّة [آنذاك] والتي كانت تستقر كـ قطرة ندى على وردة، اهتزت برياح

حارقة، سالت واختفت، كنتُ متيقّنة وأنا ابنة ١٢ سنة من موت جماعيّ كاسح يبتلع كل تلك الأسر "الصامدة" بالثقة الإعجازية، موت يمحونا فلا يعود لنا أثر، ذلك كان ارتباطاً شرطياً بين الحرية القادمة وبدء "الحرب البرية" في ١٩٩١.

لم نمُتْ.

لم تصل النتائج لخيال فتاة مراهقة، خيال يحسن دائماً التصعيد لنهايات مفجعة. لكننا حتى اللحظة نُقدّم قرابيننا من عافيتنا/ أموالنا/ استقرارنا/ فرحنا، لموجاتٍ من قُبح اجتاحنا [وما يزال] ولم يتركنا كما كنّا أبداً. مع ذلك، فإن الكويت سخية دوماً، معطاءة تُشبه رجلاً ثرياً وأميناً، لكنه يشتاق لأبناء وأحفاد كي يهديهم كنوزه وثرواته. الكويت واضحة جداً، مثل شمس تطل على الكون ولا تحرم أحدا.

الكويت حريصة ومتّزنة [هذا ما يتعبني أحياناً] كي لا تجرح الإنسان الـ أتعبته بلاده يوماً ولاذ بها/ بنا رغبة في الخلاص من حريقها كل لحظة. الكويت شجرة واسعة الظل، لا تضيق بمن يركن إليها. مع ذلك كله، هي كما يقول أهلها: "مثل عُومَة، مأكولة؛ مَذْمومة"(١)

(١) مثل شعبي كويتي: والعُومَة هي سمكة صغيرة تشبه التردين، يأكلها الناس ومع ذلك ينتقدون مظهرها، ويطلق المثل على من ينال فائدته من شخص ثم ينتقده.

43

اعتدت منذ العشرية الثالثة [ثلاثينيات عمري] ألاّ أترك ممحاة الغضب تمارس هجمتها عليّ بلا وعي.

مارست الغفران طويلاً عبر فهمه جيداً، التمرّن عليه، ودروس "اليوغا" وحلقات التأمّل [ممارساتي خاصة وفردية ليست جماعية] كل ذلك بدّل لون جلدي الداخلي نحو شيء من النقاء، هكذا أشعر شخصياً، ولكني أخبرتكم بأن "العراق" ارتبط [رغماً عني] بكل المفردات الـ تنتج من جذر كلمة "وجَع"، ارتبط ببكاء أمي الذي كان يصعب عليّ فهمه حتى وقت متأخر، ارتبط بالبُعد والمسافات وموت المشاعر، ارتبط بالحروب التي لا تنتهي، ارتبط بالحصار والجوع والاتهامات الكثيرة الـ تشير بأصابعها نحونا، ارتبط بالكذبات المحرّفة / الملفّقة ضدّنا كل الوقت، ارتبط بالسخرية المبطّنة من لهجتي "الكويتية" خلال حوارات الطفولة التي دارت في بيوت خالاتي وأبنائهن، بالصمت المريب جداً، والرؤوس المنكّسة حين يدور الحديث عَرَضاً عن "الاحتلال والتسعين"، بينما لا تُنطق هذه الكلمة/الحقيقة!

ارتبطَ العراق بالاتهامات الإعلامية التي تنام طويلاً، لتصحو أشدّ وأنكى. علاقتي بالعراق تفيض بالنقائض الموجعة.

إذ كلما حدث، بعد أن رسم القادة [illegible] الرسمية/ الرياضية، عاد هذا البلد بعنصر أشوه ما أدريه لإحلاله، محاولاتنا!!

نحن في الواقع نرتبط عاطفياً بالمفارقات، ومذاق العراق في فمي شبيه بطعم ماء دجلة؛ "مجّ" لا يشبهنا، نشربه وقت العطش فلا يروينا!

انتهت حربنا مع العراق مبدئياً في ١٩٩١ حتى١٩٩٥ [وقت مراهقتي]، وفي كل ذكرى أغسطس يربكني الغضب، وأظل أقضي يوم الذكرى كمن يتنقّل بعنف من خندق إلى آخر، أبحث عن ما لا أدري في الأغنيات وقصص "القتلى" والمأسورة أرواحهم في لا أدري أين... هناك، شمالاً.

وقتها، كنت ما أزال حبيسة قشرتي، كنت أيضاً أستذكر كم كان مؤلماً أن أنقسم على قلقين!

كان خوفي المتعاظم بين فكّي عدو/محتل، وقصف قوّات "حَليفة" لإنقاذنا بينما هي تستهدفنا واقعاً، فهي ترمي حمولة طائراتها على أماكن السكن الـ يَتَمَتْرَس فيها الهدف، رغم أنها أماكننا الأكثر أماناً..و بين قلقي "البدائيّ" على أهل لنا "هناك" [في بغداد] مرمى أهداف التحالف بكل الترسانة الحربية المعدّة لأجلهم!

كان قاس جداً، أن يكون سؤالي المستمر / المستعر، ماذا سيحدث بعدها؟ من سيموت؟ من سينتصر؟

أترانا سنظل بؤرة غائبة عن "خريطة العالم" الـ غابت عنها "فلسطين" قبلاً؟ أم سنذوب لـ داخل العراق "العظيم" ولن يعترض أحد، حالة شبيهة بـ قبرص التركية، ونتدرّب في مدارسنا على إعادة تخطيط مكاننا على الخرائط

في حصص لاجتماعيات، كوننا "المحافظة التاسعة عشرة"، الأكثر فقراً وعوزا!

بَتْ مع ذلك بشر أقوى مما نتخيّل في الشقاء.

مُزَوَّدة أجسادنا/ عقولنا/أرواحنا بشريحة مقدّسة تبرع في إعادة شحننا بنبصيرة، تبقينا نستجلي القادم ولو كان مضبّباً بالقلق والانتظار.

لم تكن مشاريع "التّوأمة" التي تُعقد بين المدن قابلة للبلع بالنسبة لي.

لم تكن يوماً قادرة على استعياب الهدف الكامن ورائها أو حتى أمامها، فما معنى أن نزاوج/ نربط/ نعقد بين روحين مختلفتين تماماً تفصل بينهما مسافات وثقافات، عادات وإيمانيات، تراث ومرويّات، بين صحراء ساطعة بنور تحتضن البحر مثلاً وبين مدينة مظلّلة بالاخضرار عَصَبها النهر؟

دعوني أسرّ لكم بأمر: في الغالب تتم "التوأمة" كفعل تكفيري/ تطهيري/ شرعي لعداوات سابقة الحدوث، وبعنوان حنون يُدعى التوأمة يبذرون السلام [الصوريّ] بين آهتين عميقتين، سلامٌ غير متحقّق لأن القلوب سخّمتها البنادق وبارودها. ولأن الذكريات عفّرها الجَوْر والتطاول والآهات المستعرة في صدور الأمهات اللواتي فقدن شباباً جرّحت أجسادهم القنابل والرصاص، لتطلق عليهم أوطانهم "شهداء"، وينعاهم حرّاس الدين بـ "أحياءٌ عند ربهم".

التوأمة بين مدينتين، شيء يشبه عقد قِران بحضور شرطي ومحافظ ورجل دين.

واقعاً، لم تقدّم تلك التّوأمات بين المدن العربية سوى شراكة ممجوجة ومجالات متوارية لسرقاتٍ منظّمة تحت عناوين "هدايا ثقافية"، عطايا لرَأْب التصدّعات الغائرة المحسوسة، إن إحدى مشاريع التوأمة التي كان قد أُعلنَ

عنه [على خجل] والتي كانت أشبه ما تكون بصفقة صمتٍ هي بين البصرة والكويت.

طالما تساءلت، كيف يتم تزويج المغتصبة للضحية؟

كيف يمكننا مباركة هذا الفعل المقتحم بأكفٍّ نصفها مضرّج بالدماء، وأخرى تحمل ندوب التعذيب؟

في يناير [٢٠١٥]

وقبيل الوصول للأربعين، دُعينا رسمياً للبصرة [لا دخل لصفقة التوأمة بتلك الدعوة].

وللحق وللتاريخ أقول كنتُ فرحة بهذه الدعوة/ المغامرة، لم نفكّر مرتين قبل إطلاق الموافقة، رفيقي وأنا، رتّبنا فرحتنا النامية بالأمل في شنطتين صغيرتين جداً، وانتظرنا جناح المودّة لنُسافر برّاً/ شمالاً نحو البصرة.

كتبتُ يومها على صفحتي في "الفيس بوك":

[نحن في البصرة ليوم وليلة فقط ونعود، سنتصافح وهوائها خلال ساعات، سنلتقي بوجوهٍ بَصْريَّة نبيلة في جامعتها واتحاد كتابها، ونسعى في"دَرابينِها" وربما نسهر على شطّها ...]

في الطريق برّاً [ساعة وربع الساعة من منتصف مدينة الكويت] نحوها، كنتُ أرفع أنقاض طفولتي ومراهقتي، تلك التي جعلت من "العراق" بلا راء، تركتُ ذاكرتي على هواها حرّة، وسمحتُ لها بأن تتشمّس وتعيد تسريح شعرها على مهلها، عبرنا الحدّين الفاصلين، عبرنا الأمان المرسوم، وشيء بدأ بالهبوط

بداخلي، تلك صحراء أخرى لا أعرفها "سَفْوان"، المعبر الحدودي والمنطقة العراقية الأولى التي يقابلها العابر/الزائر من الحدّ الكويتي.

إلى أي الصور سحبتني الذاكرة رفقة هذا الاسم؟

كان المكان [رغم الشمس الساطعة] غارقاً في وحشة لا نهائية. بوّابة مستحدثة باللون الأزرق بتشكيلاتٍ مستلهمة من "عشتار" و "شناشيل البصرة"، ثم بَراح.. بَراح ممتدّ بآثارِ حرب كأنها الأمس، خراب لم يُرفع بعد، وبضعة مراهقين بملابس مُهترئة بالعوَزْ، يحرسون قنّينة غاز، وكلاب ضالة أتعبتها المسافات و شوّهها الجوع، تراب كثيف بطبقات، التصحّر الذي تعلمناه في كرّاسات الدرس، هواء يكثّف التذكّر... كنا ننتظر سيارات ضربَتْ لنا موعداً كي تنقلنا نحو البصرة، نحو العمق، نحو "ثغر العراق الباسم".

كان صوت تلك العجوز المُكرْمَشة بالتجاعيد آخر ما أتذكر من "سَفْوان"، هممْتُ بركوب السيارة بعد وصولها، وصوت السيدة مُتخشّن من آثار السجائر الرخيصة، تطلب عوناً لها، وبكل إيمانيات الرايات الخضراء حاولت استعطافي، لكن شاعراً زميلاً كان في استقبالنا، نَهَرها بلطف كي تتركنا نتحرّك نحو مسعانا.

رأسي كان يعجّ بالتفاصيل المريرة كل الطريق.

حدثٌ يطارد الآخر من دون أن أتمكن من القبض على ما يفصلهم أو يربطهم فلا فرق، الصور كانت تكبر/ تتعاظم/ تتزاحم وتضطرب حتى وصلت بنا السيارات نحو مبتغانا.

كنّا أربعة، عبرنا الحدود من الكويت متّجهين إلى البصرة.

بالنسبة لي كانت اللحظة عَدَمية لا يمكن تجاوزها إلاّ بتحطيم الرواسب في

الروح، مذ سألني الضابط العراقي على الحدود: "أول مرة بالعراق"؟

قرأتُ في عينيه شيئاً غائراً، ونصف خفقة قلب.

أجبته: "نعم.. أول مرة"

وددتُ أكملُ له، أول مرةٍ من بعد الاحتلال، أو ل مرةٍ من بعد التحرير.. أول مرة من بعد التعب، وددتُ أخبره بأشياء كثيرة. فعُمره مقارب لعمري، وسنجد الكثير لنَبْكيه سوياً، لكنني كنتُ برغم ذلك منتشية بالفعل ذاته. كنتُ أُطَبْطبُ على روحي وأعيد التأكيد عليها، لقد صرنا في الأراضي العراقية وعندي ختم النسر الـ يُخولني الدخول بمحبة!

"يا كُل الهَلا" والضحكات العابرة للشجن التي استُقبِلنا بها، كانت كفيلة بتلاشي كل خاطر سيء قد يتكوّن، لكن بعض المدن [على ندرتها] تشبه سُرادق عزاء كبيرة، خانقة، مثل فوّهة تنّور مشتعل في نهار رطب جداً، لا ألوان للربيع فيها، ولا حضور حقيقي للأنثى، لا عشّاق يمارسون قداسة الحب في أحيائها، ولا عازف "صُولو"، ولو كان حزيناً، يطلق أنغامه تحياتٍ للعابرين بهمومهم، بل حتى "الشَط" كان بلون الطين، بحرٍّ مثقل بالخطايا السريّة.

كانت مدينة تُمارَسُ بها الحياة على طريقة الموت المتخفّي الـ ينتظر المزيد من الفناء مثل عادة شبه يومية، مسلّمٍ بها كل الوقت. كل شيء حين عبرنا "الحدود الدولية" الفاصلة كان جديداً [غريباً] عليّ، الشوارع المحفورة والرايات السوداء الـ تتفرّع منها أخرى خضراء، وأخرى تهدي السلام على "أبا عبد الله"، وغيرها تبكي "الرّضيع الصغير"، كل ألوان الرّايات كانت على جانبي الطريق الطويل إلاّ العلم العراقي كان غائباً جداً، مغيّباً، منسيا.

أرض متعبة من جذورها، ووجع تلك الأرض مرئيّ في وجوه الناس التي نصافحنا معهم بـ غربة وقتيّة، كنا خلالها نحاول مَحو كل المؤلمات فيها، سلامات كثيرة، امتنان واسع للخطوة التي بادرنا عبرها لـ إعادةِ ألقٍ صفاءٍ تغبّش طويلاً بأيادٍ مجرمة، فنحن كـ أدباء يهمّنا تجاوز المرارات بالإبداع والعلاقات الإنسانية الرفيعة، والحقيقة كنا مذ بذرنا النيّة للعبور نحو الشمال بخطةٍ فردية/ شخصية خالصة، نصرّ على فقع دَمامل عتيقة عبر التدرّب طويلاً على فعل التشذيب لأطراف أذهاننا من كل ما علِقَ به.

وعبر تلك الرحلة، [يشاركنا من هم على الضفة الثانية من الخطيئة] كنا ننوي تمسيد نتوءات الجروح التي اندملت، لكنها لم تختفِ تماما.

وصلنا إلى وجهتنا أخيرا.

إلى الفندق المحاط بنقاطٍ عسكرية تحميه وساكنيه، وصلنا مثل رحّالة يدخل غرفته على مهل/حذر، ليكتشف أرضاً جديدة غائمة بالأسرار، نغسل عنا "وَعْثاء" الانتقال من حدّ لآخر، نتخلّص من زفرات المدهشات الأولى.

في الحوارات، كنت أسيطر على وعيي لمناقشة المبهجات فقط، مع تلك الأرواح التي تَعَرّفنا إليها بحذر، لم أشأ أن تُهدَر المحبّة بإنبات الأسئلة المسمومة بألف علّة [ولو على سبيل المزاح]، كنتُ حقيقة، لا أودّأن نذكر الكويت في أحاديثنا، أو أن نسأل حتى، كيف هو العراق الآن!

نحن نهتم لأن يكون البشر على الجهتين بخير [هذا ما كنتُ أعلّقه كتميمة في صدري كلّ الوقت].

لكن..

في حميمة الاقتراب المتسارعة، لابد من أن تُبتَر بعض الخيوط من دون تعمّد، قال أحدهم بينما يحكي لي عن علاقته الأسرية التي تربطه بوطني: "كنّا نُهرّب أشرطة الكاسيت من أقاربنا في الكويت خلال الثمانينيات، فالحرب كانت طاحنة وتلك فترة مراهقتنا، ونحن في مدينة منسية في الجنوب، مدينة متروكة ومهملة ومَرميّة مثل قذيفة لم تنفجر، مذ بدأت حربنا مع إيران..".

طرحت سؤالاً يعيد لعينيه استقرارهما: "لمن كنتم تستمعون تحديداً في تلك الفترة""؟

وابتسامتي تستطيل لمزيد من السلام، تصاعد توتّر ظاهر نبع فجأة من طرف الحوارات الجانبية التي صمتت هي الأخرى للإنصات لنا/ حديثنا، يعود زلال الثقة لعينيه ويقول: "عبد الله الرويشد، نوال، عبد الكريم"

ثم يزفر طويلاً، كأنه يدفع بالسنوات التي طواها البُعد القسريّ/ الانقطاع والحصار والإحراج وتتبدّد ابتسامتي الواسعة..

صوت غريب لشخص يجلس قُبالتي طعن نوستالجيا الليلة الوادعة قائلاً: "تالي كل شيء انقطع، صار الكويتي عَدّونا، ووقّع على محاصرتنا وتسبّب بموت العراقيين ومرضهم".

كان الألم يتخذ مكانه الطبيعي في قلب ذلك الشخص، فقد قدّموه لنا قبل الجلوس على طاولة العشاء يسبق اسمه رتبته العسكرية في الداخلية العراقية، هل كان هو جسراً لكي تُعبَر/تعبر الإساءات نحونا؟ تتسرّب إلينا من بين الذكريات المشتركة إلاّ قليلاً؟

ساد صمت جنائزيّ، فالحزن يكبر وينتشر أسرع من خبر سيء.

بعد صمت استطال، ونظرات ظنّوا أنها خفيّة [لكنها لم تكن] رمى كبيرهم ترحيباً طازجاً في الهواء؛ ليبدّد رائحة الضيق التي لوّثت النوايا.. لم تكن طلقة [الفظية] واحدة تلك التي صوّبها صاحب الرتبة العالية في الداخلية العراقية، لكن طلقات أخرى وجدت لنفسها سماءً للتحرر/ الانفراس في بياض الوعي.

الغريب [بالنسبة لي] أن من صوّبوا فُوّهاتهم الباردة بـــــ "سقط السّوالف" نحو الأحاديث العابرة للشجن، كانوا جميعهم يحملون الوجه ذاته، الوجه المزهو بنفسه بلا سبب وجيه [يقنعنا على الأقل]!

يا لِخيبتنا، نخلط دوماً بين العام والخاص من دون رأفة وبلا مبالاة.

هجوميون حتى النهاية، تعساء في تعابيرنا.. حتى في الظرافة بائسين.

كنتُ وحيدة تلك الليلة [الليلة الأولى في البصرة]، مرغمة أحمل بين كفيّ ذكرى ثقيلة، كي أدوّن شذرات لقراءتها عليهم في نهار لاحق، ترى من جرّبَ منكم حين يستدعي معجمه الخاص/العام المعبّأ بتجاربه على اختلافها، أن يفرد "جورنال" الحكاية/ الحدث منذ بدايته حتى نهايته والتبصّر به عميقاً، وأن ينقّي خاطرهُ بينما يخوض في طين الأذى، ناثراً [بالتذكر العميق] التراب بيديه قبل خطواته كي لا ينزلق وحيداً؟

كنتُ في فجر البصرة، أفعل ذلك تماما.

فعلت، لأتمكّن من التدوين الواعي، كنا في منتصف الشتاء والبرد يتسلّل في الممرات وأكثر، خصوصاً حين ينقطع التيار من المولّد، فـ يتّضح صوت عواء الكلاب الضالة في الجوار.

كتبتُ: ".. ولأن العراق في رأسي ذاكرة، العراق، في الثمانينيات البعيدة مدعوكاً بالحروب، ثم في وجع التسعين ممهوراً بالدهشات والخيبات، ثم فيض الـ ٢٠٠٣ متخلّصاً من القذى.. العراق، تلاوينات متشظية في رأسي، لا يفهمها سواي، حين عبرنا! شعرت بنثار ملح على جرح التأم، ولم يعد يبالي بالحريق الطارئ.."

لكن، لماذا شَخَمَتْ الأسئلة المارقة من أفواه السفهاء ساعات الليل المبكرة حبال الدفء البيضاء التي كنا نوصلها مذ عقدنا أوّل النوايا للمجيء؟

كان سؤالا حَاداً من فم أفوج، توالدت بعدها استفهامات ليست نظيفة أبدا.

بهذه العبارة نقلتُ لرفيقتي البيضاء تأثري بما حدث بعد عودتنا.

"أتراه من المستهجن أن يظهر الأنذال في اللحظة عينها"؟ هكذا تساءَلَتْ وهي تُصلحُ وضع شالها الوردي على كتفيها، وابتسمت بتبصّر عميق.

في عملي الروائي [الذي سبق هذا] وحمل عنوان "تُؤلول"، كتبُ كثيراً.

متطهّرة من آثار العلاقة المشتبكة بين الكويت والعراق ضمن سياقات روائية فنية، كتبتُ بلطف شديد متعمّد، رشَشْتُ الملح بعيداً عن الجرح [رغم الإمكان]، لكنها "الضحية" في النصّ الأدبي، وقد قالت الكثير رغماً عني! عاتبني "قرّاء الشمال"، بعضهم بأدبٍ كبير، والبعض بوقاحة فائقة، لم أهتم أبداً، فالكويت هي المبتدأ وهي الخبر في كل شيء.

في مواقف كهذه تعلّمتُ ممارسة التأمل والمراقبة، فأنا على يقين [متحقّق] بأن للأرض ذاكرة لا تنسى، فـ تداورُ غضبتها للدم الذي يسيّلُ المزيد منه، للأرض انتقامها المعاكس، وللآهِ حين تعلو من قلب بشري "حوبة"، وللنظرة الـ ترتجي حكماً كونياً عادلاً/ عاجلاً: رهانها المكتسب من دون أدنى شك.

لا حلٌّ أصيل إلاّ بممارسة الغفران.

بالدعاء الحقيقي لأنفسنا لتطوّر أعلى وللآخر الذي أذانا، لحيادٍ أكبر، مع تركِ مسافة مناسبة/كافية بيننا وبينهم، وهذا ما كان. إنني خلصتُ إلى عبثيّة انتظارنا للإنصاف من قِبَلِ إنسان آخر يقف على الضفاف البعيدة، إنها الحماقة بعينها أن أتوقّع العدالة وكلمة الحق من آخر مشتبك [مثلنا تماماً] بالآثام. لذلك قررتُ، منذ فطنتُ للعبة القدرية الجادّة تلك [ولو بجزء قليل] التي تعني الحياة، بأن كلّ دورة حياتية هي في الواقع خاصة بي وحدي بمقدار ٨٠٪ تقريباً، بينما تخصّ بقيّتها دوري أنا في مساعدة الآخرين لاستمرار "تعلّمهم/ تعلّمنا" الشخصي المتبادل.

وبدون التجربة والمرور بكلّ الضّيق، لم تكن شبه التجربة توجعنا/ تترك آثارها علينا، أو حتى تحرّك البِرَكْ الساكنة التي نغطسُ أقدامنا فيها. إننا كي نستوعب الحياة، يهمّنا أن تظل رؤوسنا واعية لكل ما نفعل، وهنا تكمن الفروق بين بني البشر.

أفكّر أحيانا، كيف يمكنني [أنا الفقيرة للوعي] التّربيتُ على البلدان المأزومة بالتعب؟

على وطني/ الكويت حين تبتئس من الإهمال والتقصير والأذى؟ على لبنان حين تعبث بها أيادي الغرباء فتنتهك ألفته وحيويته؟ على مصر حين تتنازعها الحاجات وتفتر زهوتها؟ على سوريا التي شوّهها المخاض الطويل والتطبيب الغائب؟ كيف نهوّن على الكرة الأرضية سقمها الطويل/ المتتالي عبر إطلاقها براكينها واعصاراتها وهزّاتها العنيفة وفيضاناتها كي ننتبه. ولا نفعل؟

الدم حين ينزّ كثيفاً، تتحجّر العقول أكثر، فتطالب بالمزيد منه ولا تنتهي المذابح المنتقمة.

ننشغل عن كل ذلك الخراب الذي تنتجه أرواحنا [الموبوءة] ثم نشكو لله ضعف حيلتنا، ولكن فيمَ ينشغل أغلبنا؟

إننا ننشغل بكل ما يزيد الكون هشاشة وفوضى، إذ كلما تساءلت: كيف يسمح الإنسان لنفسه بالتقهقر هكذا بعد كل ما حقّقته "البشرية" من علوم متقدّمة، وخطوات واسعة لسهولة في التكوّن والنمو؟ كيف يقبل أي منّا أن يكون ليس سوى "دمية" في نزاعات الطوائف والمِلَلْ؟

هل جرّبنا الإنصات للذات، بينما نضعُ "الآخر" المختلف عنّا ضمن قالب لتحديده، ألاَ نشعر بالسّخف؟

ما المشكلة [العظيمة] إذا حاولنا فهم أسباب كراهيتنا للمُختلفين عنّا؟

أين هي المشكلة إذا احتوى بيتنا على صورة، أو رمز مستعار من غير معتقدك [دينك الذي لم تختره في الواقع]؟ صدّقوني، لن يحدث أي شيء"

ولن يحترق الكون ولا في نار "جهنم"، لكننا سنحترق حروباً وموتاً إذا ما سدَدْنا آذاننا/ وعْينا عمّا هو موجود وقائم رغماً عن كرهنا/ عدم اعترافنا / قبولنا.. الحل يسير؛ أن نفتح نوافذ قلوبنا / عقولنا للآخرين كفكرة.

لنجرّب أن "نُصَفِّرْ" إعداداتنا [التي ويا للخَيْبة قد ضبطها غيرنا]، ولنبدأ حملة كنْس منظّمة بالفهم علّنا ننجو من خراب آتٍ، فمصيرنا الجماعيّ مربوط بمصائرنا الفردية أولاً.

لنكن غرباء من جديد، مثل أشجار قرّرت أن تنمو بمفردها، على طريقتها.

لنكن في لحظة الصِّفْر الحيادية ولنبدأ كولادةٍ حُرّةٍ نعالج فيها تقرّحات قديمة.

نحن شعوب وأمم؛ سخّمها الإرث الثقيل، كل ما نحتاجه هو التحوّل نحو الاستنارة الروحية كما ينبغي لها أن تكون.

فالحياة كريمة جداً، وكل ما علينا هو أن نقبل بالتلقّي، فالسرّ، كلّ السر؛ يكمن في عمق الأشياء وعمق الأرواح، فوق الزمان وأعلى من المكان.

44

((البداية لن تكون سهلة أبداً؛ بل في غاية الصعوبة))!

تشي غيفارا

إنَ أول صور الغربة وأعمقها هي حين تنوي نزع بدانيتك، لتستحيل كائناً "مقشورا"/ متخفّفاً.

أنت [حينها] في اللحظة العدمية قبل أن تبدأ رحلتك في الغربة المجتمعية، لكن بها تعود لروحك الأصل/ خطّتك المقدّسة، تجدّد اتحادك بقوى الكون والوعي والانهمار في الفهم ومحاولاته المستمرة، تخلع ترسّبات "البداوة" الفكرية، وتنطلق [كما يجب لروحك] في ملكوت الله [الحقيقي] الذي لم يلمسه إلاّ القلّة وسيسعد هو بذلك.

وغيُك الجديد، وعي يعلن عن نفسه عبر سلوكك معك أولاً ومع الآخرين ثانياً، ومن الطبيعي أنهم سينظرون نحوك بـ عدائية، فأنت "الصوت المعقّد"، "الصوت النقيض"، أو حتى "السّارح في ملكوت العصيان"! لا يهم، فأنت تعيش في وسط بدائيّ [هذه ليست نقيصة]، فكلّ منّا يحمل في جيوبه إرثه "الأعلى" والذي يبدو مُهَيْمناً كنسقٍ مستمرٌ ضدّك/ ضدّنا، لكن كل هذا الذي يُشتّتك الآن، هو في الواقع، بلا قيمة خصوصاً في وغيك المكتشف [مؤخراً].

سيتبع ذلك إعادة| تكفيرك لخروجك من مسلّمات الملّة |أية ملّة أُلصقَتْ بها رغماً عنك|، إذا كنتَ قد لامست بدايات الفهم بصلابة مُريد، فأنت لن تخشى كل تلك "الخَرْبشات" على زجاج انعزالك الرحيم، الوصفة الجيدة هي: اقْبَلهُم جميعاً، اغْفر لهم وتَفَهَّمهم، فتلك "زُضوض" بعيدة المنشأ وإياكَ أن تكرّر مشكلتهم/ مشكلتنا الأصيلة، فهم يرون/ يؤمنون بأن "الحقيقة" ملكهم، فلا تفعل ذلك أبدا.

لأُسِرَّ لكم، إنني حين دخلتُ لعالم مختلف، لم أؤمن بكلّ ما تعثرت به، لم أُسلّم بما توصّلت إليه على هيئة "لِفافة فكرية متكاملة" لقد كنتُ أُعمِلُ العقل والمنطق كي أُحافظ على نقاء الفكرة الجديدة، الحقيقة ليست بيد أحد.

الانتقال عموماً ليس سهلا.

فأن تَخرُج من جُحرٍ إلى كوكب لتصَرُّفَ جنونيّ في عالم مضطرب بالآثام ومنشغل بكيفية التكفير عنها.

إنما كنت قلقة لمعرفة إذا ما كنت قد نجحت بتحقيق القفزة العقلية/ قفزة الوعي والقفزة الأخلاقية؟

انتبهتُ جيداً بأن التغييّر الذي طال مسارات حياتي منذ أواخر العشرينيات مروراً بالثلاثينيات كلها تنبع من الفعل المرتكز على الإرشاد الذاتي. الآن، وأنا أعبر نحو الأربعين، أراني قد تنازلت عن الكثير من التفاصيل الـ كانت تُربك حياتي الصغيرة، وأظنها كانت في الواقع مزدحمة بعدم الاختيار الحر.

التعبير هنا ليس متكلّفاً أبداً.

تذكّروا بأنني تلك الصغيرة المجنونة برفع إصبعها الملعون بالأسئلة المتّسعة على سنواتها، هي من تكتب لكم الآن، لذلك قد تبدو الكلمات/ العبارات وكأنها قد تخطّت الشعور الذي تتبناه، لكننا [هكذا أؤمن] لهذا السبب نمارس الكتابة!

قد يبدو من البلاهة التامّة أن يُسأل الناس عن الجدوى من كتابتهم واستمرارهم فيها، بل حتى السؤال عن الدوافع الكامنة وراء الاعتراف بالتدوين، ثمّة أمور في الحياة لا تحتمل التفسير والشرح، لكن ما كان يربكني أني أستهلك أقلاماً جافّة كثيرة للكتابة [أكثر من ٣ في العمل الواحد]، وورقاً معاد التصنيع لأعرض الحزن والأحداث البعيدة الملتوية بالمدهشات، وما يشغلني لقارئ "عزيز" يترقّب مني [عادة] قصصاً عن بشر غرباء عنه وعني.

لكني أيضاً شخص غريب عنكم، يمكنني أن أروي بعضاً من قصصي أنا التي لا تعرفونها.

إنني [الآن] في العمر الذي يُتبِعُ أصحابه رقم السنوات بابتسامة تتراوح ما بين الفخر والتسليم بالقضاء وسلامة الوصول نحو الاحتضار الطويل، وما يقودني في هذا العمر لا شك مختلف تماماً عمّا كان يدفعني في العشرينات الثلاث السابقات. لقد كنت لفترات طويلة مخلوق تافه بأفكار ثابتة ويقين لعين!

كنتُ [كما أذكر] بأنني ضحوكة جداً/ شقيّة بين الصديقات، لكني أُنزل ستاراً خفياً على تلك الصفات أمام الكبار.

كانت لي مسرّاتي الصغيرة بلا شك، بَصريّة أنا، أتابع بالنظر كل ما يجعل رقبتي تلتف بالفضول، سَمعيّة أحياناً كي أتمكّن من التقاط المُسْتَتر وراء إيماءات الناس التي لا تُخبر بالكثير في العادة.

لقد كبرتُ ليس بالسنوات فقط، بل حتى في الرّحابة اللا متناهية التي تحتويني، ذلك شبه وصول لم يأتِ عبثا.

"ذبابة الشّك" التي ربّيتها صغيرة ومكّنتني من زرع المزيد من بيوض الأسئلة؛ جعلتني أصادقها جيداً، وأتاحت لي فرص الكتابة، إنني في الواقع "أكْتبْني"، أتمنى أن أكون دقيقة/مُقتصدة وواضحة، وليس أصعب من ذلك، وهذا اعتراف.

أثق بأن القدرة على قبض الكلمات والتحكّم بها مَحض خُدعة، كثير من الأحداث فرّتْ من ذاكرتي ولم أنتبه، تفرّ الأشياء لأن العقل يُعْييهِ الاحتفاظ بها، إنه لمنَ المخيف أيضاً أن نحمل كل هذا الكم من الكلمات بداخلنا، الكلمات لا يعنيها أحد، لا يشتّتها خوف، أراها كائنات حيّة جداً، تتفاعل في عقلي، ولا يمكننا التنفس إلاّ بالمساحة الفاصلة بين الكلمات والكلمات!

لا يمكنني ضبط ساعتي البيولوجية على الكتابة كما يدّعي البعض، فلحظات الإلهام لا تأتِ كيفما استدعيتها، فحين يخربش الحزن/ الفرح/

السؤال على جلودنا الرفيعة، أو حين تتدلّى الدهشة من فَم المصائب الـ تأتي إلينا تباعاً ما دمنا على قيد الرحلة، فإنني أكتب .. أكتب.. ولا أنتبه للفائت من الوقت، تُنبّهني أوجاع كفّي وكتفي اليمنى، ويقرصني الجوع الذي أظلّ أُؤجّله بالقهوة والماء والصبر على فيضان الكلام بحبر القلم.

أكتبُ .. أكتبني.. طفلة متمرّدة تختبئ برداء امرأة، سيدة ناهزت الأربعين وما عاد يعنيها أن يتوجّع أحد من هذيانها الورقيّ الذي قد تمزّقه في لحظةِ عدم رضا [وما أكثر تلك اللحظات]!

تمزيق ما أكتب؟

يعني أن ألغي اتفاقي مع خربشاتي، تلك العبارات التي دُوّنَتْ في رأسي بينما أنا وراء مِقْوَد سيارتي صباحاً، أفكاري البِكْر الـ استحالت حبْراً/ جَبْراً للخواطر المشدوهة بالفكرة .

سألني صديقي/ شريك الخلقْ المطبخيّ مصعوقاً بدلالة الدهشة التي وَسَّعَتْ بها عيناه: "هل يحدث أن تمزّقي أوراقك بعد ساعات من الكتابة"؟!

لم أفكر مرّتين: "غالباً، هذا ما يحدث"

هجم عليّ بسؤاله التالي: "ألاَ يوجعك قلبك"؟!

اعترفتُ له بأن "قلمي" هو ما يوجعني إذا ما أبقيتُ عليها كأول اشتعال مبالغ فيه، فنحن دائماً ما نعيد مراقبة مشاعرنا حين تستحيل سَرداً ولا نُعجبُ بها، بل نراها سُخفاً أغلب الأحيان.

نحن نكتب حين نحزن، حين نكتئب لكننا حين نفرح، فإننا نغنّي!

لذا، علينا بعد النّزف الأول ممارسة دور القارئ والتعرّف بنا/ سَردنا في مزاج لم يَمْسَسه أذى، لنقيّم ما جاء وما سيكون بعين غريبة، تُحسن التروّي. تعلّمتُ [ما أزال أتعلّم] بأن الكلمة طاقة مكتنزة بذاتها، قاسية / صلبة/ حاسمة، وعلينا أن نضعها في مكانها المُهيأ لها.

لقد فُتنتُ بـ رَصِّ الحروف بعضه إلى بعضه الآخر منذ الطفولة، كنتُ أقرأ الكلمات بصوت مسموع، واحفظ صوتي على مسجّلة صغيرة وأعيد الإنصات لجَرْسِها الموسيقيّ الفصيح، كبرتُ قليلاً لأكتشف بأني استلذّ بالقراءة وبرسم الحروف بخطٍّ يشبه كثيراً خطَّ أبي و كذلك خطّ جدّي وربما خطّ عمّتي.

إنّ رسم شكل الحروف وراثة، والخطّ الواضح/ الكبير/ الصريح، ينتقل عبر الثقة.

إن كل من ذكرتهم وتتشابه معهم خطوط يدي في الكتابة، تجمعنا الثقة والاعتداد بالنفس، ذلك بلا شك ينعكس على انسياب وجودة رسم القلم على الورق، آمنتُ بأن الكلمات هي الطريقة الأكثر نقاءً والتي من الممكن أن نخدم بها الناس والكون، هي "زكاتنا" عن سلامتنا وعبورنا بكلّ تلك المشاق بـ سلاسة ورأفة ربّانية، فنحن نروي الحكايات ولا نتوب عن فَتْق الحقيقة [لذلك لا أهدر وقتي في قراءة المؤلّفين المخادعين/المراوغين الذين لا يشبهون نصوصهم واقعاً] ..

لقد غامر الشاعر الكويتي "نشمي مهنّا" بالمراهنة على كتاباتي في بداياتها [من دون أن يعرفني] وحاول الاتصال بي ووصل، كما أجرى معي أول حوار صحافيّ موسّع [٢٠٠٠] على صفحات "جريدة الطليعة"[1]، ومن وقتها، وإصداراتي الــ ٩ [حتى اللحظة] رائجة بشكل جيّد.

و "الجيد" هنا هو ما يرضيني، فأنا لستُ ممن يحبّون إشعاعات الشهرة، أمارس عملي/ كتابتي في هدوء وخَلوة، ولا أنتحر على الشاشات ظهوراً، ولا أنتحل صفاتٍ ليست لي، ولا أعصرُ كلاماً مزوّقاً لكي أُعرَفْ.

(1) جريدة الطليعة : من أوائل الصحف المعارضة في الخليج العربي، صدر العدد الأول ١٩٦٢ وهي جريدة أسبوعية تعبّر بالكلمة الحرة وتكرّس للنهج الديموقراطي، توقفت عن الصدور منذ عددها الأخير في مارس ٢٠١٦.

45

البشر مخلوقات مقيتة جداً حين تروّج للشر، وحين تمتلئ بالعُقَدْ المتراكبة، وحين تُنصت لما يعجبها فقط وتتجاهل ما يحدث أمامها كحقيقة، تترك روحها نهباً للوَسخ النفسي، للقذارة البشرية [المفطورين عليها]، للنميمة والمراقبة والنقل والتظاهر لاحقاً .. بالمحبة.

البشر؛ مخلوقات لا تُحتَمَلْ حين لا تبذل مجهوداً كبيراً جداً/صادقاً لإعادة إنتاج أرواحها [أنفسها] من جديد، البشر مخلوقات مُقرفة فعلاً حين تكذب وتنافق وتتودَدْ للساقطين لأجل مصالحها، و"قدّيستي" التي أبجّلها وسيدة الرحمات المتوزّعة بين قلبها وبيننا [أبنائها]، وحبيبة "بابا" وطفلته المدلّلة مذ فتحنا أعيننا على الدنيا، وقنديل الضوء الـ ـيبذل عُصارته كي يعطينا كثيراً ومن دون حساب يرتجى [هذه أهم أخطاء الأمهات]، فالأم عظيمة حين تقنّن قلقها العالي كل الوقت، وحاولت لتعيش "حياتها"، وجاهدت لتجنّ بالفرح من دون أن تشتهيه لأبنائها في لحظة تقطع طُهر بهجتها، هذه "القدّيسة" ما يقلقها تجاهي هو "تلك المخلوقات المقيتة" حين أكتب [بحُرية تامة] ما أفكر به، بحبر غامق وتصريحات لا أهاب الخوض فيها، أُخبرها، بأنني قد بلغت "الأربعين"، وصرتُ منذ مدّة أرى الناس برؤية مختلفة، كأنهم قُصاصات من ورق شفاف تداعبها رياح المصلحة والرغبات، رغم ذلك لا أغضب منها و لا أختنق، فهذا موقفها من الرزانة التي ترتبت حياتها عليها، كما أنني أضع مسافة

بيني وبين "المشوّهة" أرواحهم، ففي التعاطي المباشر أدلق ابتسامتي العظيمة كمفتاح أوليّ للبدء في حوار/ طلب/ سلام، أو مرور عابر، لكني مسلّحة بتجارب خاصة لَعلَّ أهمها القراءة والتأمّل والسّفر العقلي، ثم الكتابة.

تلك التي أمارسها بجدّية عامل ينهض صباح كل يوم ولا يرتبك بمزج مقادير الاسمنت بالماء، يعرف بأن طريق "رصّ" جدار يحتاج لجهد بدنيّ وذهنيّ لا ينبغي له أن يُهمل سريعاً، ولا أن يُستخفّ به، ومَلْدوغة بهذه الحقيقة كنتُ ومازلت أبدأ الحَفْر الكتابي، ليس سهلاً أن أنتقي أسماءً حقيقية من شواهد القبور مثلاً، وأن أسرد لنفسي حولها ملاحم خيالية، أبثّ الحياة من جديد في جثث الموتى؛ سَرداً كاذباً، لكنه محبوباً من الناس و ربّ الناس.

إنني "أخْلق" وهذا الفعل مُخيف [يا أمي لو تعرفين] بقدر الرعب الذي يلبسني لمجرّد فكرة تحقّق الالتقاء بأبطال أعمالي في شوارع المدن، نحن نُنشئ عالماً موازياً في الوقت الذي يشاركنا على هذه الأرض أناسٌ يهدرون الأوقات في لعن الحياة! وللحقيقة أقول: إن اتخاذ الحياة على مَحْمل الجدّ يسبب لنا تشنّجات متفرّقة [أكثر من قلقك الدائم يا أمي مما أكتب] .

إنّ الكتابة تُسقطنا في الكآبة لأيام طويلة في كبسولة برائحة الكسل وإعادة النظر والتفكّر الطويل [أحيانا] حتى نصحو ونحن نرجّ الهواء ونعاود "الخَلْق"!

ولأن الكتابة [قبلها القراءة] الفعل الذي يعيدنا نحو التوازن الإنساني الذي بدأنا منذ سنوات بفقده ضمن مفقودات كثيرة تذهب ولا تجيء، فإنني في كلّ مرّة استحسن استدعاء تلك القشعريرة الــ تلامس خدود دهشتي حين أتصادف ومعرفة جديدة ملموسة في كتاب ما، أستحيل طفلة بعينين زائغتين بالالتماع والكشف.

أنتبه إلى أنني ما أزال أتعلّم فلا أغيب في مَوَات الاستهلاك والاعتياد اليومي، فالمديح الإلكتروني، مثلاً، خداع محض، والبشر تحيله لمقدّس لا مفهوم بسبب اعتيادها على تعاطي الكذبات المنمقة فيه، ولا تدرك درجات إدمانها عليه إلاّ بعد فوات الانتباه، البشر استمرؤوا التكرار/الاستمرار/الإصرار على/في كل شيء، الّتِي نظرة على ملامحك الآن؟ كم شخص في مجتمعك [على الأقل] يحمل تفاصيلك ذاتها، أو تحمل أنت هيئته، فلا فرق، فكل ذائقتك ما عادت تخصّك فعلياً، لن يتذكّرك أحد إن مَرَرت بالشارع، فأنت تشبه ثلاثة أرباع أفراد مجتمعك!

نجح الفشل في سحبك نحوه.

مع ذلك أرى/ نرى في معارض الكُتُب أعدادكم المهولة لاقتناء الكتب بأرقام جيدة، فهل تقرؤون فعلاً؟

لو كنتم تفعلون لتغيّرتم.

نحن لسنا أولئك الذين تطلقون عليهم "المُعقّدة أرواحهم"، بل نحن من نمقتُ اللحاق بكلّ بريق وقتيّ يحيلنا نحو البشاعة. مع ذلك، ما تزال لدينا توقّعات إيجابية نحو القرّاء.

46

بعض الذكرى تُفتّقها الرائحة.

تهجم على غرف التخزين العقلية البعيدة، تحثّنا على استدعاء الصور القابعة في خلاصات الشعور الــ جاهَدَتْ طويلاً كي تخبّئها/ تُداريها منذ سنوات جَرَحَتْ تجاربها مكامن التلقّي عندنا/ عندك.

فأين يمكنني الاختباء منيّ حين ينتثر في الهواء [من دون استعداد] عطر قديم لتتكوّن صورة "هولوغراميّة" لأبلة "فاطمة" والأرقام تشيّع خطوتها هاربة من منهج الرياضيات، سلاسل يدها تلتمع حول معصمها وتتراقص مع بريق ساعتها، واسْمرار ساعدها الـ ينتهي بالقلم الأحمر الساطع، الذي كان يعدّل أخطاء حساباتي البدائية، ودفتري ساحة نزاع ملوّنه بين الحيرة والفهم والخجل منها حين تسحب خصلةً من شعري مؤنّبةً بكلمة عتاب مُخفّفة، بكويتيّةٍ مُحبّبة: "يا الهِيسَة"!

كانت الرياضيات عُقْدتي منذ التلمذة.

ماكنتُ أستوعب الذكاء المطلوب لإنهاء مسائلها [غير المنطقية] بالنسبة لي!

وتلك الزميلة الضخمة الجسد "آمنة"، بشعرها المفروق من المنتصف، المنتهية أطرافه إلى جديلتين سميكتين تشبهان حبلا من "البلاستيك"، صاحبة الرأس الكبيرة التي تسبق حتى المعلّمة في حساب المسائل والانتهاء من

نعقيدها، لتتحرّك من مقعدها في آخر الفصل متجهة نحو مكتب "أبلة فو... أول الفصل، بينما تطلّ على دفتري الباهت بالحيرة، وتسألني بعينيها ... الرموش وفمها الواسع: "للحين ما خلصتي"؟!

لقد أدخلتني "ماما" المدرسة مبكراً.

كنتُ في الصف الأول الابتدائي في سنّ خمس سنوات ونصف. و... شهور كفيلة بتعطيل الفهم حتى أتمكن من اللحاق بـ ركب السن التي تتناسب و فهم المعضلات، وبل وحتى اكتمال نهايات رؤوس الأصابع لتتمكن من إتقان الإمساك بالقلم . [درست هذا جيدا في علم نفس النمو ضمن منهج الجامعة وبعد فوات الأوان].

الرياضيات ما تبقى منها، رائحة عطر أبلة "فاطمة" وكلمتها : "يا الهَيْبَه".. لا أكثر!

الروائح مخازن للذكرى، فكيف لا أستحضر "الفرح" كله إذا ما تصادفَتْ مُستقبلاتُ أنفي ومزيج من "بخور وقهوة وهيلْ" في آن واحد؟ كيف يمكن تجاوز ضَغْطة الروح والآه المصلوبة على باب التذكّر إذا ما مررتُ بعبق "الكاز" الـ يعكّر صفو الأمان؟ لقد كانت إحدى مهمّاتي اليومية تعبئة ثلاثة فوانيس بدائيّة خلال حرب عمرنا الطّري.

لكنها السكينة حين تتمدّد في النفس، يوم يتلقّفني عبق الروائح الشهية لطبخ والدتي، فطبخها لا يشبه آخر، بل حتى لا يُشبه ابتكاراتي في الطهي [الذي أهواه جدا]، والتي يُحبها رفيقي ويُثني عليها دوماً.

الروائح تولّد الاستدعاءات كالنحل في رأسي.. كنا نجتمع أسفل شجرة نخيل محمّلة بالطّلع الطازج، في نهايات نيسان ٢٠٠٦، ورائحة اللقاح عطريّة تدفعها الريح الناعمة نحونا بحنيّة خالصة، في منزل يعود لـ ستينيات القرن العشرين، حولّته الدولة لـ "رابطة" تجمع الأدباء والكتّاب منذ ١٩٦٤ وحتى الآن، كنا مجتمعين من دون خطة في وقت المغرب نتبادل قراءاتنا / كتاباتنا الإبداعية حين هبط سؤال لزميلنا الصحافي مسجّلاً:

"في هذا الغليان السياسي الذي تعيشه الكويت هذه الأيام، والتحرّكات الداعية لإعادة تنظيم الدوائر الانتخابية والدعوة لتقليصها عبر التظاهرات، هل من دور فاعل/مشترك للمبدع الكويتي في هذا الحراك السياسي"؟

كنّا حينها ثمانية أشخاص، نجتمع أسفل النخلة المعطّرة باللقاح، دار تسجيل الكاسيت [آنذاك] بيننا بشكل دائريّ، أدلى السبعة المبشّرين بالطاعة بآرائهم المتطابقة بالنفي، قبلي، وحين تلقّفت جهاز التسجيل سألت جواباً: "ما المبدع إذن، وما دوره إذا لم يُشِر نحو الفساد؟ إنني أتظاهر مع المتظاهرين.. وهذا أحد أدواري كما أُؤمن".

منذها، كنتُ ورفيقي في مظاهرات رافضة، لأننا نقدّم أسماءنا كمبدعين، ونصوغ بيانات تقول "لا" كبيرة، ولا يهمّنا حين "تفرزنا" الصفحات الثقافية ضمن إطار خارجيّ/ مختلف/ شاذّ/ معزول عن بقية الآراء المُطيعة/ المهادنة، فالرؤى والمواقف خاصة جداً، تشبهنا وتمثّل قناعاتنا.

لقد تعلّمت على مدى السنوات [منذ ٢٠٠٨] أن أجيب على أسئلة الصحافة بما أريد أنا قوله، ولا أكترث للسمّ المدسوس فيها ممن يطرحها، واكتشفت بعد تجارب عدّة بأن الصحافي لا ينتبه [جيداً] في العادة، وبأن المقابلات

الصحافية هي نوافذ تصريحات رهيبة وذكية لمن يُحسن استخدامها، لكل القرّاء الـ يُتقنون الْتقاط المعاني، [بما فيهم السّلطة لو أرادتْ] .

نحن كأفراد/بشر مسؤولين تماماً عن الفوضى الدائرة فوق الكرة الأرضية عبر سلوكنا، وكذلك نحن كـ كتّاب منذورة حواسنا كلها للمشاركة في تغيير العالم المحترق بنقص المحاولات الساعية للتهدئة، لتحويل هذه الأرض لمكان أكثر أماناً ووداعة.. نقول ما نراه صحيحاً، كي لا نظل ندور مع الدهماء في عجلات الصمت البائسة، ولا نمارس إلاّ الدعاء استجداءً لرحمات الله كل الوقت، بلا طائل.

قلنا ولا نزال. لقد أنفقنا من أصواتنا الكثير.

أحيانا أشعر وكأنني أنفقُ من صوتي ما يوازي عمري كاملاً، كلها حوارات مع النفس، وحوارات مع الغير، مع من يلجئون إلينا بوصفنا مثقّفين! لكن أجمل ما أنفقناه من أصواتنا هو ما تلوّناه عبر بيانات رافضة/معارضة، وحوارات تهزّ الفهم الذي يتحوّل من بعدها، تلك حوارات ربّانية لا تستنزفنا بل تُستثمَرْ في الناس لدائرة أكثر رحابة.

لأننا نمارس الحياة عبر الإبداع، هو ما نحترف، وهو ما يداوينا، نتقاسم بصدق كل مخاوفنا المشتركة، كل انفعالاتنا الوقْتيّة و كل القلق اللامُنْتهي، بالتحاور نحن نُنْزِل الجبل الثقيل عن كاهل السؤال على طاولة التشريح الجماعية، ذلك يخفّف الرهبة حين التأمل والمواجهة المفضية لحلّ العوالق والمشكلات.

لكن من يقبل أن يتركك لتمارس حرّيتك كيفما تحب وتنوي من دون قيود تخنقك؟

من يسمح أن نسميَ الأشياء بأسمائها البِكْر، أو حتى تلك المنحوتة حديثاً، أو أن نُعلِنْ عدم هضمك لعبارة تجيء محمّلةً بالقداسة رغماً عنك؟ أو من يفهم بأن علاقتك مع "إلهك" رأسية [تخصّك وحدك] بينما علاقتنا مع بعضنا أفقية؟ [المعبود ليس طرفاً فيها]، إنهم لن يدعونك وشأنك.

في سؤال عابر سألني صحافي عن ماهية الكتابة بالنسبة لي، فأجبته: "إنها صلاتي فهل يكفيك هذا الوصف"؟

لم ينشر عبارتي تلك، لأنه يهاب المغامرة بها.

الخوف، منبع كل الشرور.

أتذكر بأن أحلى سنوات أعمارنا ضاعت في الخوف، لأنكم كـ مجتمع، بقيتم تخشونهم [حرّاس الدين واليقين]، يربككم مجرّد انتقادهم على اعتبارات دفينة تَعَشْعش في وعيكم كونهم يمتلكون الحقيقة ما داموا "ملتزمين"، تقبلون بتسمية حُرّياتكم/ حُرّياتنا "خطوطاً حمراء" وتتنازلون عنها تماماً في مواقف أصيلة تخصّكم؛ كي لا يهيجوا من حقوقكم الواضحة.

لا شيء سوى الخوف والصمت يوم أُلغيَتْ بقرار "خائف" تلك الحفلات الموسيقية، وجفّت منابع الفرح والفنون في وطننا، يوم شُطِبَتْ دروس الموسيقى من جداول مناهج أبنائكم، يوم خرجت المخيّمات الدعويّة بأفكار تُذكي حرارة العطلات الصيفية بمزيد من الشّرار المتحقّق والتي تلطّفها مسميات كـ "السلام" و"الإصلاح"، يوم طبّقوا "منع التعليم المشترك" وخلطوا المعاني النبيلة بالرذيلة، وأرهقوا خزانة الدولة بالفصل المريض في كل الزوايا والشوارع، لقد حاربوا المشاركة الفِطرية ولم يتحرّك أحد.

توغَلوا عميقاً حتى نهايات وعيكم وما وراءه، فساهمتم بإيصالهم لمراكز الوصاية عليكم [البرلمان] وعاثوا بما تبقّى فساداً بدعوى التقوى، نما الغول، كبر جداً، فتح فمهُ ونَفَثَ النار حتى على أفكارنا التي يحاربها أبناؤهم "الشرعيّين" النامية سلطاتهم على بوّابات الإعلام والتلقّي، لأنهم "رُقباء" على أذهاننا الـ يتعبها إثبات المستحيل من فم اللحظة السحر.

يؤسفني مصارحتكم بأن المتورّطين ذهنياً بالعقائد، قد أحكمُوا قبضتهم عليكم جيداً، بينما تنتظرون شيئين اثنين، أن ندافع نحن عنكم، وأن تنالوا "هداياكم" الخيالية على شكل ملذات ساذجة آخر المطاف [الجنة].

لقد صرنا نعيش في تربّص إنسانيّ عنيف كل الوقت.

ترقّب ساكت في العيون، أذى سلطويّ ماضٍ بكسرنا بلا هوادة، يرتبك بداخلنا حتى الحب المزروع لك يا وطني.

47

((ما يؤلم الإنسان هو أن يموت على يد من يقاتل لأجلهم)).

تشي جيفارا

أسمّي الأوقات تلك التي أُقضيها في معتزلي، بينما أُشكّل من الحروف شوكة كبيرة مدبّبة "تنغرس" في الخاصرة، شوكتي" الحُروفية" لا تريّح السلطات ولا الرُّقباء ولا مجانين الخوف الأبديّ من الكلام الصريح، حبري غامق يصل لما وراء الرهبة، ولا أكترث، أنعزل/ ننعزل [وهذا اختيارنا الخاص] وهذا يشبه أن نعيش في فقّاعة هوائية رحيمة، وحدة مريحة وعميقة جداً أكثر من وحدة منبوذ سياسيّ.

إن صراعنا المتواصل [وإنْ كان صراعاً خفياً لا يؤذي أحداً] الطامح/ الطامع بالعزلة الاختيارية، والتي يجدّدها في كل مرّة/ حلقة عابرة من مسلسل الطفولة الأثير "روبنسون كروزو" والذي تعلّمنا منه كيفية التخفّف من الاحتياج لكماليات يمكننا التخلي عنها، بمُعينات بدائية. العزلة؛ هي قدرتنا أن نكون في مكاننا الخاص جداً ليكون فعل الكتابة/ القراءة/ التأمل/ التعلّم [كلها لا تنقطع ولا تهدأ] هو المعادل الرحيم لهذه النزعة الملحّة جدا.

إنني كلما عاودت شحن روحي كي أبدأ بياناً جديداً، انعزالاً/ ابتعاداً/ هرباً.. تخيّلت بأنني أصعد لما يشبه "بيت الشجرة"، البيت الغافي/ المتواري بين

الأشجار الكثّة، في الواقع أنا هناك، في أعلى نقطة في البناية العالية جداً التي نسكنها و"مختبئين" بشكلٍ حقيقيّ بين العمارات الشبيهة ببعضها، متوحدين مع ذواتنا في مكاننا/ مكمننا السريّ، ننحت كلاماً كي يتمكّن الناس من قراءته، كل الناس، أو بعضهم، لا يهم.

قال لي رفيقي يوماً: "هذه شعوبٌ وُلدَتْ لتفكّر بنهاياتها والهدايا التي ستجنيها من الغيب، نحن حين ننعزل إنما نفعل لنقدّم عطايانا الأرضية لأجل الغير ولا نعبأ بما سيكون، لأن الثقة متوافرة، والثقة تسمح بالهناءة والرضا".

لقد تغيّر مذاق تقبّلي للحياة كونها لا تعني الآن أكثر من مجرّد فكرة في الذهن. ومع ذلك، فلكلّ فكرة مبرّرها الخاص الذي يُذكيها ويبقيها على قيد التحقّق والاستمرار.

وأنا في الأربعين؛ رقمٌ معتكرٌ على التجارب، ينوي الانصهار بالمزيد منها، ما أهم ما أركّز عليه؟

هو كيفية قضاء أيامنا، نحن نرتّبها كيفما نشتهي، تقضي أغلبها في بيتنا الصغير، غالباً ما نتحاشى الخروج من عزلتنا، فأفترش طاولتي لنكش شَعْر السّرد الغافي في ملفّات تحفظه، نقرأ الكثير من الكتب التي لا تلفتكم ولا يوصى بها على مواقع الاستهلاك الثقافي، لستُ أقرأ ما تقرؤون، أعترف لكم بأن أي كتاب حَظِيَ بالضوء الساطع لم يلامس رفوف مكتبتنا، وهذا لا يغيّر من موقفي بالتصريح العلني تجاه الرداءة التي يروّج لها عبر أي منتجات كانت، فلستُ من أولئك الذين يخشون على صورهم أمام الناس، عادةً ما أترك كل شيء لتقييمهم الشخصي [الذي لا يعنيني] ما يربطني بالقرّاء هو ثماري المطبوعة ومدى التقائها بسلوكي الشخصي بالتوازي، إنني لا أُخادع قارئي، وهذا جُلّ ما يهمني.

ثمة أيام يَمْتَقِعُ فيها خاطري.

البسُ الاكتئاب معطفاً ثقيلاً على كتفي، وبالكاد أسحبُ أيامي سَحْباً، لكن كيف لي الهرب من أيام "العزاء" الداخلي تلك؟ كنتُ قد تعلّمت من رفيقي أن أُكيِّفَ لذاتي "رَوابِط" سريّة لاستخدامها متى ما استغلقَتْ عليّ مصادر البهجة، روابطي الصغيرة؛ ذهنية.

روابطي سحريّة، هكذا أُطلق عليها.

أُغمض عينيّ، أبصرُ في السّديم، أمتع الأشياء التي هزّت القلب يوم حدثت لي، وأحدثتْ [يومها] فَرَقاً شعوريا عالياً، أتركُ لنفسي فسحة إعادة التجوّل في دهاليز الفرح، إنه معالجة وهرب رحيم للتّملّص من كلّ متعِبات الناس وجحيم الكتابة وما يتفرّع من ممارسة الحياة.

أحياناً، يتّخذ الهرب شكلاً آخر للكتابة [وليس منها فكاك]، وأعالج الأعراض المدمّرة للروح بالمراسلات البريدية الكلاسيكية، وهذا ما يردّني للإنسان الطبيعي بداخلي. لقد كانت أول رسائلي البريدية في يناير [١٩٩١]، كانت جواباً على رسالة بعثتها إليّ جارتي الصغيرة/ صديقتي "نوسة"، التي تصغرني بأربعة أعوام، هرّبَتْ رسالتها رفقة أحد المتسلّلين برّاً باتجاه الكويت المحتلة، كتبت إليّ تسألُ عن "بيتهم" الـ يقابل بيتنا تماماً [هديّة/ جنوب الكويت]، بيتهم الذي شهد يوماً "مقاومتنا اليافعة" قبل أن يتركوه للسفر نحو السعودية، كنتُ جيّدة في الطباعة على الآلة الكاتبة، فأعدنا تحضير منشورات معارِضة كانت قد وصلت إلينا بعدد قليل، تلك المنشورات تحمل دعوة للتكبير من أسطح المنازل كموقفٍ مدنيّ معارض/ رافض للاحتلال، طُبعَتْ المنشورات في بيت "نوسة" من دون علم الكبار على الآلة الكاتبة، ثم نُسخت على آلة

ناسخة مائتي ورقة في بيت آخر كان يحتوي على الجهاز المخبّئ أسفل أكوام من الأثاث، قمنا بذلك بعد عمليات بدائية في الإخراج الصحافي لتثبيت صور "رموز" الدولة على رأس الورقة/ المنشور، بعيداً عن عيون الكبار!

المهمة التالية كانت الأخطر، نقل الـ ٢٠٠ نسخة من دون أن يلحظنا أفراد الجيش المحتل المنتشر في حيّنا الطويل، الشارع الثالث من القطعة الثالثة، فتاتان صغيرتان كنا ندسّ المنشورات أسفل ملابسنا القُطنية، التي تغطّيها عباءات سوداء تلك التي سترتْ مراهقتنا النامية للتو [لقد سترت حزمة المنشورات التي تفضي إلى الإعدام] استلمتها أيادي الفتيان لتدسّها من جديد بين أقراص الخبز - منزلية الصنع - ليعاد توزيعها بعد ثلاث دقّات [لا تُفزع الصامدين] على أبواب المنازل.

في رسالتها، تسألني [رفيقة المنشورات] بعد خروجهم من الكويت : "كيف هو بيتنا، هل دمّره الجنود"؟

ضحكتُ طويلاً من أنفي، أسندتُ رأسي على الشباك المَخمي بسجّادة ومتاريس بَيْتِيَة الصنع، كنتُ أقرأ بلا شك رسالة مُترفة استخدمَتْ رفيقتي فيها أقلاماً ملوّنة بروائح الفواكه التي نسينا نكهاتها، لقد كتبتْ أسئلتها من مكانها الآمن هناك، تسأل بمشروعية وتتفقّد بيتهم، وهي لا تعلم بأني صرتُ أُصاب بالأرق ولم أعرف ما اسمه، وبأن جانب بطني الأيمن ينتفخ بالألم ولا أدري بأنه "القولون العصبيّ"، كنتُ مراهقة بينما شعوري تجاوز الثلاثين [حينها]، أمسكتُ بقلم وحيد، بدأتُ الكتابة إليها على وهج الشمعة الملتوية العنق، تذوب سريعاً في الصحن فجراً: "يا صديقتي، بيتكم بيتنا، بل بيوت الكويت كلها في عهدة الله، نحن بلا كهرباء ولا ماء ولا أمن، نحن لا نخرج من البيوت إلا

خفية، تعبنا من التعب ومن الانتظار، وأيامنا قهر متّصل، كرهت اللون الأخضر، وضقتُ من الظلام، نعيش لأننا ننتظر الخلاص، أنا كبرت كثيراً، ومع ذلك أغنّي للكويت بعد الاستماع للأخبار كل الوقت ولا أخاف، ربما نلتقي إذا لم نمت في الحرب."

كانت تلك أول رسائلي البريدية.

بعد سنواتٍ، بحثتُ بين الوجوه الطامحة بالتعارف في مجلة ما، فكانت صديقة من مصر، من قلب القاهرة، تبادلنا قلوباً ورديّة مطرّزة بالأمنيات المتشابكة، اشتهاءات قد لا تتحقق، ظللنا نتراسل لأكثر من سنتين حتى انشغلت كل منا بشهادة الثانوية العامة، وضاع ترف الوقت الفائض لتبادل الكلام، وانتهى كل ذلك.

بعد الثانوية وبنجاح، فرّقتنا البعثات الدراسية "إيمان" وأنا [صديقتي منذ الصفّ الأول الابتدائي]، كانت قد اختارت استكمال الدراسة العليا خارج الكويت، وخطّ "المكاتيب" شوق لا ينقطع بيني وبينها في "برايتون" الإنكليزية، سنة واحدة حتى آذاها الحنين للبلاد، تركت كل شيء وراءها وعادت لشمس الكويت واستكملت نيل شهادتها في الحقوق.

تبْتُ عن الحكي المنقّش بالأخبار، لكني لم أفقد شغفي بالتطريز اللفظي ولذّة توديع المظروف بعد دَمْغه بحبر يحمل قيمة الرسوم والتاريخ، ولا رعشة إسقاطه في فَم الصندوق الأزرق مع تلويحة! لكن، هناك بعض الرسائل الـ تأتينا بتحويل لمسارات حياتنا من دون انتظار، أو سعي باتجاهها أصلاً.

كان مبهراً أن تصل رسالتي المتأخرة جداً لشخص قابلته عَرَضياً خلال ساعات عملي يوم قدّمني إليه مديري المباشر، لصديقه الزائر، أومأتُ مرحّبةً،

كانت دقائق ثلاث فقط، استلمتُ منه بطاقة التعريف الشخصية، وعليها عناوينه في السعودية، انتظاراً لاستلام إصداري القصصي [الأول] الذي حكى له عنه مديري الفخور بي [آنذاك].

كانت الدقائق الثلاث وقوفاً، والبطاقة بين كفيّ وقد دوّنت عليها الآتي [نسخة من «عبث» بالبريد المرفق] ثم سلاماً آخراً/ أخيراً، وانتهى المشهد/ اللقاء. لأربعة شهور نسيت أمر البطاقة الممهورة باسم الشخص الغريب الذي صادفته عَرَضاً، شهقتُ ولعنتُ نسياني الذي سيظنّه ذلك الإنسان تكبّراً، أو وعداً باطلاً [لا أحب الوعود التي تطلق في الهواء وتُنسى]، من فوري، كتبت بيدي رسالة طويلة كلها اعتذارات، رسالتي صادقة جداً، واحتجت لخمس أو ست صفحات لتعويض نسياني وتأخّري. طويت الرسالة رفقة نسخة من كتابي الأول «عبث» وطارت البَعيثة الصغيرة المؤرّخة بـ ٢٠٠٢ مكلّلة بالخير.

لكن رسالتي وصلت متأخّرة، وحطّت بين يدي صاحبها في وقت مرتبك باللاوضوح، لقد جاءني الردّ عبر ظرف كبير يحمل رسالة أطول من رسالتي، أخبرني فيها بأنه سيكون في التاريخ المدوّن في أمريكا لعلاجٍ عاجل، والطريقة المثلى للتواصل ستكون البريد الإلكتروني.

ضيقٌ تعاطف في قلبي، خاطرٌ جالَ في روحي و«يا الله».. لِمَ تحشرني دائماً في المنطقة الفاصلة بين التعب والصحة؟ بين الترقّب والقلق؟

كان لقاء ثلاث دقائق، كل ما أسّس لما جاء بعده، من علاقة «نبيلة» جداً بين صديقي «حمد» وبيني.

استجمعتُ شتات بدائيتي التي كانت وما تزال.

جلستُ أمام جهاز الحاسوب للبدء بكتابة أول رسائلي الالكترونية بيننا، كان ملمس المفاتيح بارداً ومربكاً، كتبت بالإنكليزية، ثم تكاتبنا بالعربية، طويلاً وعميقاً، كنا نمرّر اللهجاتِ الكويتية والسعودية بين الحزن والضحك، بين الاعتراف والقلق، بين الأخبار البعيدة على الجانبين النقيضين، كنا على ضفتي الليل والنهار سؤالاً وجواباً، فرق التوقيت مكّنني من التريّث في الكتابة، وساعدنا على وضع ملفّات أوجاعنا في حقائب بعضنا؛ منتظرين حبراً سرياً لإنبات الأمل/ الفرح والعلاج، لقاء الدقائق الثلاث بين غريبين لم يكن عابراً أبدا، كان من ضمن حزْمة لقاءات مقدّسة مررتُ بها خلال حياتي.

بعد مرور سنة ونصف، شُفي «حمد»، وشفيت أنا على التوازي من كدماتٍ داخلية ما كنت منتبهة لها. بعد تواصل طويل ورسائل لا تعدّ وهدايا مهولة العدد، فقد كنتُ محسودة من بائعات المتاجر في «منيسوتا» حين تسألنه:

« هذه الهدايا، بلا شك، لصديقتك»

يرد: «بل لصديقة قابلتها لمرة واحدة لثلاث دقائق فقط»!

صار «حمد» صديقاً لأسرتي الصغيرة، زارنا بعد الشفاء في بيتنا في الكويت بدعوة من والديّ، التقينا من جديد لمدة أطول من تلك الدقائق التي غيّرت مجرى الإصابات نحو التعافي.

مؤمنة أنا بأننا قد خُلقنا لمساعدة بعضنا عبر هكذا علاقات رحيمة، نحن في الواقع نمدّ أكفنا لتجاوز آلامنا والوقوف من جديد، لا يهم ما يحدث بعدها، فنحن نوقَدُ لهذه الولادات الجديدة لمهمّات معينة.

48

انقطعتُ عن الكتابة والتذكر والاستدعاء من «صندوقي» ما يقارب الثلاثة أشهر متواصلة، أعدتُ قراءة ما كتبته هنا [كانت المسوَدة الأولى تماماً نصف العمل بخطِّ يدي، والنصف الآخر مطبوع لمسوّدة على جهاز الكمبيوتر الخاص. ضَجِرةً كنتُ يومها، بحلقتُ بسقف مكاني طويلاً، وفي خاطري سؤال يترنّح، يتوارى عن الإجابة:

هل وصل قارئي حتى هذه الصفحة بشغفٍ دافق؟ أتراه سينتهي من قراءة هذا الكتاب لمرة واحدة؟

بعض الكتب تحتاج لإعادة إحياء بمزيد من القراءات على فترات متقطّعة، وقد نَحِنُّ / نشتاقُ لكتابٍ معيّنٍ دون غيره، فقط لأنه زرع في لا وعينا بذرة نور غريبة علينا، وقد يرتقي الوعي بالأشياء [لاحقاً] أكثر، فنعاود البحث عن كتاب عبرناه في غير موعده علّنا نجد معانٍ كامنة مختلفة لإجابات نصف محتملة/ شبه ناقصة.

شخصياً، حدث ذلك لي كثيراً، قبل العشرية الرابعة [٣٠ سنة وما حولها]، عبرتُ بعض الكتب سريعاً من دون وعي كافٍ بها، ألامس ما توصّلت إليه وأتجاوز بقية الهجمات التوعوية فيها، متجاهلةً لنقص الفهم، لكنني كنتُ أعود، لا بد أن نعود يوماً بتجربة أقسى للفهم.

حتى صرتُ مفتونة بالفهم المتجدّد، وأُثاز من تراكيب الكلام الغريبة، لستُ بـ «نبيّة» ولا أريد أن أكون، لكن الزمن يحتاج لمفاهيم أعلى وأوسع للوصول، فرحي نادر لأنني أفهم ما سيجيء بعده، حزني كله امتنان لأنه لا بد أن يأتيني بالخيرات، كل ذلك الإيمان [المبسّط] لا يحتاج مني إلى صَلْبِ ذاتي في الطقوس العبادات الدينية الشاقّة التي تشدّ البشرية من نهايات أعصابهم من دون راحة حقيقية، أو شعور باليقين. لقد كنت في حوار طويل مع إحدى معلّماتي الروحانيات/ إحدى الأرواح الشبيهة، سألتها: «ماذا عن الصلاة»؟

قالت: «يصلي الناس عادة لكي يطلبوا من الله شيئاً، والله بغنىً تام عن أن نخبره باحتياجاتنا، فهو لا يغادرنا، إلاّ إذا سُدَتْ مستقبلات الانتباه لدينا».

والقلق بشأن الآخرين يسّدها ويستهلك الرحمة في قلوبنا.

لكن، كيف تبدو الحياة التي نريد؟

نمارسها كما يجب، كما نحب، لا كما يريدها الآخر، لقد غيّرت «نَصْفيف» شعري نحو الأقصر جداً، نحو الأكثر حِبيّة وسهولة وتنازلت عن «تاج» الخدعة، وبدّلت أرديتي نحو القطن الفضفاض الأكثر سلاماً مع البدن، خفَفتُ السماكة التي كنتُ أتمترس وراءها من تصلّبِ لآرائي؛ رحمة بآلام كتفي التي كانت وزالت، الأهم؛ أنني قلَصت دوائر صداقاتي نحو النُدرة، نحو الأرواح الشبيهة فقط، واندمجت بلذائذ الأرض ومنتجاتها البكر في طعامي/ طعامنا، الطعام الأكثر رأفة بالجسد والروح.

خفَفتُ من مستوى قلقي على الأشياء التي كنتُ أظنها [السوء تقديري] حقيقية لا تقبل التهاون.

أراني كلما كبرتُ في التجارب، قد تخفّفتُ من الكثير، أزهد بالفخامة والرّتوش التي بلا معنى، بالقيل والقال وبالنزهات المعلّبة وبالاستهلاك المحض، وبإعادة الكلام عن أصدقاء قدامى صاروا في عداد الموتى في ذاكرتي، صارت فترات تأملي تطول، وأفهم سبب قرصات الأذن الـ تأتينا على غفلة [على شكل توعك في الصحة أو المزاج].

إننا ما زلنا في مرحلة المضي نحو إنتاج/ إنضاج الحقيقة ولو على أطرافها، ولا يهم كم نقضي من التجارب بغية الوصول [قد لا يتحقّق]، فنحن أحفاد المتعبين على هذه الأرض.

لقد أخبرني صديقي المريد «ربيع» يوماً، بأن تدوين الأحلام اليومية فور الاستيقاظ من النوم وقبل التحرّك الواعي من السرير، أمر بالغ الأهمية، ذلك أن تسلسل الأحلام عبر التدوين يرسم لنا خطوطاً صافية لمعيناتٍ تخصّنا في هذه الحياة، مفاتيح أسئلتنا المقفلة على الغيب، تقودنا من منتصف لا وعينا [خلال النوم] لتسلّمنا للوعي بخارطة مؤجّلة قليلاً.

يظنّ بعض الناس بأن التحوّلات القاسية إنما هي «عقاب ربّاني» مستحق، وعليه، تظلّ رؤيتهم للحياة من الزاوية نفسها [التي عليهم تغييرها تماماً] ويبدؤون بتخمين ما «أغضب الرب» والتكفير عنه سلوكاً خاطئاً لا ينتج لهم سوى المزيد من الارتباك والمعاناة وضياع البوْصلة.

«الربُّ» لا يعاقبنا.

هو مرشدنا الأعلى، وتجاربنا القاسية يضعنا خلالها لمزيد من التغيير لصالحنا الخاص/ العام.

[١٩٨٩]، كنت في سنوات المدرسة المتوسطة، سنواتي تلامس بالكاد الحادية عشرة، وككل الأطفال نميل لتقليد بعضنا، نتعلّم بالمراقبة والانتباه والغِيرة! لقد اعتادت التلميذات على أن يجلبن الشوكولاته في علبتها الدائرية المميزة «الماكنْتوش» لتوزيعها على الجميع فرحاً بسلامة أمهاتهن حين يُنجِبن.

في ذلك العام، كانت أمي حاملاً [بشقيقٍ جديد ثالث] كنتُ فرحة، لا تغيب عن عيني تلك اللقطة الـــ تمكنني من حمل علبة «الماكنتوش» الكبيرة للتوزيع منها على محيط المدرسة، بينما الألسن لا تكفّ تسألني عن اسم المولود وجنسه، لكن الصغير المنتظر كان قد وُلدَ وتوفي بعد يومين أو يزيد، التفاصيل غائبة عن لحظات التذكر الحالية، لكن شعوراً مُلحّاً بـــ خبو أمنيتي الصغيرة بعلبة «ماكنتوش» تمرّر فرحتي بـــ «هاشم» الصغير الذي لم يكن.

أخبرني أبي بأن الصغير صحّته ليست على ما يرام وينام في «الحاضنة» الاصطناعية، قرأت في عينيه سرّاً محزناً، تلقيت شَكَة الوجع في قلبي، لقد أحببتُ ملابس الصغير الجديدة وسريره قبل أن أراه، شغلني للحظات كيف سأجيب على سؤال/ انتظار أخي الأصغر [زيد] الذي ينتظر أمي ومولودها؟

حين ذهبت للمدرسة، زميلتي/ جارتي «فاطمة» تصوّرت بأنها أكثر ذكاءً مني، حاولت تمرير «الفاجعة» عبر خَبَر مُفبرك لصديقة لها فقدَت أختاً كانت قد وُلدت حديثاً، ابتسمت لسذاجة القصة، أخبرتها بأن أمي لم تنجب، لقد انتهى الحدث السعيد.

لقد تعلّمتُ/تدرّبت من وقتها ألاّ أُصرّح بتلك الجُمل الجاهزة للقول على طرف اللسان، لأنها عبارات ميتة، لا تحمل صدقها معها، تعلّمت طويلاً، ألاّ أدّعي ذكائي على غيري بغية إيصال نصيحة، كما جاهدت كي أنصت جيداً، ولا أتبع التأويل لأنه المهلك للعلاقات واستمرارها، لي وجهٌ واحدٌ، معرّقٌ بالمشاعر الواضحة تماماً، هوائي الاتّقاد ويُعرف/ يقرأ منذ أول نظرة؛ وجهي يشبه حَجَر ميلادي، أنا أُشبه «الأوبال».

كما أنني ميّالة من الداخل إلى اتخاذ مواقف حاسمة من الأشياء ومن الناس ومن الوقائع والأحداث، أؤمن بأنني لست مُجبرة فيما يمكنني «الاختيار» فيه، مع ذلك أُقرّ بأخطائي إذا ما ارتكبتها [من دون قصد]، أُصارح ذاتي طويلاً وأسرّ لها بكل ما يحيّرني، لا أهدر مسعاي المستمر للتعلّم الذي ما يزال يسحبني باتجاهه على مهل.

رغم ذلك، فكثيرا ما ينتابني شعور مهيمنٌ باللاجدوى، شيء يشبه الاكتفاء من هذه الحياة، شيء يجاور الشبع ولا يتعدّى التُخمة، وكأنني أعيش في الأبدية حتى لو لم يتجاوز عمري الأربعين. إن هذه التصريحات تُفزع المحيطين، وتنطلق مئات الحَوْقَلات والبسملات، وتُعقد الحواجب..

لقد مررتُ بالكثير حقاً، وما ذكرته/ استذكرته هنا. ليس كل شيء حتم...

لقد نازعتُ طويلاً للتخلص من تقرّحات قلبي التي سبّبها الغير لي. هيّئتُ روحي ببعثٍ جديد، دَهَنتها بزيوت الرضا والصبر. إننا [فعلاً] ما زلنا نحمل «تكلّسات» متأصّلة، نحاول أن نخرج من ضيق ممرّات الدنيا نحو الحياة الحقيقية/ كل الحياة التي لم نشهدها حتى اللحظة. تلك التي كي نصلها علينا أن نظلَّ مُمسكين بطرف المعاني المخفيّة لأهداف وجودنا سوياً. هو أن نتمضمض كل حين بماء الورد، ونستعيذ/ نستعين بالمحبة ونمارس الغفران.

يا قارئي المفترض «العزيز»، افعل ما يُريحك ومارس ما تؤمن به. لكن... ليكن وعيك هو ما تحمله/ يحملك، ولا تتراجع عن أسئلتك المشروعة. ولا تردّك الخشية عنها، ستُشرق شمس مختلفة قريباً، في قلبك/ عقلك، وتخلّص من تلك العَتمة التي حَوَتْ الشرور بداخلك لفترة من دون أن تنتبه، ولا تتدثّر بالخوف كل العمر، فحقيبتك التي بها كُلّفت سيزداد وزنها و تشدّك إلى الوراء بلا طائل.

يا قارئي الجميل، سأصارحك بأنني مازلت «بدائية» وأحاول القفز نحو الضوء أكثر.

فُتح الصندوق في يناير ٢٠١٦

أغلق الصندوق في أكتوبر ٢٠١٧

السيرة الذاتية

ميس خالد العثمان

كاتبة وروائية من الكويت

عضو رابطة الأدباء في الكويت

موظفة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، إدارة النشر والتوزيع منذ ١٥ يونيو ٢٠٠٠ وحتى الآن.

باحث أدبي في **«العلاقات العامة»** في **«دار الآثار الإسلامية»** في الكويت منذ أبريل ٢٠١٣ حتى ٢٥ أكتوبر ٢٠١٥

محرّر في **«جريدة الفنون»** الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت منذ ٢٠٠٠ حتى ٢٠٠٨، ثم سكرتيراً ومديراً للتحرير منذ ٢٠٠٨ - ٢٠١٢.

متخرجة من جامعة الكويت / قسم الإعلام والاتصال ٩٩ ـ ٢٠٠٠

لها من الإصدارات:

- **«ثؤلول»** رواية ٢٠١٥ صادرة عن **«دار العين»** – **القاهرة**
- **«رحلة إلى أسرار الشرق القديم»** نصوص سردية، في كتاب آثاري/ سردي مشترك مع الباحث **«عقيل يوسف عيدان»** من إنتاج (**دار الآثار الإسلامية**) الكويت – ٢٠١٤
- **«أفتح قوسًا وأُغلقهُ»** سرد ذاتي ٢٠١٣ دار العين/ القاهرة
- **«لم يستدل عليه»** رواية ٢٠١١ عن دار العين / القاهرة
- **«صلوات الأصابع»** نصوص سردية ٢٠١٠ عن دار العين / القاهرة
- **« عقيدة رقص»** رواية ٢٠٠٩ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت
- **«عرائس الصوف»** رواية ٢٠٠٦ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت
- **«غرفة السماء»** رواية ٢٠٠٤ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت
- **«أشياؤها الصغيرة»** قصص ٢٠٠٣ عن دار قرطاس / الكويت
- **«عبث»** قصص ٢٠٠١ عن دار قرطاس / الكويت

حصلتْ روايتها **«عرائس الصوف»** على جائزة **«ليلى العثمان»** للإبداع السردي ٢٠٠٦.

حصلت على جائزة **«الشيخة باسمة المبارك»** للقصص القصيرة ٢٠٠٤.

أقامت عدة أمسيات سَردية في الكويت (**رابطة الأدباء/ جمعية الخريجين/ مهرجان القرين الثقافي التاسع ٢٠٠٣**) .

شاركت في عدة فعاليات ثقافية خارج الكويت (**البحرين ٢٠٠٣/ صلالة ٢٠٠٦/ الشارقة ٢٠٠٧و ٢٠١٤/ البصرة 2015**)

ترجمت معظم كتبها إلى لغة «**برايل**» للمكفوفين وهي مُهداة لـ جمعية المكفوفين الكويتية.

السرة ص.ب ٨٨٥

الرمز البريدي ٤٥٧٠٩

دولة الكويت

البريد الإلكتروني:

Mais.justwrite@hotmail.co.uk

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

صُندُوق الأربَعِين

قد يساورك شكٌ كثير حتى في تمتمتك.
أن تنتبه.. أن تستحيل مخلوقاً من انتباه.
لا تغفل عن خيانات المبادئ، تحالفات ما تحت وأعلى الطاولات، المرايا التي لا تعكس لنا إلا الجزء الظاهر منها، الولاءات التي تُشترى بـ "رنين النقود". وأنت؟ تكتفي بـيقينك، تعيد في كلّ مرة / صدمة / خبر، ترتيب التفاصيل الناشئة للتو، تنظر جيداً وعميقاً لآخر الجدران المتهالكة بينما عيناك شهود حدث مؤسف.
تعيد التمتمة:
ضاع فرد جديد، اشتروك يا صديق.. وداعا.
تضحك من أنفك بقلب بارد، لقد ضاع قبله كثيرون وانتهى، لقد اختار.

Cover by zahz_art

E-mail: publish@tashkeel-publishing.com
Tashkeeel
201006250473
www.tashkeel-publishing.com
تشكيل للنشر والتوزيع
9 789776 555709